ترجمة المؤلف

تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحرّاني الدمشقي

هو شيخ الإسلام الإمام الرباني الصابر المحتسب المجاهد تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري [1] الحراني ، ناصر السنة وقامع البدعة ، مفتي الأمة وترجمان القرآن ، وعلم الزهاد ، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها . ولد بحران [2] سنة ٦٦١هـ وقدم به أهله إلى دمشق وعمره ست سنوات . وقد عني بالقرآن والحديث والفقه والعربية مع العفاف والتأله ، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة ، وكان سيفاً مسلولاً على المخالفين من الكفار وأهل الأهواء . زادت مؤلفاته على ثلاثمائة مجلد ، وكانت وفاته – عليه رحمة الله – في قلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ .

● ● ●

---

(١) وذكر الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم عن ابن تيمية في الصفحة ١٨ من الطبعة الثانية أن المؤرخين الذين قرأ لهم لم يذكروا القبيل الذي تنتمي إليه أسرة ابن تيمية ، ولم ينسبوه إلى قبيلة من قبائل العرب ، ويستنتج من ذلك أنه لم يكن عربياً ، أو لم يعرف أنه عربي ، ولعله كان كردياً .

فكتب أستاذنا العلامة الشيخ محمد بن مانع يقول : (الصحيح أنه عربي نميري وذلك مذكور في مصورة « شرح بديعة البيان » لابن ناصر الدين وبخطه عند ترجمة جده في الصفحة ٤١٠ وعند ترجمته في الصفحة ٤٢٤) .

(٢) هي حران الجزيرة ، ومن ذكر أنها التي قرب دمشق فقد وهم .

ولما كان هذا الكتاب يبحث في أمر اتهم بخلافه شيخ الإسلام ، أحببنا إيراد فقرات مما كتب أستاذنا الجليل العلامةالشيخ محمد بهجة البيطار في كتابه القيم « حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » الذي قمنا بنشره هذا العام .

● اتهم شيخ الإسلام بتشبيه الله تعالى بخلقه أو التجسيم ، على كثرة ردوده على المشبهة ، والمجسمة ، كما كان يرد على القدرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وغيرهم من المؤولة والمعطلة ، وهو لايزيد على ما وصف الله تعالى به نفسه في مثل قوله : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فقد أثبت في هذه الآية لنفسه ذاتا وصفات وفيها التنزيه عن المماثلة ، وهو سبحانه كما وصف نفسه بقوله : (رفيع الدرجات ذو العرش) ... وكل شيء محتاج إليه ، وهو مستغن عما عداه ، وهو مالك العرش ومدبره ، فهو مستول على عالم الأجسام ، وأعظمها العرش ، كما هو مستول على عالم الروحانيات وهي مسخرة له .

● لقد صدق كثير من العلماء والأدباء في مختلف العصور هذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير ، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها إلى عصرنا هذا، حتى ان دائرة المعارف الإسلامية التي تنقل الآن إلى العربية في مصر ، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الأستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩ – ١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه .

إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به ،إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المبارك عام ست وعشرين وسبعمائة هجرية وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمان وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع ويسمعه ؟؟

● لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع، كما زعم ابن بطوطة – (١/٥٧) « فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع » – بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : – « ونزل درجة من درج المنبر » – وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاها على ابن جزي الكلبي ، وقال هذا في المقدمة: « ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمعاني التي اعتمدها » فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله تعالى أعلم [١] .

(١) وقال في آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة » وهذا دليل واضح على أن الرحلة لم تصلنا بألفاظ مؤلفها .

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يقول سيدنا وشيخنا – شيخ الإسلام وقدوة الأنام ، أيده الله ورضي عنه – في رجلين تنازعا في « **حديث النزول** »[1] :

أحدهما مثبتٌ ، والآخر نافٍ .

فقال المثبت : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فقال النافي كيف ينزل ؟ فقال المثبت ينزل بلا كيف ، فقال النافي : يخلو منه العرش أم لا يخلو؟ فقال المثبت: هذا قول مبتدَع ورأي مخترع،فقال النافي: ليس هذا جوابي ، بل هو حَيْدَةٌ عن الجواب[2] ، فقال له المثبت : هذا جوابك . فقال النافي : إنما ينزل أمره ورحمته ، فقال المثبت : أمره ورحمته ينزلان كل ساعة ، والنزول قد وقت له رسول الله ﷺ ثلث الليل ، فقال النافي : الليل لا يستوي وقته في البلاد ، فقد يكون الليل في بعض البلاد خمس عشرة ساعة ، ونهارها تسع ساعات ، ويكون في بعض البلاد ست عشرة ساعة ، والنهار ثمان ساعات ، وبالعكس ؛ فوقع الاختلاف في طول الليل وقصره بحسب الأقاليم والبلاد ،

---

(١) هو في الموطأ ٢١٤/١ ، والبخاري ٢٥/٣ ، ٢٦ ، ومسلم ٥٢١/١ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟.

(٢) حاد عنه حيدة ، أي مال .

وقد يستوي الليل والنهار في بعض البلاد وقد يطول الليل في بعض البلاد حتى يستوعب أكثر الأربع وعشرين ساعة ، ويبقى النهار عندهم وقت يسير ، فيلزم على هذا أن يكون ثلث الليل دائماً ، ويكون الرب دائماً نازلاً إلى السماء .

والمسؤول إزالة الشبه والإشكال ، وبيان الهدى من الضلال .

فأجاب رضي الله عنه فقال :

الحمد لله رب العالمين. أما القائل الأول الذي ذكر نص النبي ﷺ ، فقد أصاب فيما قال، فإن هذا القول الذي قاله قد استفاضت به السنة عن النبي ﷺ ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول . ومن قال ما قاله الرسول ﷺ ، فقوله حق وصدق ، وإن كان لا يعرف حقيقة ما اشتمل عليه من المعاني ؛ كمن قرأ القرآن ولم يفهم ما فيه من المعاني ؛ فإن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، والنبي ﷺ قال هذا الكلام وأمثاله علانية ، وبلغه الأمة تبليغاً عاماً لم يخصّ به أحداً دون أحد ، ولا كتمه عن أحد ، وكان الصحابة والتابعون تذكره وتأثره وتبلغه ، وترويه في المجالس الخاصة والعامة ، واشتملت عليه كتب الإسلام التي تقرأ في المجالس الخاصة والعامة كـ « صحيحي البخاري ومسلم » و « موطأ مالك » و « مسند الإمام أحمد » و « سنن أبي داود » و « الترمذي » و « النسائي » ، وأمثال ذلك من كتب المسلمين .

ولكن من فهم من هذا الحديث وأمثاله مايجب تنزيه الله عنه ، كتمثيله بصفات المخلوقين ، ووصفه بالنقص المنافي لكماله الذي يستحقه ، فقد أخطأ في ذلك ، وإن أظهر ذلك ، منع منه ، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه ؛ فقد أخطأ أيضاً في ذلك؛ فإنّ وصفه سبحانه وتعالى في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات ، كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، ووصفه بالإتيان والمجيء في مثل قوله : (هل يَنْظُرونَ إلا أنْ يَأتِيَهُمُ

اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ والمَلائِكَةُ) [البقرة – ٢١٠] ،وقوله: (هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أَنْ تَأتِيَهُمُ الملائِكةُ ، أَوْ يَأتِيَ رَبُّكَ ، أَوْ يَأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ) [الأنعام – ١٥٨] ، وقوله : (وجاءَ رَبُّكَ والملكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر – ٢٢]، وكذلك قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيامٍ ثمَّ استَوى على العَرْشِ) [الفرقان – ٥٩] ، وقوله : (والسماءَ بَنَيْناهَا بأيْدٍ) [الذاريات – ٤٧] ، وقوله : (اللهُ الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شيءٍ ؟) [الروم – ٤٠] وقوله : (يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليْهِ)[السجدة – ٥] ، وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه التي تسميها النحاة أفعالاً متعدية ، وهي غالب ما ذكر في القرآن ، أو يسمونها لازمة لكونها لاتنصب المفعول به، بل لاتتعدى إليه إلا بحرف الجر ، كالاستواء إلى السماء وعلى العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ، ونحو ذلك .

فإن الله وصف نفسه بهذه الأفعال ، ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية في مثل قوله : (وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ) [البقرة – ٣٠] ، وقوله : (وَكَلَّمَ اللهُ موسَى تَكْلِيما) [النساء – ١٦٣]، وقوله تعالى : (وَنادَاهُما رَبُّهُما) [الأعراف – ٢١] ، وقوله : (ويَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ : مَاذَا أجَبْتُمُ المُرْسَلِينَ ؟) [القصص – ٦٥] ، وقوله : (واللهُ يقولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)[الأحزاب – ٤] ، وقوله : (اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ ليَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوْمِ القِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ؟!) [النساء – ٨٦] ، وقوله : (اللهُ نزَّلَ أحْسَنَ الحديثِ) [الزمر – ٢٣] ، وقوله : (وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنى على بني إسْرائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) [الأعراف – ١٣٦] ، وقوله : (وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)

[الأنعام – ١١٥] ، وقوله : (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ) [آل عمران – ١٥٢] .

وكذلك وصف نفسه بالعلم والقوة والرحمة ونحو ذلك كما في قوله : (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ) [البقرة – ٢٥٦] ، وقوله : (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ) [الذاريات – ٥٨] ، وقوله : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً) [الذاريات – ٥٨] ، وقوله : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ) [الأعراف – ١٥٦] ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه في كتابه وما صح عن رسوله ﷺ ، فإن القول في جميع ذلك من جنس واحد .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بماوصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ في النفي والاثبات ، والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين ، فقال الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) فبين أنه لم يكن أحد كفءاً له ، وقال تعالى : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً ؟) [مريم – ٦٥] فأنكر أن يكون له سميٌ ، وقال تعالى : (فَلا تَجْعَلُوا للهِ أَنْداداً) [البقرة – ٢٢] ، وقال تعالى : (فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ) [النحل – ٧٤] ، وقال تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى – ١١] .

ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفء والسمي والمثل والند وضرب الأمثال له؛ بيان أن لامثل له في صفاته ولا أفعاله ، فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات ، فإن الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتها وأفعالها ، إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات ، فإن الصفة تابعة للموصوف بها ، والفعل أيضاً تابع للفاعل ، بل هو مما يوصف به الفاعل . فإذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين ، حتى إنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين ، كالانسانين لما كانا من نوع واحد، فتختلف مقاديرهما وصفاتها بحسب اختلاف ذاتيهما،ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك.

كذلك إذا قيل : بين الانسان والفرس تشابه من جهة أن هذا حيوان وهذا حيوان ، واختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل ،وغير ذلك من الأمور ؛ كان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين ، وذلك أن الذات المجردة عن الصفة لاتوجد إلا في الذهن ، والذهن يقدر ذاتاً مجردة عن الصفة ، ويقدر وجوداً مطلقاً لايتعين ، وأما الموجودات في أنفسها فلا يمكن فيها وجود ذات مجردة عن كل صفة ، ولا وجود مطلق لايتعين ولايتخصص .

وإذا قال من قال من أهل الإثبات للصفات : أنا أثبت صفات لله زائدة على ذاته فحقيقة ذلك أنا نثبتها زائدة على ما أثبتها النفاة من الذات ، فإن النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات ، فقال أهل الإثبات : نحن نقول بإثبات صفات زائدة على ما أثبته هؤلاء ، وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لايتصور أن تتحقق بلا صفة أصلاً ، بل هذا بمنزلة من قال : أثبت إنساناً لا حيواناً ولا ناطقاً ولا قائماً بنفسه ولا بغيره ولا قدرة ولا حياة ولا حركة ولا سكون أو نحو ذلك ، أو قال : أثبت نخلة ليس لها ساق ولا جذع ولاليف ولا غير ذلك ؛ فإن هذا يثبت ما لا حقيقة له في الخارج ، ولا يعقل ؛ ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة ، لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى ، وإن كانوا هم قد لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل ، بل يصفونه بالوصفين المتناقضين ، فيقولون : هو موجود قديم واجب ، ثم ينفون لوازم وجوده ؛ فيكون حقيقة قولهم : موجود ليس بموجود ، حق ليس بحق ، خالق ليس بخالق ، فينفون عنه النقيضين ، إما تصريحاً بنفيها ، وإما إمساكاً عن الإخبار بواحد منها .

ولهذا كان محققوهم ـ وهم القرامطة ـ ينفون عنه النقيضين ، فلايقولون : موجود ولا لاموجود ، ولاحي ولالاحي ، ولاعالم ولالاعالم . قالوا : لأن وصفه بالاثبات تشبيه له بالموجودات ووصفه بالنفي فيه تشبيه له بالمعدومات ، فآل بهم إغراقهم في نفي التشبيه إلى أن وصفوه بغاية التعطيل . ثم إنهم لم يخلصوا مما فروا منه ، بل يلزمهم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالممتنع الذي هو أخس

من الموجود والمعدوم الممكن ، ففروا في زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات ، ووصفوه بصفات الممتنعات التي لا تقبل الوجود ، بخلاف المعدومات الممكنات ، وتشبيهه بالممتنعات شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات الممكنات .

وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور ، فإنه إذا سُمِّيَ حقاً موجوداً قائماً بنفسه حياً عليماً رؤوفاً رحيماً ، ويسمى المخلوق بذلك ؛ لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلًا للمخلوق أصلًا . ولو كان هذا حقاً ، لكان كل موجود مماثلًا لكل موجود ؛ ولكان كل معدوم مماثلًا لكل معدوم؛ ولكان كل ما ينفى عنه شيء من الصفات مماثلًا لكل ما ينفى عنه ذلك الوصف. فإذا قيل : السواد موجود ، كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلًا للسواد ، وإذا قلنا: البياض معدوم ، كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلًا للبياض، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد ، ويكفي هذا خزياً لحزب الالحاد .

وإذا لم يلزم مثل ذلك في السواد الذي له أمثال بلا ريب ، فإذا قيل في خالق العالم: إنه موجود لا معدوم ، حي لا يموت ، قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فمن أين يلزم أن يكون مماثلًا لكل موجود ومعدوم وحي وقائم ، ولكل ما ينفي عنه العدم وما ينفي عنه صفة العدم ، وما ينفي عنه الموت والنوم ، كأهل الجنة الذين لا ينامون ، ولا يموتون ؟! وذلك أن هذه الأسماء العامة المتواطئة التي تسميها النحاة أسماء الأجناس سواء اتفقت معانيها في محالها أو تفاضلت كالسواد ونحوه ، وسواء سميت مشككة – وقيل : إن المشككة نوع من المتواطئة – إما أن تستعمل مطلقة وعامة ، كما إذا قيل : الموجود ينقسم إلى واجب وممكن ، وقديم ومحدث ، وخالق ومخلوق ، والعلم ينقسم إلى قديم ومحدث ، وإما أن تستعمل خاصة معينة كما إذا قيل : وجود زيد وعمرو وعلم زيد وعمرو ، وذات زيد وعمرو ، فإذا استعملت خاصة معينة دلت على ما يختص به المسمى ، لم تدل على ما يشركه فيه غيره في الخارج ، فإن ما يختص به المسمى ، لا شركة فيه بينه وبين غيره .

فإذا قيل : علم زيد ، ونزول زيد ، واستواء زيد ، ونحو ذلك ؛ لم يدل هـذا إلا على ما يختص به زيد من علم ونزول واستواء ونحو ذلك ، لم يدل على مايشركه فيه غيره ، لكن لما علمنا أن زيداً نظير عمرو ، وعلمنا أن علمه نظير علمه ، ونزوله نظير نزوله ، واستواءه نظير استوائه ، فهذا علمناه من جهة القياس والمعقول والاعتبار ، لا من جهة دلالة اللفظ ، فإذا كان هذا في صفات المخلوق ؛ فذلك في الخالق أولى .

فإذا قيل : علم الله وكلام الله ونزوله واستواؤه ووجوده وحياته ونحو ذلك ؛ لم يدل ذلك على ما يشركه فيه أحد من المخلوقين بطريق الأولى ، ولم يدل ذلك على مماثلة الغير له في ذلك كما دل في زيد وعمرو ، لأنا هناك علمنا التماثل من جهة الاعتبار والقياس لكون زيد مثل عمرو ، وهنا نعلم أن الله لا مثل له ولا كفء ولا ند ؛ فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ، ولا كلامه مثل كلام غيره ، ولا استواءه مثل استواء غيره ، ولا نزوله مثل نزول غيره ، ولا حياته مثل حياة غيره .

ولهذا كان مذهب السلف والأئمة إثبات الصفات ، ونفي مماثلتها بصفات المخلوقات . فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه ، منزه عن صفات النقص مطلقاً ، ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله .

فهذان المعنيان جمعا التنزيه ، وقد دل عليهما قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ) . فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال ، والاسم الأحد يتضمن نفي المثل كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير لهذه السورة .

فالقول في صفاته كالقول في ذاته ، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة إلى موصوفها كنسبة هذه الصفة الى موصوفها ، فعلم الله وكلامه ونزوله واستواؤه هو كما يناسب ذاته ويليق بها ، كما أن صفة العبد هي كما يناسب ذاته وتليق بها ، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفات العبد إلى ذاته ؛

ولهذا قال بعضهم : إذا قال لك السائل : كيف ينزل ، أو كيف استوى ، أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق ؟ فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال : أنا لا أعلم كيفية ذاته ؛ فقل له : وأنا لا أعلم كيفية صفاته ، فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف .

فهذا إذا استعملت هذه الأسماء والصفات على وجه التخصيص والتعيين ، وهـــذا هو الوارد في الكتاب والسنة . وأما إذا قيلت مطلقة وعامة — كما يوجد في كلام النظار : الموجود ينقسم إلى قديم ومحدث ، والعلم ينقسم إلى قديم ومحدث ، ونحو ذلك — فهذا مسمى اللفظ المطلق والعام ، والعلم معنىً مطلق وعام ، والمعاني لا تكون مطلقة وعامة إلا في الأذهان لا في الأعيان ؛ فلا يكون موجوداً وجوداً مطلقـــاً أو عاماً إلا في الذهن ، ولا يكون مطلق أو عام إلا في الذهن ، ولا يكون إنسان أو حيوان مطلق وعام إلا في الذهن ؛ وإلا فلا تكون الموجودات في انفسها إلا معينة مخصوصة متميزة عن غيرها .

فليتدبر العاقل هذا المقام الفارق ، فانه زل فيه خلق من أولي النظر الخائضين في الحقائق حتى ظنوا أن هذه المعاني العامة المطلقة الكلية تكون موجودة في الخارج كذلك ، وظنوا أنا إذا قلنا : إن الله عز وجل موجود حي عليم ، والعبد موجود حي عليم ؛ أنه يلزم وجود موجود في الخارج يشترك فيه الرب والعبد ، وأن يكون ذلك الموجود بعينه في العبد والرب ، بل وفي موجود ، ولا بد أن يكون للرب ما يميزه عن المخلوق ؛ فيكون فيه جزآن:

أحدهما : لكل مخلوق ، وهو القدر المشترك بينه وبين سائر الموجودات .

والثاني : يختص به ، وهو المميز له عن سائر الموجودات ، ثم لا يدركون فيما يختص به إلا ما يلزم فيه مثل ذلك . فاذا قالوا : يمتاز بذاته أو بحقيقته أو ماهيته أو نحو ذلك ؛ كان ذلك بمنزلة قولهم : يمتاز بوجوده ؛ فان الذات والحقيقة والماهية تستعمل مطلقاً ومعيناً كلفظ الوجود سواء .

وهذا المقام حار فيه طوائف من أئمة النظر ، حتى قالت طائفة : إن لفظ الوجود وغيره

مقول بالاشتراك اللفظي فقط ، وحكوا ذلك عن كل من قال بنفي الأحوال ، وهم عامة أهل الإثبات ، فصار مضمون نقلهم أن مذهب عامة أهل الإسلام ومتكلمة الاثبات – كابن كلاب ، والأشعري ، وابن كرام ، وغيرهم ، بل ومحققي المعتزلة ، كأبي الحسين وغيره – أن لفظ الوجود وغيره مما يسمى الله به ويسمى به المخلوق إنما يقال بالاشتراك اللفظي فقط من غير أن يكون بين المسميين معنى عام ، كلفظ المشتري إذا سُمي به المبتاع والكوكب ، ولفظ سهيل المقول على الكوكب والرجل .

وهذا النقل غلط عظيم عمن نقلوه عنه ، فان هؤلاء متفقون على أن هذه الأسماء عامة متواطئة – كالتواطؤ العام الذي يدخل فيه المشكك – تقبل التقسيم والتنويع ، وذلك لايكون إلا في الأسماء المتواطئة ، كما نقول : الموجود ينقسم إلى قديم ومحدث ، وواجب وممكن ، بل هؤلاء الناقلون بأعيانهم ، كأبي عبـــد الله الرازي وأمثاله من المتأخرين ، يجمعون في كلامهم بين دعوى الاشتراك اللفظي فقط ، وبين هذا التقسيم في هذه الأسماء ، مع قولهم : إن التقسيم لا يكون إلا في الألفاظ المتواطئة المشتركة لفظاً ومعنى ، لايكون في المشترك اشتراكاً لفظياً ، ومن جملتها التي يسمونها المشككة لا يكون التقسيم في الأسماء التي ليس بينها معنى مشترك عام .

فهذا تناقض هؤلاء الذين هم من أشهر المتأخرين بالنظر والتحقيق للفلسفة والكلام ، قد ضلوا في هذا النقل – وهذا البحث في مثل هذا الأصل ضلالاً لا يقع فيه أضعف العوام – وذلك لما تلقوه عن بعض أهل المنطق من القواعد الفاسدة التي هي من الهدى والرشد حائدة ، حيث ظنوا أن الكليات المطلقة ثابتة في الخارج جزءاً من المعينات ؛ وأن ذلك يقتضي تركيب المعين من ذلك الكلي المشترك ومما يختص به ؛ فلزمهم على هذا القول أن يكون الرب تعالى الواجب الوجود مركباً من الوجوب أو الوجود المشترك ، ومما يختص به من الوجود أو الماهية ، مع أنه من المشهور عند أهل المنطق أن الكليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان .

ومن هداه الله تعالى يعلم أن الموجودات لاتشترك في شيء موجود فيها أصلًا ، بل كل موجود متميز بنفسه ما له من الصفات والأفعال ، وأنا إذا قلنا : إن هذا الانسان حي متكلم ، أو حيوان ناطق ، ونحو ذلك ؛ لم يكن بما له من الحيوانية أو الناطقية ، أو النطق والحياة مشتركاً بينه وبين غيره ، بل له ما يخصه ، ولغيره ما يخصه ، ولكن تشابها وتماثلا بحسب تشابه حيوانيتها ونطقيتها ، وغير ذلك من صفاتها .

ومن قال : إن الانسان مركب مما به الاشتراك ، وهو الحيوانية ، وما به من الامتياز ، وهو النطق ؛ فإن أراد بذلك أن هذا تركيب ذهني ، فإنا إذا تصورنا في أذهاننا حيواناً ناطقاً ؛ كان الحيوان جزء هذا المعنى الذهني ، والنطق جزءه الآخر وكان الحيوان جزءاً له أشباه أكثر من أشباه الناطق . وإذا تصورنا مسمى حيوان ومسمى ناطق ؛ كان مسمى الحيوان يعم الانسان وغيره ، وكان مسمى الناطق يخصه – فدعوى التركيب في هذه المعاني الذهنية صحيح ، لكن ليس هذا ضابطاً ، بل هو بحسب مايتصوره الانسان سواء كان تصوره حقاً أو باطلًا . ومتى أريد بجزء الماهية الداخل فيها ما يدخل في هذا التصور ، وبجزئها الخارج عنها اللازم لوجودها ما يدل عليه هذا اللفظ بالتضمن والالتزام ، وأراد بتمام الماهية ما يدل عليه بالمطابقة ؛فهذا صحيح لكن هذا لايقتضي أن تكون الحقائق الموجودة في الخارج مركبة من الصفات الخاصة والعامة ، ولا أن يكون بعض صفاتها اللازمة داخلة في الحقيقة ذاتياً لها وبعضها خارجاً عن الحقيقة عارضاً لها ، كما يزعمه أهل المنطق اليوناني .

وهذا الموضع مما ضلوا فيه ، وضل بسبب ضلالهم فيه الطوائف الذين اتبعوهم في ذلك من النظار ، وقلدهم في ذلك من لم يفهم حقيقة قولهم ولوازمه ولم يتصوروه تصوراً تاماً .

وإن أرادوا بالتركيب أنه موصوف بالحياة والنطق – وإحدى الصفتين يوجد نظيرها

في سائر الحيوان ، والأخرى مختصة بالإنسان - فهذا معنى صحيح . وإن أرادوا به أن حيوانيته مشتركة بينه وبين غيره ، فهو غلط ، فإن حيوانية كل حيوان كناطقية كل ناطق، وذلك مختص بمحله . وكذلك إن أرادوا بالتركيب أن هنا موجوداً موصوفاً بأنه حيوان غير الموجود الموصوف بأنه ناطق وصاهل ، وأن الإنسان مركب من هذا الموجود وهذا الموجود ؛ فهو غلط ، بل لا موجود إلا هذا الإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق ، وهذا الفرس الموصوف بأنه حيوان صاهل، وكذلك سائر الحيوانات والموجودات . فقول القائل: الانسان مركب من هذا وهذا ، إذا أريد به أن هنا شيئاً مركباً . وأن له جزئين مباينين هو مركب منهما ؛ كان جاهلاً، بل هو شيء واحد موصوف بصفتين لا يوجد إلا بصفتيه، ولا توجد صفاته إلا به .

وهذا المعنى صحيح ، وهو أن الإنسان موصوف بأنه حيوان ، وأنه ناطق حقيقة، وأنه ذات مستلزمة لصفاتها ، لا يوجد الموصوف بدون صفته اللازمة له . لكن هذا ليس في الخارج تركيباً ، وليس في الخارج صفة لازمة ذاتية ، وأخرى عرضية لازمة للماهية ، وأخرى لازمة لوجوده ، بل ليس في الخارج إلا الموجود المعين ، وصفاته تنقسم إلى لازمة له ، وعارضة ، وهو لا يوجد بدون شيء من صفاته اللازمة ؛ فليس فيها ما هو لازم للذات الموجودة في الخارج كما يظن ذلك من يظنه من المنطقيين .

وأصل خطئهم أنه اشتبه عليهم ما يتصور في الأذهان بما يوجد في الأعيان ، فإن الذهن يتصور المثلث قبل وجوده في الخارج ، وظنوا أن الماهية مغايرة للوجود ، وهو صحيح إذا فسرت الماهية بما يتصوره الذهن ، وأما أن يكون في الخارج مثلث له ماهية ثابتة في الخارج غير الشيء الموجود في الخارج ؛ فهذا غلط بيّن ، فإذا فُهم هذا في صفة المخلوق ؛ فالخالق أبعد عما سماه هؤلاء تركيباً .

فإذا قيل : إن الله سبحانه وتعالى حي عليم قدير ؛ فهو موصوف بأنه الحي العليم القدير

وإذا قيل : هو موجود واجب بنفسه ؛ فهو سبحانه موصوف بالوجود والوجوب ، فلا مشاركة بينه وبين غيره في شيء موجود ، ولا هو مركب من جزأين ، ولا صفات مقومة تكون أجزاء لوجوده ، ولا نحو ذلك مما يُدعى من التركيب الذي هو ممتنع في المخلوق ؛ فهو في الخالق أشد امتناعاً .

ولفظ التركيب مجمل يدخل عند هؤلاء فيه اتصاف الموصوف بصفاته اللازمة له، وليس هذا هو المعقول من لفظ التركيب ، وهؤلاء أحدثوا اصطلاحاً لهم في لفظ «التركيب» لم يسبقهم إليه أحد من أهل اللغة ، ولا من طوائف أهل العلم ، فجعلوا لفظ التركيب يتناول خمسة أنواع .

أحدها : التركيب من الوجود والماهية لظنهم أن وجود كل ممكن في الخارج غير ماهيته ، ومتى أريد بجزء الماهية الداخل فيها يدخل في هذا المتصور وبلازمها الخارج عنها ما يلزم هذا التصور ، وهذان المعنيان هما ما يدل عليه اللفظ .

والثاني : التركيب من الجنس والفصل ، كقولهم : إن الإنسان مركب من الحيوانية والناطقية ، وقد يضمون إلى ذلك التركيب من المعنى العام والخاص يسمى تركيباً من جنس وفصل ، أو من خاصة وعرض عام .

الثالث : التركيب من الذات والصفات كمسمى الحي العالم القادر وتركيب الجسم من أجزائه الحسية عند من يقول : إنه مركب من الجواهر المفردة أو تركيبه من الجزئين العقليين عند من يقول : إنه مركب من المادة والصورة . وأما التركيب الأول والثاني ، فنازعهم جمهور العقلاء في ثبوتها في الخارج ، ويقولون : ليس في الخارج تركيب بهذا الاعتبار ، والتركيب الرابع والخامس فيه نزاع مشهور بين العقلاء منهم من يثبت في الجسم أحد التركيبين ، ومنهم من يقول : ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا . وأما الرابع ، فيوافقهم على ثبوته جماهير العقلاء ، ما أعلم من ينازعهم فيه نزاعاً معنوياً لكن حكي عن طائفة من أهل النظر كعبد الرحمن بن كيسان الأصم وغيره أنهم نفوا الأعراض ولم يثبتوا الأعراض زائدة على الجسم ، ونفوا كون الحركة زائدة على الجسم ، وخالفهم الأكثرون في ذلك ، وهذا — والله أعلم — نزاع لفظي ، وهو أن مسمى الجسم هل يتناول الجسم بأعراضه ، أم تكون الأعراض زائدة على مسمى الجسم ، وإلا فعاقل لا ينكر وجود الطعم واللون والرائحة

والحركة وغير ذلك من الصفات القائمة بالموصوفات ، وهذا يشبه نزاع الناس في أن الصفات هل هي زائدة على الذات أم لا ؟ فمن أراد بالذات الذات المجردة ، فالصفات زائدة عليها ، ومن أراد بالذات الذات الموصوفة ، فليست الصفات مباينة للذات الموصوفة بصفاتها اللازمة لها ، ثم إن هؤلاء زعموا أنهم ينفون هذه الأنواع . فأما الأنواع الأربعة ، فمن قال : إنها منتفية عن المخلوق ، فهي عن الخالق أشد انتفاء ، وأما النوع الرابع فمن نازع في أن الصفات هل هي زائدة على الذات أم لا ؟ فهذا نزاع لفظي ومن نازع في ثبوت هذه الصفات في نفس الأمر ، ونفى أن يكون لله علم وقدرة ومشيئة ، وجعل هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف ، فهذا قوله معلوم الفساد بعد التصور التام ، وإذا علم أنه سبحانه حي عليم قدير ، ومعنى كونه حياً ليس معنى كونه عليماً . ومعنى كونه عليماً ليس معنى كونه قديراً فهذا هو إثبات الصفات .

فإن قال القائل : إن معنى كونه عليماً هو معنى كونه مريداً قديراً حياً ، فهذا مكابرة ، وكذلك إذا ادعى أن هذه المعاني هي معنى الذات الموصوفة بها ، وإن اعترف بثبوت هذه المعاني لله ، وقال : أنا أنفي أن يكون الله مفتقراً إلى ذوات أو معانٍ بها يصير حياً عالماً قادراً ، فهذا مغاورة منه لمثبتة الأحوال كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهما ممن يقول : إن له علماً وعالمية ، وعالميته معنى زائد على علمه وهذا القول قول بعض الصفاتية ، وجمهورهم ينكرون هذا ، ويقولون : بل معنى العلم هو معنى العالم وفي مسائل الصفات ثلاثة أمور . أحدها : الخبر عنه بأنه حي عليم قدير ، فهذا متفق على إثباته ، وهذا يسمى الحكم . والثاني : أن هذه معان قائمة بذاته ، وهذا أيضاً أثبته مثبته الصفات السلف والأئمة والمنتسبون إلى السنة من عامة الطوائف . والثالث الأحوال وهو العالمية والقادرية وهذه قد تنازع فيها مثبتوا الصفات ونفاتها ، فأبو هاشم وأتباعه يثبتون الأحوال دون الصفات ، والقاضي أبو بكر وأتباعه يثبتون الأحوال والصفات ، وأكثر الجهمية والمعتزلة ينفون الأحوال والصفات ، وأما جماهير أهل السنة ، فيثبتون الصفات دون الأحوال ، وهذا لبسطه موضع آخر والمقصود هنا الكلام على التركيب لفظاً ومعنى ، وبيان هؤلاء لهم فيه اصطلاح مخالف لجمهور العقلاء ، وأنهم مضطرون إلى الإقرار بثبوت مانفوه ولكن هؤلاء يقولون : هذا اشتراك ، والاشتراك تشبيه ، ويقولون : هذه أجزاء ، وهذا تركيب من هذه الأجزاء ، ثم إنهم لا يقدرون على

نفي هذا الذي سموه اشتراكاً وتشبيهاً، ولا على نفي هذه الأمور التي سموها أجزاء وتركيباً وتقسيماً ، فإنهم يقولون : هو عاقل ومعقول وعقل، ولذيذ ولذة وملتذ ، وعاشق ومعشوق وعشق ، وقد يقولون : هو عالم قادر مريد ، ثم يقولون : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، فيجعلون كل صفة هي الأخرى ، ويقولون : العلم هو العالم – وقد يقولون : هو المعلوم – فيجعلون الصفة هي الموصوف أو هي المخلوقات .

وهذه أقوال رؤسائهم ، وهي في غاية الفساد في صريح المعقول ، فهم مضطرون إلى الإقرار بما يسمونه تشبيهاً وتركيباً ، ويزعمون أنهم ينفون التشبيه والتركيب والتقسيم ؛ فليتأمل اللبيب كذبهم وتناقضهم ، وحيرتهم وضلالهم ، ولهذا يؤول بهم الأمر إلى الجمع بين النقيضين ، أو الخلو عن النقيضين . ثم إنهم ينفون عن الله ما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسوله ﷺ ، لزعمهم أن ذلك تشبيه وتركيب ، ويصفون أهل الإثبات بهذه الأسماء ، وهم الذين ألزموها بمقتضى أصولهم ، ولا حيلة لهم في دفعها ، فهم كما قال القائل : رمتني بدائها وانسلت .

وهم لم يقصدوا هذا التناقض ، ولكن أوقعتهم فيه قواعدهم الفاسدة المنطقية التي زعموا فيها تركيب الموصوفات من صفاتها ، ووجود الكليات المشتركة في أعيانها ، فتلك القواعد المنطقية الفاسدة التي جعلوها قوانين تمنع مراعاتها الذهن أن يضل في فكره أوقعتهم في هذا الضلال والتناقض .

ثم إن هذه القوانين فيها ما هو صحيح لا ريب فيه ؛ وذلك يدل على تناقضهم وجهلهم ، فإنهم قد قرروا في القوانين المنطقية أن الكلي هو الذي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه بخلاف الجزئي ، وقرروا أيضاً أن الكليات لا تكون كلية إلا في الأذهان دون الأعيان ، وأن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون إلا في الذهن ، وهذه قوانين صحيحة .

ثم يدعون ما ادعاه أفضل متأخريهم أن الواجب الوجود هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق عن كل أمر ثبوتي .

أو كما يقوله طائفة منهم: أنه الوجود المطلق بشرط الإطلاق عن كل أمر ثبوتي وسلبي؛ كما يقول ذلك من يقوله من الملاحدة الباطنية المنتسبين إلى التشيع والمنتسبين إلى التصوف.

أو يقوله طائفة ثالثة : إنه الوجود المطلق لا بشرط كما يقوله طائفة منهم .

وهم متفقون على أن المطلق بشرط الإطلاق عن الأمور الوجودية والعدمية لا يكون

في الخارج موجوداً، فالمطلق بشرط الإطلاق عن كل أمر ثبوتي أولى أن لا يكون موجوداً، فإن المقيد بسلب الوجود والعدم نسبته إليهما سواء، والمقيد بسلب الوجود يختص بالعدم دون الوجود ، والمطلق لا بشرط إنما يوجد مطلقاً في الأذهان .

وإذا قيل : هو موجود في الخارج، فذلك بمعنى أنه يوجد في الخارج مقيداً ، لا أنه يوجد في الخارج مطلقاً ، فإن هذا باطل ، وإن كانت طائفة تدعيه . فمن تصور هذا تصوراً تاماً ؛ علم بطلان قولهم ، وهذا حق معلوم بالضرورة ، فهذا القانون الصحيح لم ينتفعوا به في إثبات وجود الرب ، بل جعلوه مطلقاً بشرط الإطلاق عن النقيضين ، أو عن الأمور الوجودية ، أو لا بشرط ، وذلك لا يتصور إلا في الأذهان .

والقوانين الفاسدة أوقعتهم في ذلك التناقض والهذيان، وهم يفرون من التشبيه بوجه من الوجوه ، ثم يقولون : الوجود ينقسم إلى واجب وممكن فهما مشتركان في مسمى الوجود وكذلك لفظ الماهية ، والحقيقة ، والذات . ومهما قيل : هو ينقسم إلى واجب وممكن ، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام ، فقد اشتركت الأقسام في المعنى العام الكلي الشامل لما تشابهت فيه ، فهذا تشبيه يقولون به ، وهم يزعمون أنهم ينفون كل ما يسمى تشبيهاً ، حتى نفوا الأسماء ، فكان الغلاة من الجهمية والباطنية لا يسمونه شيئاً فراراً من ذلك . وأي شيء أثبتوه ، لزمهم فيه مثل ذلك ، وإلا لزم أن لا يكون وجود واجب الوجود ممكناً ، وقديماً محدثاً ، وأن المحدث والممكن لا بد له من قديم ، ومن المعلوم بالاضطرار أن الوجود فيه محدث ممكن ، وأن المحدث الممكن لا بد له من قديم واجب بنفسه ، فثبوت النوعين ضروري لا بد منه .

وحقيقة الأمر أن لفظ المطلق قد يُعنى به ما هو كلي لا يمنع تصور معناه من وقوع الشركة فيه ، ويمتنع أن يكون شيء موجود في الخارج قائماً بنفسه أو صفة لغيره بهذا الاعتبار ، فضلاً عن أن يكون رب العالمين الأحد الصمد كذلك . وقد يراد بالمطلق: المجرد عن الصفات الثبوتية أو عن الثبوتية والسلبية جميعاً، والمطلق لا بشرط الإطلاق ، وهذا إذا قُدِّر جعل معيناً خاصاً لا كلياً ، فإنه يمتنع وجوده في الخارج أعظم من امتناع الكليات المطلقة بشرط، لكونها كلية ، فإن تلك الكليات لها جزئيات موجودة في الخارج ، والكليات مطابقة لها .

وأما وجود شيء مجرد عن أن يوصف بصفة ثبوتية وسلبية ؛ فهذا يمتنع تحققه في الخارج

كلياً وجزئياً ، وكذلك المجرد عن أن يوصف بصفة ثبوتية ، بل هـذا أولى بالامتناع منه . وإذا كان هذا قد شارك سائر الموجودات في مسمى الوجود ولم يميز عنها إلا بالقيود السلبية ، وهي قد امتازت عنه بالقيود الوجودية ، كان كل ممكن في الوجود أكمل من هـذا الذي زعموا أنه واجب الوجود ، فإن الوجود الكلي مشترك بينه وبينها ، ولم يميز عنها إلا بعدم، وامتازت عنه بوجود ؛ فكان ما امتازت به عنه أكمل مما امتازت به هو عنها ، إذ الوجود أكمل من العدم .

وأما إذا قيل : هو الوجود لا بشرط ، فهذا هو الوجود الكلي والطبيعي المطابق لكل موجود ، وهذا لا يكون كلياً إلا في الذهن ، وأما في الخارج ؛ فلا يوجد إلا معيناً . ومن الناس من قال : إن هذا الكلي جزء من المعينات .

فإن كان الأول هو الصواب ؛ لزم أن يكون الموجود الواجب معدوماً في الخارج أو أن يكون عين الواجب عين الممكن ، كما يقوله من يقوله من القائلين بوحدة الوجود ، وإن كان الثاني هو الصواب ؛ لزم أن يكون وجوده جزءاً من كل موجود ؛ فيكون الواجب الوجود جزءاً من وجود الممكنات .

ومن المعلوم بصريح العقل أن جزء الشيء لا يكون هو الخالق له كلـه ، بل يمتنع أن يكون خالقاً لنفسه فضلاً عن أن يكون خالقاً لما هو بعضه ، إذ الكل أعظم من الجزء ، فإذا امتنع أن يكون خالقاً للجزء ؛ فامتناع كونه خالقاً للكل أظهر وأظهر .

فصحيح المنطق لم ينتفعوا به في معرفـة الله ، وباطل المنطق أوقعهم في غاية الكذب والجهل بالله ، (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لهُ نوراً فَمَا لهُ مِنْ نُورٍ) [النور – ٤٠]، و(اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ) [البقرة – ٢٥٧] . وهو القائل: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ للنَّاسِ ، ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحديد – ٢٥] . وهو القائل : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ،

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة – ٢١٣] .

وقد كان النبي ﷺ يقول إذا قام من الليل ماروا ه مسلم في « صحيحه[1] » : « اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاءُ إلى صراط مستقيم » .

فصل

وتمام الكلام في هذا الباب أنك تعلم أنا لا نعلم ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه ، فنحن نعرف أشياء بحسنا الظاهر أو الباطن ، وتلك معرفة معينة مخصوصة ، ثم إنا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد ، فتبقى في أذهاننا قضايا عامة كلية ، ثم إذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا إلا بمعرفة المشهود لنا . فلولا أنّا نشهد من أنفسنا جوعاً وعطشاً ، وشبعاً وريّاً ، وحباً وبغضاً ، ولذةً وألماً ، ورضىً وسخطاً ، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا ذلك ، وأُخبرنا به عن غيرنا . وكذلك لو لم نعلم ما في الشاهد حياة وقدرة ، وعلماً وكلاماً ، لم نفهم ما نخاطب به إذا وصف الغائب عنا بذلك ، وكذلك لو لم نشهد موجوداً ، لم نعرف وجود الغائب عنا ، فلا بد فيما شهدناه وما غاب عنا من قدر مشترك هو مسمى اللفظ المتواطىء .

فبهذه الموافقة والمشاركة والمشابهة والمواطأة نفهم الغائب ونثبته ، وهذا خاصة العقل ، ولولا ذلك لم نعلم إلا ما نحسه ، ولم نعلم أموراً عامة ولا أموراً غائبة عن احساساتنا الظاهرة والباطنة ، ولهذا من لم يحس الشيء ولا نظيره لم يعرف حقيقته .

---

(١) ١/٥٣١ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخرة من النعيم والعذاب ، وأخبرنا بما يُؤكل ويُشرب ويُنكح ويُفرش وغير ذلك . فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا ؛ لم نفهم ما وعدنا به ، ونحن نعلم مع ذلك أن تلك الحقائق ليست مثل هذه حتى قال ابن عباس رضي الله عنه : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، وهذا تفسير قوله : (وأُتوا بِهِ مُتَشَابِهاً) [البقرة – ٢٥] على أحد الأقوال .

فبين هذه الموجودات في الدنيا وتلك الموجودات في الآخرة مشابهة وموافقة واشتراك من بعض الوجوه ، وبه فهمنا المراد وأحببناه ورغبنا فيه ، أو أبغضناه ونفرنا عنه ، وبينهما مباينة ومفاضلة لا يقدر قدرها في الدنيا . وهذا من التأويل الذي لا نعلمه نحن ، بل يعلمه الله تعالى ، ولهذا كان قول من قال : إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، حقاً ، وقول من قال : إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله ؛ حقاً ، وكلا القولين مأثور عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

فالذين قالوا : إنهم يعلمون تأويله ، مرادهم بذلك أنهم يعلمون تفسيره ومعناه ، وإلا فهل يحل لمسلم أن يقول إن النبي ﷺ ما كان يعرف معنى ما يقوله ويبلغه من الآيات والأحاديث ؟!! بل كان يتكلم بألفاظ لها معان لا يعرف معانيها ؟!!

ومن قال : إنهم لا يعرفون تأويله ؛ أرادوا به الكيفية الثابتة التي اختص الله بعلمها ، ولهذا كان السلف ، كربيعة ، ومالك بن أنس وغيرهما يقولون : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، وهذا قول سائر السلف كابن الماجشون والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم وفي غير ذلك من الصفات . فمعنى الاستواء معلوم وهو التأويل والتفسير الذي يعلمه الراسخون ، والكيفية هي التأويل المجهول لبني آدم وغيرهم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

وكذلك ما وَعَدَ به في الجنة يعلم العباد تفسير ما أخبر الله به ، وأما كيفيته ، فقد قال تعالى : (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة – ٩] ، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح [1] « يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

---

(١) هو في البخاري ٣٩٦/٨ ، ومسلم ٢١٧٥/٤

فما أخبرنا الله به من صفات المخلوقين نعلم تفسيره ومعناه ، ونفهم الكلام الذي خوطبنا به ، ونعلم معنى العسل واللحم واللبن ، والحرير والذهب والفضة ، ونفرق بين مسميات هذه الأسماء ، وأما حقائقها على ما هي عليه ، فلا يمكن أن نعلمها نحن ، ولا نعلم متى تكون الساعة . وتفصيل ما أعد الله عز وجل لعباده لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، بل هذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى .

فإذا كان هذا في هذين المخلوقين ؛ فالأمر بين الخالق والمخلوق أعظم ؛ فإن مباينة الله لخلقه وعظمته وكبرياءه وفضله أعظم وأكبر مما بين مخلوق ومخلوق . فإذا كانت صفات ذلك المخلوق مع مشابهتها لصفات هذا المخلوق بينها من التفاضل والتباين ما لا نعلمه في الدنيا – ولا يمكن أن نعلمه ، بل هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى – فصفات الخالق عز وجل أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، وأن يكون هذا من التأويل الذي لا يعلمه كل أحد ، بل منه ما يعلمه الراسخون ، ومنه ما يعلمه الأنبياء والملائكة ، ومنه ما لا يعلمه إلا الله ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : إن التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه ، فهو كاذب .

ولفظ التأويل في كلام السلف لا يراد به إلا التفسير أو الحقيقة الموجودة في الخارج التي يؤول إليها : كما في قوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأوِيلَهُ) [الأعراف – ٥٢] وأما استعمال التأويل بمعنى أنه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، أو متأخر ، أو لمطلق الدليل ، فهذا اصطلاح بعض المتأخرين ، ولم يكن في لفظ أحد من السلف ما يراد منه بالتأويل هذا المعنى ، ثم لما شاع هذا بين المتأخرين صاروا يظنون أن هذا هو التأويل في قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إِلا اللهُ) [آل عمران – ٧] ، ثم طائفة تقول : لا يعلمه إلا الله ، وقالت طائفة : بل يعلمه الراسخون ، وكلتا الطائفتين غالطة ، فإن هذا لا حقيقة له ، بل هو باطل ، والله يعلم انتفاءه وأنه لم يرده ، وهذا مثل تأويلات القرامطة الباطنية والجهمية وغيرهم من أهل الإلحاد والبدع ، وتلك التأويلات باطلة والله لم يرد بكلامه

وما لم يرده لا نقول: إنه يُعلم أنه مراده ، فإن هذا كذب على الله عزوجل ، والراسخون في العلم لا يقولون على الله تبارك وتعالى الكذب ، وإن كنا مع ذلك قد علمنا بطريق خبر الله عز وجل عن نفسه — بل وبطريق الاعتبار أن لله المثل الأعلى — أن الله يوصف بصفات الكمال : موصوف بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، وهذه صفات كمال ، والخالق أحق بها من المخلوق ؛ فيمتنع أن يتصف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق .

ولولا أن هذه الأسماء والصفات تدل على معنى مشترك كلي يقتضي من المواطأة والموافقة والمشابهة ما به يفهم وتثبت هذه المعاني لله ؛ لم نكن قد عرفنا عن الله شيئاً ، ولا صار في قلوبنا إيمان به ، ولا علم ، ولا معرفة ، ولا محبة ، ولا إرادة لعبادته ودعائه وسؤاله ومحبته وتعظيمه ، فإن جميع هذه الأمور لا تكون إلا مع العلم ، ولا يمكن العلم إلا بإثبات تلك المعاني التي فيها من الموافقة والمواطأة ما به حصل لنا ما حصل من العلم لما غاب عن شهودنا .

ومن فهم هذه الحقائق الشريفة والقواعد الجليلة النافعة ؛ حصل له من العلم والمعرفة والتحقيق والتوحيد والايمان ، وانجاب عنه من الشبه والضلال والحيرة ما يصير به في هذا الباب من أفضل الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ومن سادة أهل العلم والايمان ، وتبين له أن القول في بعض صفات الله كالقول في سائرها ، وأن القول في صفاته كالقول في ذاته ، وأن من أثبت صفة دون صفة مما جاء به الرسول ﷺ مع مشاركة أحدهما الأخرى فيما به نفاها ؛ كان متناقضاً . فمن نفى النزول والاستواء ، أو الرضى والغضب ، أو العلم والقدرة ، أو اسم العليم أو القدير ، أو اسم الموجود ، فراراً بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم ؛ فإنه يلزمه فيما أثبته نظير ما ألزمه لغيره فيما نفاه هو وأثبت المثبت .

فكل ما يستدل به على نفي النزول والاستواء والرضى والغضب ، يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفي الارادة والسمع والبصر والقدرة والعلم ، وكل ما يستدل به على نفي القدرة والعلم والسمع والبصر ، يمكن منازعه أن يستدل بنظيره على نفي العليم والقدير والسميع والبصير ، وكل ما يستدل به على نفي هذه الأسماء ؛ يمكن منازعه أن يستدل به على نفي الموجود والواجب .

ومن المعلوم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم واجب بنفسه ، يمتنع عليه العدم ؛ فإن الموجود : إما ممكن ومحدث، وإما واجب وقديم، والممكن المحدث لا يوجد إلا بواجب قديم فإذا كان ما يستدل به على نفي الصفات الثابتة يستلزم نفي الموجود الواجب القديم ، ونفي ذلك يستلزم نفي الموجود مطلقاً ؛ علم أن من عطل شيئاً من الصفات الثابتة بمثل هذا الدليل كان قوله مستلزماً تعطيل الموجود المشهود .

ومثال ذلك : أنه إذا قال : النزول والاستواء ونحو ذلك من صفات الأجسام ، فإنه لا يعقل النزول والاستواء إلا لجسم مركب ، والله سبحانه منزه عن هذه اللوازم ، فيلزم تنزيهه عن الملزوم ، أو قال : هذه حادثة ، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب ، وكذلك إذا قال : الرضى والغضب والفرح والمحبة ونحو ذلك هو من صفات الأجسام ؛ فإنه يقال له : وكذلك الارادة والسمع والبصر والعلم والقدرة من صفات الأجسام ، فإنا كما لا نعقل ما ينزل ، وما يستوي ويغضب ويرضى إلا جسما ؛ لم نعقل ما يسمع ويبصر ويريد ويعلم ويقدر إلا جسما .

فإذا قيل : سمعه ليس كسمعنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وإرادته ليست كإرادتنا، وكذلك علمه وقدرته ؛ قيل له : وكذلك رضاه ليس كرضانا وغضبه ليس كغضبنا ، وفرحه ليس كفرحنا ، ونزوله واستواؤه ليس كنزولنا واستوائنا .

فإذا قال : لا يعقل في الشاهد غضب إلا غليان دم القلب لطلب الانتقام ، ولا يعقل نزول إلا الانتقال ، والانتقال يقتضي تفريغ حيز وشغل آخر ، فلو كان ينزل ؛ لم يبق فوق العرش رب .

قيل : ولا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه وينفعه ،ويفتقر فيه إلى ما سواه ودفع ما يضره ، والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه المقدسة في حديثه الالهي : « ياعبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني » ؛ فهو منزه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلا هي .

وكذلك السمع لا يعقل في الشاهد إلا بدخول صوت في الصماخ ، وذلك لا يكون إلا في أجوف ، والله سبحانه أحد صمد منزه عن مثل ذلك ، بل وكذلك البصر والكلام لا يعقل في الشاهد إلا في محل أجوف ؛ والله سبحانه أحد صمد منزه عن ذلك .

قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وخلق من السلف : الصمد الذي لاجوف له ، وقال آخرون : هو السيد الذي كمل في سؤدُدِهِ ، وكلا القولين حق ، فإن لفظ الصمد في اللغة يتناول هذا وهذا ، والصمد في اللغة:السيد ، والصمد أيضاً : المُصْمَد، والمُصْمَدُ : المُصْمَتُ ، وكلاهما معروف في اللغة .

ولهذا قال يحيى بن أبي كثير : الملائكة صمد ، والآدميون جوف . وهذا أيضاً دليل آخر ، فإنه إذا كانت الملائكة – وهم مخلوقون من النور كما ثبت في صحيح مسلم[1] عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » – فاذا كانوا مخلوقين من نور وهم لا يأكلون ولا يشربون ، بل هم صمد ليسو جوفاً كالانسان ، وهم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ويصعدون وينزلون كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة ، وهم مع ذلك لاتماثل صفاتهم وأفعالهم صفات الانسان وفعله؛ فالخالق تعالى أعظم مباينة لمخلوقاته من مباينة الملائكة للآدميين ، فان كليهما مخلوق ، والمخلوق أقرب الى مشابهة المخلوق من المخلوق الى الخالق سبحانه وتعالى .

وكذلك روح ابن آدم تسمع وتبصر وتتكلم وتنزل وتصعد كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة ، والمعقولات الصريحة، ومع ذلك فليست صفاتها وأفعالها كصفات البدن وأفعاله. فإذا لم يجز أن يقال : إن صفات الروح وأفعالها مثل صفات الجسم الذي هو الجسد وهي مقرونة به وهما جميعاً الإنسان ، فإذا لم يكن روح الإنسان مماثلاً للجسم الذي هو بدنه ؛ فكيف يجوز أن يجعل الرب تبارك وتعالى وصفاته وأفعاله مثل الجسم وصفاته وأفعاله ؟!!

فإن أراد النافي التزام أصله ، وقال : أنا أقول ليس له كلام يقوم به ، بل كلامه مخلوق ؛ قيل له : فيلزمك في السمع والبصر ، فإن البصريين من المعتزلة يثبتون الادراك . فإن قال : أنا أقول بقول البغداديين منهم ، فلا أثبت له سمعاً ولا بصراً ولا كلاماً يقوم به ، بل أقول كلامه مخلوق من مخلوقاته ، لأن إثبات ذلك تجسيم وتشبيه ، بل ولا أثبت له إرادة كما لايثبتها البغداديون ، بل أجعلها سلباً أو اضافة فأقول : معنى كونه مريداً أنه غير مغلوب ولا مكره ، أو بمعنى كونه خالقاً وآمراً – ، قيل له : فيلزمك ذلك في كونه حياً

---

(١) ٤/٢٢٩٤

عالماً قادراً ، فإن المعتزلة مطبقة على إثبات أنه حي عالم قادر ، وقيل له : أنت لا تعرف حياً عالماً قادراً إلا جسماً ، فإذا جعلته حياً عالماً قادراً ؛ لزمك التجسيم والتشبيه ، فإن زاد في التعطيل وقال : أنا لا أقول بقول المعتزلة ، بل بقول الجهمية المحضة ، والباطنية من الفلاسفة ، والقرامطة — فأنفي الأسماء مع الصفات ، ولا أسميه حياً ولا عالماً ولا قادراً ولا متكلماً إلا مجازاً بمعنى السلب والاضافة ، أي هو ليس بجاهل ولاعاجز ، وجعل غيره عالماً قادراً — قيل له : فيلزمك ذلك في كونه موجوداً واجباً بنفسه قديماً فاعلاً ، فإن جهما قد قيل : إنه كان يثبت كونه فاعلاً قادراً ، لأن الانسان عنده ليس بقادر ولا فاعل ، فلا تشبيه عنده في ذلك .

وإذا وصل إلى هذا المقام ؛ فلا بد له أن يقول بقول طائفة منهم ، فيقول : أنا لا أصفه بصفة وجود ولاعـــدم ، فلا أقول : موجود ولا معدوم ، أولا موجـود ولا غير موجود ، بل أمسك عن النقيضين ، فلا أتكلم لا بنفي ولا إثبات .

وإما أن يقول : أنا لا أصفه قط بأمر ثبوتي بل بالسلبي ، فلا أقول : موجـود ، بل أقول : ليس بمعدوم .

وإما أن يقال : بل هو معدوم ، فالقسمة حاصرة ، فإنه إمـا أن يصفه بأمر ثبوتي فيلزمه ما ألزمه لغيره من التشبيه والتجسيم ، وإما أن يقول : لا أصفه بالثبوت ، بل بسلب العدم ، فلا أقول : موجود بل ليس بمعدوم .

وإما أن يلتزم التعطيل المحض ، فيقول : مانم وجود واجد ، فإن قال بالأول،وقال : لا أثبت واحداً من النقيضين لا الوجود ولا العدم .

قيل : هب أنك تتكلم بذلك بلسانك ، ولا تعتقد بقلبك واحـداً من الأمرين ، بل تلتزم الإعراض عن معرفة الله وعبادته وذكره ، فلا تذكره قط ، ولا تعبده ، ولا تدعوه ولا ترجوه ، ولا تخافه ، فيكون جحدك له أعظم من جحد ابليس الذي اعترف بـــه ، فامتناعك من اثبات أحد النقيضين لا يستلزم رفـع النقيضين في نفس الأمر ؛ فإن النقيضين لا يمكن رفعهما ، بل في نفس الأمر لابد أن يكون الشيء أيُّ شيء كان،إماموجوداً وإما معدوماً ، إمـا أن يكون ، وإما أن لا يكون ، وليس بين النفي والاثبـات واسطة

أصلًا ، ونحن نذكر مافي نفس الأمر ، سواء جحدته أنت أو اعترفت به ، وسواء ذكرته أو أعرضت عنه ، فإعراض الإنسان عن رؤية الشمس والقمر والكواكب والسماء لا يدفع وجودها ، ولا يدفع ثبوت أحد النقيضين ، بل بالضرورة الشمس إما موجودة وإما معدومة ، فإعراض قلبك ولسانك عن ذكر الله كيف يدفع وجوده ، ويوجب رفع النقيضين ؟! فلا بد أن يكون إما موجوداً وإما معدوماً في نفس الأمر .

وكذلك من قال : أنا لا أقول موجود ، بل أقول : ليس بمعدوم ؛ فإنه يقال : سلب أحد النقيضين إثبات للآخر ، وأنت غيرت العبارة ؛ إذ قول القائل : ليس بمعدوم ، يستلزم أن يكون موجوداً ، فأما إذا لم يكن معدوماً ؛ فإما أن يكون موجوداً ، وإما أن يكون لاموجوداً ولا معدوماً .

وهذا القسم الثالث يوجب رفع النقيضين وهو مما يعلم فساده بالضرورة ، فوجب أنه إذا لم يكن معدوماً أن يكون موجوداً .

وإن قال : بل ألتزم أنه معدوم ؛ قيل له : فمن المعلوم بالمشاهدة والعقل وجود موجودات ، ومن المعلوم أيضاً أن منها ما هو حادث بعد أن لم يكن – كما نعلم نحن أنّا حادثون بعد عدمنا ، وأنّ السحاب حادث ، والمطر والنبات حادث ، والدواب حادثة ، وأمثال ذلك من الآيات التي نبه الله تعالى عليها بقوله: (إنّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ والفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي في البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة – ١٦٤) .

وهذه الحوادث المشهودة يمتنع أن تكون واجبة الوجود بذاتها ، فإن ما وجب وجوده بنفسه ، امتنع عدمه ، ووجب قدمه ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ؛ فدل وجودها بعد عدمها على أنها يمكن وجودها ويمكن عدمها ، فإن كليهما قد تحقق فيها ؛ فعلم بالضرورة اشتمال الوجود على موجود محدث ممكن ؛ فنقول حينئذ : الموجود والمحدث

الممكن لابد له من موجد قديم واجب بنفسه ، فإنه يمتنع وجود المحدث بنفسه كما يمتنع أن يخلق الإنسان نفسه ، وهذا من أظهر المعارف الضرورية، فإن الإنسان بعد قوته ووجوده لا يقدر أن يزيد في ذاته عضواً ، ولا قدراً ، فلا يقصر الطويل ولا يطول القصير ، ولا يجعل رأسه أكبر مما هو ولا أصغر ، وكذلك أبواه لا يقدران على شيء من ذلك .

ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لابد له من محدث ، وهذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة حتى للصبيان ؛ فإن الصبي لو ضربه ضارب وهو غافل لا يبصره لقال : من ضربني ؟ فلو قيل له ؛ لم يضربك أحد ؛ لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير حادث ، بل يعلم أنه لابد للحادث من محدث ، فإذا قيل له : فلان ضربك ، بكى حتى يُضرَبَ ضارِبُهُ ، فكان في فطرته الإقرار بالصانع وبالشرع الذي مبناه على العدل ، ولهذا قال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟) (الطور-٣٥) . وفي « الصحيحين » عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال: وجدت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ«الطور» ، قال : فلما سمعت هذه الآية (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) ؟ أحسست بفؤادي قد انصدع .

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الانكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها ، يقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟!) أي : من غير خالق خلقهم ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل ؛ فتعين أن لهم خالقاً خلقهم سبحانه وتعالى .

وهنا طرق كثيرة مثل أن يقال : الوجود إما قديم وإما محدث ، والمحدث لابد له من قديم ، والموجود إما واجب وإما ممكن، والممكن لابد له من واجب ، ونحو ذلك . وعلى كل تقدير ، فقد لزم أن الوجود فيه موجود قديم واجب بنفسه ، وموجود ممكن محدث كائن بعد أن لم يكن . وهذان قد اشتركا في مسمى الوجود ، وهو لا يعقل موجود في الشاهد إلا جسماً ، فلزمه ما ألزمه لغيره من التشبيه والتجسيم الذي ادعاه .

فعلم أن من نفى شيئاً من صفات الله بمثل هذه الطريقة ، فإن نفيه باطل ، ولو لم يرد الشرع باثبات ذلك ، ولا دل أيضاً عليه العقل ، فكيف ينفي بمثل ذلك مادل الشرع والعقل

على ثبوته ؟! فيتبين أن كل من نفى شيئاً من الصفات – لأن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم – لزمه ما ألزم به غيره ، وحينئذ فيكون الجواب مشاركاً .

وأيضاً ، فإذا كان هـذا لازماً على كل تقدير ؛ علم أن الاستدلال به على نفي الملزوم باطل ، فإن الملزوم موجود لا يمكن نفيه بحال ؛ ولهذا لا يوجد الاستدلال بمثل هـذا في كلام أحد من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما هو مما أحدثته الجهمية والمعتزلة ، وتلقاه عنهم كثير من الناس ينفي عن الرب ما يجب نفيه عن الرب مثل أن ينفي عنه النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها : كالجهل ، والعجز ، والحاجة وغير ذلك ، وهذا تنزيه صحيح ، ولكن يستدل عليه بأن ذلك يستلزم التجسيم والتشبيه فيعارض بما أثبته ؛ فيلزمه التناقض .

ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية على المسلمين حتى ردوا عن الإسلام خلقاً عظيماً صاروا يقولون لمن نفى شيئاً عن الرب – مثل من ينفي بعض الصفات ، أو جميعها أو الأسماء – لم نفيت هذا ؟ ألئلا يلزم التشبيه والتجسيم ؟ ! فيقول : بلى ! فيقول : وهـذا اللازم يلزمك فيما أثبته ؛ فيحتاج أن يوافقهم على النفي شيئاً بعد شيء حتى ينتهي أمره إلى أن لا يعرف الله بقلبه ، ولا يذكره بلسانه ، ولا يعبده ، ولا يدعوه وإن كان لا يجزم بعدمه ، بل يعطل نفسه عن الإيمان به ، وقد عرف تناقض هؤلاء .

وإن التزم تعطيله وجحده موافقة لفرعون ؛ كان تناقضه أعظم ، فإنه يقـال له : فهذا العالم الموجود إذا لم يكن صانعه قديماً أزلياً واجباً بنفسه – ومن المعلوم أن فيه حـوادث كثيرة كما تقدم – وحينئذ ففي الوجود قديم ومحدث وواجب وممكن ، وحينئذ فيلزمك أن يكون ثمّ موجودان :

أحدهما قديم واجب ، والآخر محدث ممكن .

فيلزمك ما فررت منه من التشبيه والتجسيم ، بل هذا يلزمك بصريح قولك ، فإن العالم المشهود جسم تقوم به الحركات ، فـإن الفلك جسم ، وكذلك الشمس والقمر والكواكب أجسام تقوم بها الحركات والصفات ؛ أفجحدت رب العالمين لئلا تجعل القديم الواجب جسماً تقوم به الصفات والحركات؟ ! ثم في آخر أمرك جعلت القديم الأزلي الواجب الوجود بنفسه أجساماً متعددة تشبه غيرها من وجوه كثيرة تقوم بها الصفات والحركات ،

مع ما فيها من الافتقار والحاجة ، فإن الشمس والقمر والكواكب محتاجة إلى محالها التي هي فيها ، ومواضعها التي تحملها وتدور بها ، والأفلاك كل منها محتاج إلى ما سواه ، إلى غير ذلك من دلائل نقصها وحاجتها ؟!!

والمقصود هنا أن هذا الذي فر من أن يجعل القديم الواجب موجوداً وموصوفاً بصفات الكمال ، لئلا يلزم ما ذكره من التشبيه والتجسيم ، وجعل نفي هذا اللازم دليلاً على نفي ما جعله ملزوماً له لزمه في آخر الأمر ما فر منه من جعله الموجود الواجب جسماً يشبه غيره ، مع أنه وصفه بصفات النقص الذي يجب تنزيه الرب عنها ومع أنه جحد الخالق جل جلاله ؛ فلزمه مع الكفر الذي هو أعظم من كفر عامة المشركين ، فإنهم كانوا يقرون بالصانع مع عبادتهم لما سواه ، ولزمه مع هذا أنه من أجهل بني آدم وأفسدهم عقلاً ونظراً وأشدهم تناقضاً .

وهكذا يفعل الله بالذين يلحدون في أسمائه وآياته مع دعوى النظر والمعقول والبرهان والقياس كفرعون وأتباعه ، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ؛ فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ . وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي

الأرض فمَنْ ينصُرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا ؟! قالَ فِرْعَوْنُ . ما أُريكُمْ إلاّ ما أرَى وَما أهْدِيكُمْ إلا سَبيلَ الرَّشَادِ . وَقالَ الذي آمَنَ : يا قَوْمِ إنّي أخافُ عَلَيْكُم مِثْلَ يَومِ الأحْزابِ . مِثْلَ دَأبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمودَ والّذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَما اللهُ يُريدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ . وَيا قَوْمِ إنّي أخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلّونَ مُدْبِرينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عاصِمٍ . وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمالَهُ مِنْ هَادٍ . وَلَقَدْ جاءَكُمْ يوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ في شَكٍّ مِمّا جاءَكُمْ بِهِ حتّى إذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يبعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسولاً ، كَذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسرِفٌ مُرْتابٌ . الّذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ الّذينَ آمَنُوا ، كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ . وقالَ فِرْعَونُ : يا هَامانُ ابنِ لي صَرْحاً لَعَلّي أبْلُغُ الأسْبابَ . أسْبابَ السَّمَواتِ فأطّلِعَ إلى إلهِ مُوسى وإنّي لأظُنُّهُ كاذِباً ، وكذلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وصُدَّ عَنِ السَّبيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَونَ إلا في تَبابٍ) [غافر - ٢٢ ، ٣٧] ، وقال تعالى: (إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا والّذينَ آمَنُوا في الحياةِ الدُّنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهادُ . يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظّالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ ولَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ . وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الهُدَى وَأوْرَثْنا بني إسْرائيلَ الكِتابَ هُدًى وذِكْرَى لأولي الألْبابِ . فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعَشِيِّ والإبْكارِ . إنَّ الّذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ إنْ في صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغيهِ فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ) [غافر - ٥١، ٥٦] .

وسبب ذلك أن لفظ الجسم والتشبيه فيه إجمال واشتباه كما سنبينه إن شاء الله تعالى ، فإن هؤلاء النفاة لا يريدون بالجسم الذي نفوه ما هو المراد بالجسم في اللغة ، فإن الموصوف بالصفات لا يجب أن يكون هو الجسم الذي في اللغة ، كما نقله أهل اللغة باتفاق العقلاء ، وسنأتي بذلك ، وإنما يريدون بالجسم ما اعتقدوه أنه مركب من أجزاء ، واعتقدوا

ان كل ما تقوم به الصفات فهو مركب من أجزاء ، وهذا الاعتقاد باطل . بل الرب موصوف بالصفات ، وليس جسماً مركباً لا من الجواهر المفردة ولا من المادة والصورة ، كما يدعون كما سنبينه إن شاء الله تعالى ؛ فلا يلزم من ثبوت الصفات لزوم ما ادعوه من المحال ، بل غلطوا في هذا التلازم . وأما ما هو لازم لاريب فيه ؛ فذاك يجب إثباته ولا يجوز نفيه عن الله تعالى . فكان غلطهم باستعمال لفظ مجمل ، وإحدى المقدمتين باطلة ، إما الأولى وإما الثانية كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وهذه قواعد مختصرة جامعة ، وهي مبسوطة في مواضع أخرى.

فصل

إذا تبين هذا فقول السائل : كيف ينزل ؟ بمنزلة قوله : كيف استوى ؟ وقوله : كيف يسمع ؟ وكيف يبصر ؟ وكيف يعلم ويقدر ؟ وكيف يخلق ويرزق ؟ وقد تقدم الجواب عن مثل هذا السؤال من أئمة الاسلام مثل : مالك بن أنس ، وشيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن ؛ فإنه قد روي من غير وجه أن سائلاً سأل مالكاً عن قوله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك حتى علاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ، وما أراك إلا رجل سوء ، ثم أمر به فأخرج . ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك ، وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة[1] رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه ، وهكذا سائر الائمة قولهم يوافق قول مالك : في أنا لانعلم كيفية استوائه كما لانعلم كيفية ذاته ، ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب ، فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفيته ، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفيته ، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ولا نعلم كيفية ذلك ، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك .

وأما سؤال السائل : هل يخلو منه العرش أم لا يخلو منه ؟ — وإمساك المجيب عن هذا لعدم علمه بما يجيب به فإنه إمساك عن الجواب بما لم يعلم حقيقته — وسؤال السائل له عن هذا إن كان

---

(١) أسماء بنت يزيد الأنصارية ، أم سلمة ، من مسلمات السنة الأولى للهجرة ، ومن مجاهدات وقعة اليرموك ، ومن أخطب نساء العرب . توفيت سنة ٢٠هـ تقريباً .

نفياً لما أثبته الرسول ﷺ ، فخطأ منه ، وإن كان استرشاداً ، فحسن ، وإن كان تجهيلاً للمسؤول ، فهذا فيه تفصيل ، فإن المثبت الذي لم يثبت إلا ما أثبته الرسول ﷺ ونفى علمه بالكيفية ، فقوله سديد لايرد عليه سؤاله ، والمعترض الذي يعترض عليه بهذا السؤال ، اعتراضه باطل ، فإن ذلك لا يقدح في جواب المجيب .

وقول المسؤول : هذا قول مبتدع ورأي مخترع – حيدة منه عن الجواب – يدل على جهله بالجواب السديد ولكن لايدل هذا على أن نفي المعترض لما أخبر به الرسول حق، ولا على أن تأويله بنزول أمره ورحمته تأويل صحيح .

ومما يبين ذلك أن هذا المعترض إما أن يقر بان الله فوق العرش ، وإما لا يكون مقراً بذلك ، فإن لم يكن مقراً بذلك ، كان قوله هل يخلو العرش منه أم لا يخلوا كلاماً باطلاً ، لأن هذا التقسيم فرع ثبوت كونه على العرش . وإن قال المعترض : أنا ذكرت هذا التقسيم لأنفي نزوله وأنفي العلو – لأنه إن قال : يخلو منه العرش ، لزم أن يخلو من استوائه على العرش وعلوه عليه ، وأن لا يكون وقت النزول هو العلي الأعلى ، بل يكون في جوف العالم ، والعالم محيط به ، وإن قال : إن العرش لا يخلو منه ، قيل له : فإذا لم يخل العرش منه لم يكن قد نزل ، فإن نزوله بدون خلو العرش منه لا يعقل – فيقال لهذا المعترض : هذا الاعتراض باطل لا ينفعك ، لأن الخالق سبحانه وتعالى موجود بالضرورة والشرع والعقل والاتفاق . فهو إما أن يكون مبايناً للعالم فوقه ، وإما أن يكون مداخلاً للعالم محايثاً ، وإما أن يكون لا هذا ولا هذا .

فإن قلت إنه محايث للعالم ، بطل قولك ، فإنك إذا جوزت نزوله وهو بذاته في كل مكان ؛ لم يمتنع عندك خلو ما فوق العرش منه ، بل هو دائماً خال منه ، لأنه هناك ليس عندك شي ، ثم يقال لك : وهل يعقل مع هذا أن يكون في كل مكان ، وأنه مع هذا ينزل إلى السماء الدنيا ؟ فإن قلت : نعم ؛ قيل لك : فإذا نزل هل يخلو منه بعض الأمكنة أو لا يخلو ؟ فان قلت : يخلو منه بعض الأمكنة ، كان هذا نظير خلو العرش منه . فإن قلت :

لا يخلو منه مكان ، كان هذا نظير كون العرش لا يخلو منه . فإن جوزت هذا ، كان لخصمك أن يجوز هذا ، فقد لزمك على قولك مالزم منازعك ، بل قولك أبعد عن المعقول لأن نزول من هو فوق العالم أقرب إلى المعقول من نزول من هو حال في جميع العالم ، فإن نزول هذا لا يعقل بحال ، وما فررت منه من الحلول وقعت في نظيره ، بل منازعك الذي يجوز أن يكون فوق العالم وهو أعظم عنده من العالم وينزل إلى العالم أشدّ تعظيما لله منك . ويقال له : هل يعقل موجودان قائمان بأنفسهما أحدهما محايث للآخر ؟ فإن قال : لا بطل قوله ، وإن قال : نعم ؛ قيل له : فليعقل أنه فوق العرش وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش ، فان هذا أقرب إلى العقل مما إذا قلت : إنه حال في العالم .

وإن قلت : إنه لامباين للعالم ولا مداخل له ، قيل لك : فهل يعقل موجودان قائمان بأنفسهما ليس أحدهما مباينا للآخر ولا محايثاً له ؟ فإن جمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذا معلوم بالضرورة ، فإذا قال: نعم يعقل ذلك ، فيقال له: فإن جاز وجود موجود قائم بنفسه ليس هو مباينا للعالم ولا محايثاً له ، فوجود مباين للعالم ينزل إلى العالم ولا يخلو منه ما فوق العالم أقرب إلى المعقول،فإنك إن كنت لاتثبت من الوجود إلا ماتعقل له حقيقة في الخارج، فأنت لاتعقل في الخارج موجودين قائمين بأنفسهما ليس أحدهما داخلاً في الآخر ولا محايثاً له ، وإن كنت تثبت مالا تعقل حقيقته في الخارج،فوجود موجودين أحدهما مباين للآخر أقرب إلى المعقول ونزول هذا من غير خلو مـــا فوق العرش منه أقرب إلى المعقول من كونه لافوق العالم ولا داخل العالم . فإن حكمت بالقياس ، فالقياس عليك لا لك ، وإن لم تحكم به ، لم يصح استدلالك على منازعك به .

وأما قول السائل : ليس هذا جوابي بل هو حيدة عن الجواب ؛

فيقال له: الجواب على وجهين: جواب معترض ناف لنزوله وعلوه،وجواب مثبت لنزوله وعلوه ، وأنت لم تسأل سؤال مستفت ، بل سألت سؤال معترض ناف ، وقد تبين لك أن هذا الاعتراض ساقط لاينفعك ، فإنه سواء قيل : إنه يخلو منه العرش ، أو قيل : لا يخلو

منه العرش ، ليس في ذلك ما يصحح قولك : انه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا قولك : إنه بذاته في كل مكان ، وإذا بطل هذان القولان ، تعين الثالث وهو أنه سبحانه وتعالى فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه وإذا كان كذلك ؛ بطل قول المعترض .

هذا إن كان غير مقر بأنه فوق العرش . وقد سئل بعض أئمة نفاة العلو عن النزول فقال : ينزل أمره ، فقال له السائل : فمن ينزل ؟ ! ما عندك فوق العالم شيء فمن ينزل الأمر ؟ من العدم المحض !! فبهت .

وإن كان المعترض من المثبتة للعلو ، ويقول : إن الله فوق العرش ، لكن لا يقر بنزوله ، بل يقول بنزول ملك ، أو يقول بنزول أمره الذي هو مأمور به ، وهو مخلوق من مخلوقاته ، فيجعل النزول مفعولاً محدثاً يحدثه الله في السماء ، كما يقال مثل ذلك في استوائه على العرش ، فيقال له : هذا التقسيم يلزمك بأنك إن قلت : إذا نزل يخلو منه العرش ، لزم المحذور الأول ، وإن قلت لا يخلو منه العرش ؛ أثبت نزولاً مع عدم خلو العرش منه ، وهذا لا يعقل على أصلك .

وإن قال : إنما أثبت ذلك في بعض مخلوقاته ؛ قيل له : أي شيء أثبته مع عدم فعل اختياري يقوم بنفسه كان غير معقول من هذا الخطاب لا يمكن أن يراد به أصلاً ، مع تحريف الكلم عن مواضعه ، فجمعت بين شيئين : بين أن ما أثبته لا يمكن أن يعقل من خطاب الرسول ﷺ ، وبين أنك حرّفت كلام الرسول ﷺ . فإن قلت : الذي ينزل ملك . قيل : هذا باطل من وجوه .

منها أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض ، كما قال تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) . وقال تعالى : (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون [1] » . وكذلك ثبت في « الصحيح » عن

(١) هو في البخاري باب فضل صلاة العصر بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أبي هريره، عن النبي ﷺ أنه قال: « إن لله ملائكة سياحين فضلاً، يتتبعون مجالس الذكر، فإذا مرو على قوم يذكرون الله، ينادون: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم -: ما يقول عبادي؟ قال: فيقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك» وفي رواية لمسلم: «إن لله ملائكة سيارة فضلاً يتتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر؛ قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين سماء الدنيا، فإذا تفرقوا، عرجوا أو صعدوا إلى السماء. قال: فيسألهم الله عز وجل - وهو أعلم بهم - من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك في الأرض يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك». الحديث بطوله [1].

الوجه الثاني أنه قال فيه: « من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له؟ ». وهذه العبارة لا يجوز أن يقولها ملك عن الله، بل الذي يقول الملك ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: « إذا أحب الله العبد نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض » [2]، وذكر في البغض مثل ذلك. فالملك إذا

- « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون ».

وفي مسلم أيضاً في باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما.

(١) هو في « صحيح مسلم » ٤/٢٠٧٠ كتاب الذكر باب فضل مجالس الذكر.

(٢) هو في البخاري ٦/٢٢٠ ومسلم ٤/٢٠٣٠ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء فيقول: ان الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: اني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض ».

نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول : إن الله أمر بكذا ، أو قال كذا . وهكذا إذا أمر السلطان منادياً ينادي فإنه يقول : يامعشر الناس ! أمر السلطان بكذا ، ونهى عن كذا ، ورسم بكذا ، لا يقول : أمرت بكذا ، ونهيت عن كذا ، بل لو قال ذلك بودر إلى عقوبته .

وهذا تأويل من التأويلات القديمة للجهمية ، فإنهم تأولوا تكليم الله لموسى عليه السلام بأنه أمر ملكاً فكلمه ، فقال أهل السنة : ولو كلمه ملك لم يقل (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إلا أنا فاعْبُدْنِي) [طه : ١٣] ، بل كان يقول كما قال المسيح عليه السلام : (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) [المائدة : ١٢٠] . فالملائكة رسل الله إلى الأنبياء تقول كما كان جبريل عليه السلام يقول لمحمد ﷺ : (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) [مريم : ٦٤] ، ويقول : إن الله يأمرك بكذا ويقول كذا ، لا يمكن أن يقول ملك من الملائكة : (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنَا) [طه : ١٣] ، ولا يقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » ، ولا يقول : « لا يسأل عن عبادي غيري » ، كما رواه النسائي وابن ماجة وغيرهما ، وسندهما صحيح .

وهذا أيضاً مما يبطل حجة بعض الناس ، فإنه احتج بما رواه النسائي في بعض طرق الحديث أنه يأمر منادياً فينادي...، فإن هذا إن كان ثابتاً عن النبي ﷺ ، فإن الرب يقول ذلك ، ويأمر منادياً بذلك ، لا أن المنادي يقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ » ومن روى عن النبي ﷺ أن المنادي يقول ذلك ، فقد علمنا أنه يكذب على رسول الله ﷺ . فإنه — مع أنه خلاف اللفظ المستفيض المتواتر الذي نقلته الأمة خلفاً عن سلف — فاسد في المعقول ، يعلم أنه من كذب بعض المبتدعين ، كما روى بعضهم : يُنزل بالضم ، وكما قرأ بعضهم : (وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيماً) [النساء : ١٦٣] ، ونحو ذلك من تحريفهم اللفظ والمعنى .

وإن تأول ذلك بنزول رحمتـه أو غير ذلك ، قيل : الرحمة التي تثبتها إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها ، وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها .

فإن كانت عيناً وقد نزلت إلى السماء الدنيا ، لم يمكن أن تقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ كما لا يمكن الملك أن يقول ذلك .

وإن كانت صفة من الصفات ، فهي لا تقوم بنفسها ، بل لابد لها من محل ، ثم لا يمكن الصفة أن تقول هذا الكلام ولا محلها . ثم إذا نزلت الرحمة إلى السماء الدنيا ولم تنزل الينا ، فأي منفعة لنا في ذلك ؟

وإن قال : بل الرحمة ما ينزله على قلوب قوام الليل في تلك الساعة من حلاوة المناجاة والعبادة وطيب الدعاء والمعرفة ، وما يحصل في القلوب من مزيد المعرفة بالله والايمان بـه وذكره وتجليه لقلوب أوليائه ، فإن هذا أمر معروف يعرفه قوام الليل ، قيل له : حصول هذا في القلوب حق ، لكن هذا ينزل إلى الأرض إلى قلوب عباده لا ينزل إلى السماء الدنيا ، ولا يصعد بعد نزوله ، وهذا الذي يوجد في القلوب يبقى بعد طلوع الفجر ، لكن هذا النور والبركة والرحمة التي في القلوب هي من آثار ما وصف به نفسه من نزوله بذاته سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بالنزول عشية عرفة في عدة أحاديث صحيحة ، وبعضها في « صحيح مسلم » عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من يوم أكثر من أن يَعتِقَ الله فيـه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ »[1] وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم عرفة إن الله ينزل إلى السماء الدنيا يباهي بأهل عرفة الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق [2] ، وعن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : قال رأسول الله ﷺ

---

(١) هو في صحيح مسلم ٢/٩٨٣

(٢) قال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » : رواه البيهقي بهذا اللفظ عن جابر ، وأخرجه أبو يعلى بنحو من حديث انس وفيه صالح المري وهو ضعيف .

« إن الله ينزل إلى السماء الدنيا يباهي بأهل عرفة الملائكة ويقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً» فوصف أنه يدنو عشية عرفة إلى السماء الدنيا، ويباهي الملائكة بالحجيج فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ما أراد هؤلاء فإنه من المعلوم أن الحجيج عشية عرفة ينزل على قلوبهم من الايمان والرحمة والنور والبركة مالا يمكن التعبير عنه ، لكن ليس هذا الذي في قلوبهم هو الذي يدنو إلى السماء الدنيا ، ويباهي الملائكة بالحجيج .

والجهمية ونحوهم من المعطلة انما يثبتون مخلوقاً بلا خالق ، وأثراً بلا مؤثر ، ومفعولاً بلا فاعل ، وهذا معروف من أصولهم ، وهذا من فروع أقوال الجهمية .

وأيضاً فيقال له : وصف نفسه بالنزول كوصفه في القرآن بأنه (خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيامٍ ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ) [يونس : ٣] وبأنه استوى إلى السماء وهي دخان ، وبأنه نادى موسى وناجاه في البقعة المباركة من الشجرة ، وبالمجيء والاتيان في قوله : (وَجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر : ٢٢] ، وقوله : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أنْ تَأتِيَهُم المَلائِكَةُ ، أوْ يَأتِيَ رَبُّكَ ، أوْ يَأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ) [الأنعام : ١٥٨] .

والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في إتيان الرب يوم القيامة كثيرة ، وكذلك اتيانه لأهل الجنة يوم الجمعة ، وهذا مما احتج به السلف على من ينكر الحديث فبينوا له أن القرآن يصدق معنى هذا الحديث ، كما احتج به اسحاق بن راهويه[1] على بعض الجهمية بحضرة الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان .

قال أبو عبد الله الرباطي: حضرت يوماً مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم ، وحضر اسحق بن راهويه ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ فقال : نعم ، فقال له بعض

---

(١) هو اسحاق بن ابراهيم عالم خراسان في عصره وأحد كبار الحفاظ . وأخذ عنه الامام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي ولد في طريق مكة سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ .

قواد عبد الله : يا أبا يعقوب ! أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم ، قال : كيف ينزل ؟ قال أثبته فوق ، حتى أصف لك النزول ، فقال له الرجل : أثبته فوق ، فقال له اسحق : قال الله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ والملَكُ صَفّاً صفّا) [الفجر : ٢٢] ، فقال الأمير عبد الله بن طاهر : هذا يوم القيامة !! فقال اسحق : أعز الله الأمير ، ومن يجيء يوم القيامة ، من يمنعه اليوم ؟!!

ثم بعد هذا ، إذا نزل هل يخلو منه العرش أو لا يخلو ؟ هذه مسألة أخرى تكلم فيها أهل الاثبات ، فمنهم من قال : لا يخلو منه العرش ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدّد ، وعن إسحق بن راهويه ، وحماد بن زيد ، وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم .

ومنهم من أنكر ذلك ، وطعن في هذه الرساله ، وقال : راويها عن أحمد ابن حنبل مجهول لا يعرف .

والقول بذلك معروف عند الأئمة ، كحماد بن زيد ، واسحق بن راهويه ، وغيرهما قال الخلال في « كتاب السنة » : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي ، ثنا أحمد بن محمد المقدمي ، ثنا سليمان ابن حرب ، قال سأل بشر بن السري حماد بن زيد فقال : يا أبا اسماعيل ! الحديث الذي جاء : ينزل الله إلى سماء الدنيا » ، يتحول من مكان إلى مكان ؟ فسكت حماد بن زيد ، ثم قال : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء . ورواه ابن بطة في كتاب « الابانة » فقال: حدثني أبو القاسم حفص بن عمر الاردبيلي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا سليمان بن حرب ، قال سأل بشر السري بن حماد بن زيد فقال : يا أبا اسماعيل ، الحديث الذي جاء : «ينزل الله إلى سماء الدنيا » ، أيتحول من مكان إلى مكان ؟ فسكت حماد بن زيد ، ثم قال : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء . وقال ابن بطة : وحدثنا أبو بكر النجاد ، ثنا أحمد بن علي الابار ، ثنا علي بن خشرم ، قال : قال اسحق بن راهويه : دخلت على عبد الله بن طاهر ، فقال : ما هذه الأحاديث التي تروونها؟ قلت : أي شيء أصلح الله الأمير؟ قال : تروون أن

الله ينزل إلى السماء الدنيا !! قلت : نعم ، رواها الثقات الذين يروون الأحكام . قال : أينزل ويدع عرشه ؟ قال : فقلت : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو العرش منه . قال : نعم . قلت : ولم تتكلم في هذا ؟!

وقد رواها اللالكائي أيضاً باسناد منقطع ، واللفظ مخالف لهذا ، وهذا الاسناد أصح ، وهذه والتي قبلها حكايتان صحيحتان رواتها أئمة ثقات ، فحماد بن زيد يقول : هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء ، فأثبت قربه إلى خلقه مع كونه فوق عرشه ، وعبد الله بن طاهر — وهو من خيار من ولي الأمر بخراسان — كان يعرف أن الله فوق العرش ، وأشكل عليه أنه ينزل لتوهمه أن ذلك يقتضي أن يخلو منه العرش ، فأقره الإمام إسحاق على أنه فوق العرش ، وقال له : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ فقال له الأمير : نعم ، فقال له إسحاق : لم تتكلم في هذا ؟ يقول : فإذا كان قادراً على ذلك لم يلزم من نزوله خلو العرش منه ، فلا يجوز أن يعترض على النزول بأنه يلزم منه خلو العرش ، وكان هذا أهون من اعتراض من يقول : ليس فوق العرش شيء ، فينكر هذا وهذا .

ونظيره ما رواه أبوبكر الاثرم في « السنة » ، قال : حدثنا ابراهيم بن الحارث ، يعني العبادي ، قال : حدثني الليث بن يحيى ، قال : سمعت ابراهيم بن الأشعث يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا قال الجهمي : أنا أكفر برب يزول من مكانه ، فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء . أراد الفضيل بن عياض رحمه الله مخالفة الجهمي الذي يقول : إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية ، فلا يتصور منه إتيان ولا مجيء ولا استواء ولا غير ذلك من الأفعال الاختيارية القائمة به . فقال الفضيل : إذا قال لك الجهمي : أنا أكفر به ، فقل : أنا أؤمن برب يفعل ما شاء . فأمره أن يؤمن بالرب الذي يفعل ما يشاء من الأفعال القائمة بذاته التي يشاؤها ، لم يرد من المفعولات المنفصلة عنه .

ومثل ذلك ما يروى عن الأوزاعي وغيره من السلف أنهم قالوا في حديث النزول : يفعل

الله مايشاء، قال: اللالكائي: حدثنا المبرن عثمان، حدثنا أحمد بن الحسين. ثنا أحمد بن علي الابار، قال: سمعت يحيى بن معين يقول: إذا سمعت الجهمي يقول: أنا أكفر برب ينزل؛ فقل: أنا أومن برب يفعل مايريد: فإن بعض من يعظمهم وينفي قيام الأفعال الاختيارية به: كالقاضي أبي بكر ومن اتبعه، وابن عقيل، والقاضي عياض، وغيرهم يحمل كلامهم على أن مرادهم بقولهم: «يفعل ما يشاء» أن يحدث شيئاً منفصلاً عنه من دون أن يقوم به هو فعل أصلاً. وهذا أوجبه أصلان لهم:

أحدهما: أن الفعل عندهم هو المفعول، والخلق هو المخلوق، فهم يفسرون أفعاله المتعدية مثل قوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ) [ابراهيم - ١٩] وأمثاله: أن ذلك وجد بقدرته من غير أن يكون منه فعل قام بذاته، بل حاله قبل أن يخلق وبعدما خلق سواء، لم يتجدد عندهم إلا إضافة ونسبة وهي أمر عدمي لا وجودي، كما يقولون مثل ذلك في كونه يسمع أصوات العباد، ويرى أعمالهم، وفي كونه كلم موسى وغيره، وكونه أنزل القرآن، أو نسخ منه ما نسخ؛ وغير ذلك، فإنه لم يتجدد عندهم إلا مجرد نسبة وإضافة بين الخالق والمخلوق، وهو أمر عدمي لا وجودي. وهكذا يقولون في استوائه على العرش إذا قالوا: إنه فوق العرش، وهذا قول ابن عقيل وغيره، وهو أول قولي القاضي أبي يعلى، ويسمي ابن عقيل هذه النسبة الأحوال، ولعله يشبهها بالأحوال التي يثبتها من يثبتها من النظار ويقولون: هي لا موجودة ولامعدومة، كما يقول ذلك أبوهاشم والقاضيان أبو بكر وأبو يعلى، وأبو المعالي الجويني في أول قوليه.

وأكثر الناس خالفوهم في هذا الأصل، وأثبتوا له تعالى فعلاً قائماً بذاته، وخلقاً غير المخلوق، ويسمى التكوين، وهو الذي يقول به قدماء الكلابية، كما ذكره الثقفي والضبعي وغيرهما من أصحاب أبي بكر محمد بن خزيمة في العقيدة التي كتبوها وقرؤوها على أبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة لما وقع بينهم النزاع في مسألة القرآن، وهو آخر قولي القاضي أبي

يغلى وجمهور الحنفية والحنبلية وأئمة المالكية والشافعيـــة ، وهو الذي ذكره البغوي في « شرح السنة » عن أهل السنة ، وذكره البخاري اجماع العلماء كما بسط ذلك في مواضع أخرى.

والأصل الثاني : نفيهم أن تقوم بـه أمور تتعلق بقدرته ومشيئته ، ويسمون ذلك حلول الحوادث . فلما كانوا نفاة لهذا ، امتنع عندهم أن يقوم به فعل اختياري يحصل بقدرته ومشيئته ، لا لازم ولا متعد ، لا نزول ولا مجيء ، ولا إتيان ولا خلق ، ولا إحياء ولا إماتة ، ولا غير ذلك ، فلهذا فسروا قول السلف بالنزول بأنـــه يفعل ما يشاء ، على أن مرادهم حصول مخلوق منفصل . ولكن كلام السلف صـريح في أنهم لم يريدوا ذلك ، وإنما أرادوا الفعل الاختياري الذي يقوم به .

والفضيل بن عياض لم يرد أنه يخلو منه العرش ، بل أراد مخالفة الجهمية ، فإن قوله : « يفعل ما يشاء » لا يتضمن أنه لا بد أن يكون تحت العرش ، بل كلامه من جنس كلام أمثال السلف : كالأوزاعي ، وحماد بن زيد ، وغيرهما . ومنهم من أنكر ما روي عن أحمـد في رسالته إلى مسدد ، وقال : راويها عن أحمد مجهول لا يعرف في أصحاب أحمد من اسمـه أحمد بن محمد البرذعي .

وأهل الحديث في هذا على ثلاثة أقوال :

منهم من ينكر أن يقـــال : يخلو أو لا يخلو ، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني المقدسي وغيره .

ومنهم من يقول : بل يخلو منـه العرش ، وقـد صنف أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن محمـد بن منده مصنفاً في الإنكار على من قال : لا يخلو منـه العرش ، وسماه : « الرد على من زعم أن الله في كل مكان ، وعلى من زعم أن الله ليس له مكان ، وعلى من تأول النزول على غير النزول » وذكر أنه سئل عن حديث أخرجه أبو سعيد النقاش في

« أقوال أهل السنة» ، عن أبي الحسن محمد بن علي المروزي ، عن محمد بن ابراهيم الدينوري ، عن علي بن أحمد بن محمد بن موسى ، عن أحمد بن محمد البردعي التميمي ، قال : لما أشكل على مسدد بن مسرهد أمر السنة ، وما وقع فيه الناس من القدر والرفض والاعتزال والإرجاء وخلق القرآن ، كتب إلى أحمد بن حنبل : أن أكتب إلى سنة رسول الله ﷺ فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، ثم ذكر فيها : وينزل الله إلى السماء الدنيا، ولايخلو منه العرش وعن حديث روي عن اسحق بن راهويه في هذا المعنى .

وزعم عبدالرحمن [1] أن هذا اللفظ لفظ منكر في الحديث عنها وعن غيرهما ، وحكمه عند أهل الأثر حكم حديث منكر ، قال : وأحمد بن محمد البردعي مجهول ، لا يعرف في أصحاب أحمد من اسمه أحمد بن محمد فيمن روى عن أحمد بن محمد بن حنبل كأحمد بن محمد ابن هانىء ، وأبي بكر الأثرم ، وأحمد بن محمد بن الحجاج ، وأبي بكر المروزي ، وأحمد ابن محمد بن عيسى البراني القاضي ، وأحمد بن محمد الصائغ ، وأحمد بن محمد بن غالب القاص غلام خليل ، وأحمد بن محمد بن مزيد الوراق .

وزاد ابن الجوزي : أحمد بن محمد بن خالد أبا بكر القاضي ، وأحمد بن خالد أبا العباس البراني ، وأحمد بن محمد بن عبدالله بن صدقة ، وأحمد بن محمد بن عبدالله بن صالح الأسدي ، وأحمد بن محمد بن عبد الحميد الكوفي ، وأحمد بن محمد بن يحيى الكحال ، وأحمد بن محمد ابن البخاري، وأحمد بن محمد بن بطة ، وذكر أحمد بن الحسن أبا الحسن الترمذي ، وأحمد ابن سعيد وقيل: أبي الاشعبة الترمذي .

وذكر في المحمدين : محمد بن اسماعيل الترمذي ، قال : ولم يعد هذا فيمن روى عن مسدد أيضاً . قال : وهذا الحديث رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة على لفظ واحد

---

(١) يحكي شيخ الاسلام رأي ابن منده في الحديثين اللذين سئل عنهما .

منهم : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبي العاص ، ومعاذ بن جبل ، وأبو أمامة ، وعقبة بن عامر ، وأبو ثعلبة الخشني ، ورفاعة بن عرابة الجهني ، وعبادة بن الصامت ، وعمرو بن عبسة ، وأبو هريرة ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وجابر بن عبدالله ، وجبير بن مطعم ، وأنس بن مالك ، وعائشة ، وأم سلمة ، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، ولم يقل أحد منهم هذا اللفظ ، ولا من رواه من الصحابة والتابعين والأئمة بعدهم .

ثم ساق الأحاديث بألفاظها ، وذكر أن أحداً منهم لم يقل هذا اللفظ ، قال : وهو لفظ موافق لرأي من زعم أنه لا يخلو منه مكان ورأي من زعم أنه ليس له مكان .

قال : وتأويل من تأول النزول على غير النزول مخالف لقول من قال : ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة ، وقوله : فلا يزال كذلك إلى الفجر .

قلت : القائلون بذلك لم يقولوا : إن هذا اللفظ في الحديث ، وليس في الحديث أيضاً أنه لا يخلو منه العرش ، أو يخلو منه العرش كما يدعيه المدعون لذلك ، فليس في الحديث لا لفظ المثبتين لذلك ، ولا لفظ النفاة له . وهؤلاء يقولون : إنهم يتأولون النزول على غير النزول ، بل قد يكون من هؤلاء من ينفي نزولاً يقول به ، ويجعل النزول مخلوقاً منفصلاً عنه ، وعامة رد ابن منده المستقيم إنما يتناول هؤلاء ، لكنه زاد زيادات نسب لأجلها إلى البدعة ، ولهذا كانوا يفضلون أباه أبا عبد الله عليه ، وكان اسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي وغيره يتكلمون فيه في ذلك كما هو معروف عنهم .

قال عبد الرحمن : قال أبي في الرد على من تأول النزول على غير النزول : واحتج في إبطال الاخبار الصحاح بأحاديث موضوعة ، وادعى المدبر أنه يقول بحديث النزول ، فحرفه على من حضر مجلسه ، وأنكر في خطبته ما أنزل الله في كتابه من حجة ، وما بين الرسول ﷺ من أنه ينزل بذاته ، وتأول النزول على معنى الأمر والنهي لا حقيقة النزول ، وزعم

أن أئمتهم العارفين بالأصول ينزهون الله عن التنقلات فأبطل جميع ما أخرج في هذا الباب ، إذ كان مذهبه غير ظاهر الحديث ، واعتماده على التأويل الباطل والمعقول الفاسد .

وقوله تعالى (ليس كمثله شيء) [الشورى : ١١] نفي للتشبيه من جميع الجهات وكل المعاني ، ولكن البائس المسكين لم يجد الطريق إلى ثلب الأئمة إلا بهذا الطريق الذي هو به أولى ، ثم قصد تعليل حديث النزول بما لا يعد علة ولا خلافاً من قول الراوي : « ينزل ويقول : « إذا مضى نصف الليل » ، وقال بعضهم : « ثلث الليل ، ونصف الليل » قال ابن منده: وليس هذا اختلافاً ولكنه جهل، واحتج معها بحديث محمد بن يزيد بن سنان ، عن أبيه ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن طارق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال « إنه يأمر منادياً ينادي كل ليلة » قال : وهذا حديث موضوع موافق لمذهبه . زعم أن يحيى بن سعيد القطان ، وابن مهدي، والبخاري، ومسلم، أخرجوا في كتبهم مثل هؤلاء الضعفاء المتروكين تردداً منه وجهلاً ، وأعاد حديث أبي هاشم الرفاعي عن حفص ، رواه محاضر وغير واحد ، قال : « إن الله ينزل كل ليلة » ، وكذلك حديث طارق رواه عن عبيد الله ابن عمر ، عن زيد بن أنيسة ، عن طارق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قوله : « إن الله ينزل كل ليلة » ، وأما حديث الحسن ، عن عثمان بن أبي العاص ، فقد تقدم الكلام عليه فيما ذكرنا ، وليس في هذه الأحاديث ولا رواتها ما يصح ، قال : ولو سكت عن معرفة الحديث كان أجمل به وأحسن ، إذ قد سلب الله معرفته وأرسخ في قلبه تبطيل الأخبار الصحاح واعتماد معقوله الفاسد .

قلت : فهذا نقل عبد الرحمن لكلام أبيه ، وأبوه أعلم منه وأفقه وأسدّ قولاً ، ثم قال أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن منده هذا قال : حدثنا محمد بن محمد بن الحسن ، ثنا عبد الله

بن محمد الوراق ، ثنا زكريا بن يحيى الساجي ، ثم قال عبدالرحمن : حدثني أحمد بن نصر ، قال : كنت عند سليمان بن حرب فجاء إليه رجل كلامي من أصحاب الكلام فقال له : تقولون إن الله على عرشه لا يزول ، ثم تروون أن الله ينزل إلى السماء ؟ فقال : عن حماد ابن زيد ان الله على عرشه، ولكنه يقرب من خلقه كيف شاء . قال عبد الرحمن : ومن زعم أن حماد بن زيد ، وسليمان بن حرب ، أرادا بقولهما: يقرب من خلقه كيف شاء أرادا أن لا يزول عن مكانه ، فقد نسبهما إلى خلاف ما ورد في الكتاب والسنة . قال : وحدثنا عبد الصمد بن محمد المعاصمي ببلخ أنبأنا إبراهيم بن أحمد المستملي ، قال أنبأنا عبد الله بن أحمد ابن حراش ، قال حدثنا أحمد بن الحسن بن زياد، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال :سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا قال لك الجهمي: أنا لا أومن برب يزول عن مكانه ، فقل له : أنا أومن برب يفعل ما يشاء . قال : رواه جماعة عن فضيل بن عياض . قال : ولم يرد به أحد أن الله يفعل ما ذهب إليه الزنادقة ، فلا يبقى خلاف بين من يقول : أنا أكفر برب ينزل ويصعد ، وبين من يقول : أنا أومن برب لايخلو منه العرش في إبطال ما نطق به الكتاب والسنة . ثم روى باسناده عن الفضيل بن عياض، إذا قال الجهمي : أنا أكفر برب ينزل ويصعد ، فقل : آمنت برب يفعل مايشاء .

قلت : زكريا بن يحيى الساجي أخذ عنه أبو الحسن الأشعري ما أخذه من أصول أهل السنة والحديث وكثير مما نقل في كتاب « مقالات الاسلاميين » من مذهب أهل السنة والحديث ، وذكر عنهم ما ذكره حماد بن زيد من أنه فوق العرش وأنه يقرب من خلقه كيف شاء. ومعنى ذلك عنده وعند من ينفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته أنه يخلق أعراضاً في بعض المخلوقات يسميها نزولا ، كما قال : إنه يخلق في العرش معنى يسميه استواء ، وهو عند الأشعري لا يقرب العرش إلى ذاته من غير أن يقوم به فعل ، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والاحسان ، وكل ذلك عنده هو المفعول المنفصل عنه .

والأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر وغيره يقولون : إن الله فوق العرش بذاته ، ولكن يقولون في النزول ونحوه من الأفعال هذا القول بناء على أصلهم في نفي قيام الحوادث به ؛ والسلف الذين قالوا : يفعل مايشاء وينزل كيف شاء وكما شاء، والفضيل بن عياض الذي قال: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنا أومن برب يفعل مايشاء، مرادهم نقيض هذا القول ورد أبي عبدالله متناول لهؤلاء، وعلى هذا لا يبقى خلاف بين من يقول ينزل ويصعد، وبين من ينفي ذلك، وذلك لأن الأفعال المنفصلة لم ينازع فيها أحد من المسلمين ، فعلم أن مراد هؤلاء إثبات الفعل الاختياري القائم به ولكنهم مع هذا ليس في كلامهم أنهم كانوا يعتقدون خلو العرش منه وأنه لا يبقى فوق العرش : كما ذكره عبد الرحمن وزعم أنه معنى الحديث ، وروى باسناده من « كتاب السنة » لعبد الله بن أحمد بن حنبل قال : أخبرنا محمد ابن محمد بن الحسن ، حدثني أبي ثنا أحمد بن محمد بن عمر اللبناني ، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ثنا أبي ، ثنا موسى بن داود أبو معمر، ثنا عباد بن العوام ، قال : قدم علينا شريك فسألته عن الحديث « إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان » . قلنا : إن قوماً ينكرون هذه الأحاديث !! قال : فما يقولون ؟ قلنا : يطعنون فيها ، فقال : إن الذين جاؤوا بهذه الأحاديث هم الذين جاؤوا بالقرآن وبالصلاة وبالحج وبالصوم، فما يعرف الله إلا بهذه الأحاديث .

قال : وأما حديث إسحاق بن راهويه ، فرواه إسماعيل الترمذي وذكر عن ابن أبي حاتم أنهم تكلموا فيه . قال : والحديث حدث به أحمد بن موسى بن بريدة ، عن أحمد بن عبد الله بن محمد بن بشير، عن الترمذي : سمعت إسحاق بن راهوية يقول : اجتمعت الجهمية إلى عبد الله بن طاهر يوماً فقالوا له : أيها الأمير إنك تقدم إسحاق وتكرمه وتعظمه ، وهو كافر يزعم أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ويخلو منه العرش . قال : فغضب عبد الله وبعث إليّ ، فدخلت وسلمت ، فلم يرد عليّ السلام غضباً ولم يستجلسني ، ثم رفع

رأسه وقال لي : ويلك يا إسحاق ، ما يقول هؤلاء ؟ قال : قلت : لا أدري ، قال : تزعم أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة ، ويخلو منه العرش ؟ فقلت : أيها الأمير : لست أنا قلته ، قاله النبي ﷺ : ثنا أبو بكر بن عياش ، عن إسحاق ، عن الأغر ابن مسلم ، أنه قال : أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: « ينزل الله إلى سماء الدنيا في كل ليلة فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له » ، ولكن مُرهم يناظروني . قال : فلما ذكرت له النبي ﷺ ؛ سكن غضبه ، وقال لي : إجلس ، فجلست . فقلت : مُرهم أيها الأمير يناظروني ، قال : ناظروه ، قال : فقلت لهم : يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش أم لا يستطيع قال : فسكتوا وأطرقوا رؤوسهم ، فقلت : أيها الأمير مرهم يجيبوا فسكتوا ، فقال : ويحك يا إسحاق ماذا سألتهم ؟ قال : قلت : أيها الأمير قل لهم : يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش أم لا؟قال: فإيش هذا ؟ قلت : إن زعموا أنه لا يستطيع أن ينزل إلا أن يخلو منه العرش ، فقد زعموا أن الله عاجز مثلي ومثلهم ، وقد كفروا ، وإن زعموا أنه يستطيع أن ينزل ولا يخلو منه العرش ، فهو ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء ، ولا يخلو منه المكان .

قال عبد الرحمن : والصحيح مما جرى بين إسحاق وعبد الله بن طاهر ما أخبرنا أبي ، ثنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصري ، ثنا محمد بن حاتم ، سمعت إسحاق بن إبراهيم بن مخلد يقول : قال لي عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ! هذه الأحاديث التي تروونها في النزول ـ يعني وغير ذلك ـ ماهي ؟ قلت : أيها الأمير ! هذه أحاديث جاءت مجيء الأحكام والحلال والحرام ، ونقلها العلماء ، فلا يجوز أن تُرد ، هي كما جاءت بلا كيف . فقال عبد الله : صدقت ، ما كنت أعرف وجوهها إلى الآن .

قال عبد الرحمن : ولا يخلو منه المكان كيفية تهدم النزول ، وتبطل قول من يقول : هي كما جاءت بلا كيف ؛ فيقال : بل مخاطبة إسحاق لعبد الله بن طاهر كان فيها زيادة على هذه الرواية كما ثبت ذلك في غير هذه الرواية ، ولكن هذه المخاطبات والمناظرات ينقل منها هذا ما لا ينقل غيره ، كما نقلوا في مناظرة أحمد بن حنبل وغيره ، هذا ينقل ما لا ينقله هذا ، كما نقل صالح وعبد الله والمروزي وغيرهم وكلهم ثقات ، وإسحاق بسط الكلام مع ابن طاهر .

قال الشيخ أبو عثمان النيسابوري الصابوني الملقب بشيخ الإسلام في رسالته في السنة قال: ويعتقد أهل الحديث ويشهدون أن الله سبحانه وتعالى فوق سبع سمواته على عرشه كما نطق به كتابه في قوله : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ) [الأعراف – ٥٣) ، وذكر عدة آيات من ذلك؛ فإن هذا ذكره الله في سبعة مواضع من القرآن ، قال : وأهل الحديث يثبتون في ذلك ما أثبته الله تعالى ،ويؤمنون به ويصدقون الرب جل جلاله في خبره ، ويطلقون ما أطلقه الله سبحانه من استوائه على عرشه ، ويمرون ذلك على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله تعالى و (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الأَلْبَابِ) [آل عمران - ٧] .

وروى بإسناده من طريقين أن مالك بن أنس سئل عن قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) [طه – ٥]: كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا ضالاً ، وأمر أن يُخرج من المجلس . وروى بإسناده الثابت عن عبد الله بن المبارك أنه قال : نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية : بأنه هاهنا ، وأشار بيده إلى الأرض .

وقال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ – يعني الحاكم – في كتاب « التاريخ » الذي جمعه لأهل نيسابور ، وفي كتاب « معرفة أصول الحديث » اللذين جمعهما ولم يسبق إلى مثلهما ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانىء ، سمعت الامام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : من لم يُقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سمواته ، فهو كافر به حلال الدم يستتاب ، فإن تاب ، وإلا ضربت عنقه ، وألقي على بعض المزابل .

قال الشيخ أبو عثمان : ويُثبت أصحابُ الحديث نزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون ما أثبته رسول الله

ﷺ ، وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله سبحانه وتعالى ، وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والاتيان المذكورين في قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أن يَأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ) [البقرة – ٢١٠] ، وقوله عز وجل : (وَجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر – ٢٢]

وقال : أخبرنا أبو بكر بن زكريا ، سمعت أبا حامد الشرقي ، سمعت حمدان السلمي وأبا داود الخفاف ، قالا : سمعنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، يقول : قال لي الأمير عبدالله ابن طاهر : يا أبا يعقوب ! هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله ﷺ ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا ، كيف ينزل ؟ قال : قلت : أعز الله الأمير ، لايقال لأمر الرب كيف ! إنما ينزل بلا كيف .

قال : وسمعت أبا عبد الله الحافظ يقول : سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري ، سمعت إبراهيم بن أبي طالب ، سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم أبا عبد الله الرباطي يقول : حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ذات يوم ، وحضر إسحاق بن إبراهيم رحمه الله ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم ، فقال له بعض قواد عبد الله : يا أبا يعقوب ! أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ ! قال : نعم ، قال : كيف ينزل ؟ فقال إسحاق : أثبته فوق ، فقال أثبته فوق ، فقال إسحاق: قال الله عز وجل : (وَجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر – ٢٢] ، فقال الأمير عبد الله : هذا يوم القيامة ، فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟!!

وقال أبو عثمان : قرأت في رسالة أبي بكر الاسماعيلي إلى أهل جيلان أن الله ينزل إلى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن النبي ﷺ ، وقد قال الله عز وجل : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أَنْ يَأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ) [البقرة – ٢١٠] ، وقال : (وَجاءَ

رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر – ٢٢] ؛ نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، فلو شاء سبحانه أنه يبين كيف ذلك فعل ؛ فانتهينا إلى ماأحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه، إذ كنا قد أمرنا به في قوله : (هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ، فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ إلا اللهُ ، والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ) [آل عمران – ٧] .

وروى عبد الرحمن بن منده بإسناده عن حرب بن إسماعيل ، قال : سألت إسحاق بن إبراهيم ، قلت : حديث النبي ﷺ « ينزل الله إلى السماء الدنيا » ؟ قال : نعم ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا كما شاء وكيف شاء . وقال عن حرب : لايجوز الخوض في أمر الله تعالى كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين، لقول الله تعالى: (لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون).

وروى أيضاً عن حرب قال : هذا مذهب أئمة العلم، وأصحاب الحديث والأثر، وأهل السنة المعروفين بها ، وهو مذهب أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، والحميدي ، وغيرهم ، وكان قولهم : إن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء وكما شاء ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وروى أيضاً عن حرب : قال : قال إسحاق بن إبراهيم : لايجوز لأحد أن يتوهم على الخالق بصفاته وأفعاله توهم ما يجوز التفكر والنظر في أمر المخلوقين ، وذلك أنه يمكن أن يكون موصوفاً بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثاها إلى السماء الدنيا كما شاء ، ولا يسأل كيف نزوله ، لأنه الخالق يصنع كيف شاء .

وروى أيضاً عن محمد بن سلام ، قال : سأل فضالة عبد الله بن المبارك عن النزول ليلة النصف من شعبان ؛ فقال عبد الله : يا ضعيف تجد خداي خوشير كن : ينزل كيف شاء .

وروى عن ابن المبارك قال : من قال لك يا مشبه ؛ فاعلم أنه جهمي .

وقال عبد الرحمن بن منده : إياك أن تكون فيمن يقول: أنا أومن برب يفعل مايشاء، ثم تنفي ما في الكتاب والسنة مما شاء الله وأوجب على خلقه الايمان به . أفاعيله كل ليلة أن ينزل بذاته من العرش إلى السماء الدنيا،والزنادقة ينكرونه بزعمهم أن الله لايخلو منه مكان.

ورُوي حديث مرفوع من طريق نعيم بن حماد ، عن جرير ، عن ليث ، عن بشر ، عن أنس : أن النبي ﷺ قال : « إذا أراد الله أن ينزل عن عرشه نزل بذاته » .

قلت : ضعف أبو قاسم إسماعيل التميمي وغيره من الحفاظ هذا اللفظ مرفوعاً ،ورواه ابن الجوزي في « الموضوعات » ، وقال أبو القاسم التميمي : « ينزل » معناه صحيح أنا أقر به ، لكن لم يثبت مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، وقد يكون المعنى صحيحاً وإن كان اللفظ نفسه ليس بمأثور ؛ كما لو قيل : إن الله هو بنفسه وذاته خلق السموات والأرض ، وهو بنفسه وذاته كلم موسى تكليماً ، وهو بنفسه وذاته استوى على العرش ، ونحو ذلك من أفعاله التي فعلها هو بنفسه وهو نفسه فعلها ؛ فالمعنى صحيح ، وليس كل مابين به معنى القرآن والحديث من اللفظ يكون من القرآن ومرفوعاً .

فهذا تلخيص ما ذكره عبد الرحمن بن منده مع أنه استوعب طرق هذا الحديث وذكر ألفاظه مثل قوله : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا إذا مضى ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك إلى الفجر » . وفي لفظ : « إذا بقي من الليل ثلثاه يهبط الرب إلى سماء الدنيا » ، وفي رواية يقول : « لايسأل عن عبادي غيري ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ » ، وفي رواية عمرو بن عبسة : « إن الرب يتدلى في جوف الليل إلى السماء الدنيا » ، وفي لفظ : « حتى ينشق الفجر ، ثم يرتفع » وذكر نزوله عشية عرفة من عدة طرق ، وكذلك ليلة النصف من شعبان ، وذكر نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ،

وحديث يوم المزيد في يوم الجمعة من أيام الآخرة ، وما فيه من ذكر نزوله وارتفاعه وأمثال ذلك من الأحاديث ، وهو ينكر على من يقول : إنه لايخلو منه العرش ، ويجعل هذا مثل قول من يقول : إنه في كل مكان ، ومن يقول : إنه ليس في مكان .

وكلامه من جنس كلام طائفة تظن أنه لايمكن إلا أحد القولين :

قول من يقول : إنه ينزل نزولاً يخلو منه العرش .

وقول من يقول : ما ثم نزول أصلاً كقول من يقول: ليس له فعل يقوم بذاته باختياره.

وهاتان الطائفتان ليس عندهما نزول إلا النزول الذي يوصف به أجساد العباد الذي يقتضي تفريغ مكان وشغل آخر . ثم منهم من ينفي النزول عنه ، ينزهه عن مثل ذلك ، ومنهم من أثبت له نزولاً من هـــذا الجنس ، يقتضي تفريغ مكان وشغل آخر ؛ فأولئك يقولون : هذا القول باطل ، فتعين الأول كما يقول من يقابلهم : ذلك القول باطل ، فتعين الثاني ، وهو يحمل كلام السلف « يفعل ما يشاء » على أنه نزول يخلو منه العرش ، ومـــن يقابله يحمله أن المراد مفعول منفصل عن الله .

وفي الجملة : فالقائلون بأنه يخلو منه العرش طائفة قليلة من أهل الحديث وجمهورهم على أنه لايخلو منه العرش ، وهو المأثور عن الأئمة المعروفين بالسنة ، ولم ينقل عن أحد منهم باسناد صحيح ولا ضعيف أن العرش يخلو منه ، وما ذكره عبد الرحمن من تضعيف تلك الرواية عن إسحاق فقد ذكرنا الرواية الأخرى الثابتة التي رواها ابن بطة وغيره ، وذكرنا أيضاً اللفظ الثابت عن سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ؛ رواه الخلال وغيره. وأما رسالة أحمد بن حنبل إلى مسدّد بن مُسَرْهَد فهي مشهورة عند أهل الحديث والسنة من أصحاب أحمد وغيرهم ، تلقوها بالقبول ، وقد ذكرها أبو عبد الله بن بطة في كتـــاب « الإبانة » واعتمدها غير واحد كالقاضي أبي يعلى وكتبها بخطه .

فصل

وقد تأول قوم من المنتسبين إلى السنة والحديث حديث النزول ومـــا كان نحوه من النصوص التي فيها فعل الرب اللازم ، كالاتيان والمجيء والهبوط ونحو ذلك ، ونقلوا في ذلك قولاً لمالك ولأحمد بن حنبل حتى ذكر المتأخرون من أصحاب أحمد ، كأبي الحسن بن الزاغوني وغيره عن أحمد في تأويل هذا الباب روايتين بخلاف غير هذا الباب ، فإنه لم ينقل عنه في تأويله نزاع .

وطرد ابن عقيل الروايتين في التـأويل في غير هذه الصفة ، وهو تارة يوجب التأويل ، وتارة يحرمه ، وتارة يسوغه .

والتأويل عنده تارة للصفات الخبرية مطلقاً ، ويسميها الاضافات لا الصفات موافقة لمن أخذ ذلك عنه من المعتزلة كأبي علي بن الوليد ، وأبي القاسم بن التبان – وكانا من أصحاب أبي الحسين البصري – وأبو الفرج بن الجوزي مع ابن عقيل على ذلك في بعض كتبه مثل « كف التشبيه بكف التنزيه » ، ويخالفه في بعض كتبه ، والأكثرون من أصحاب أحمد لم يثبتوا عنه نزاعاً في التأويل لا في هذه الصفات ولا في غيرها . وأما ما حكاه أبو حـــامد الغزالي عن بعض الحنبلية : أن أحمد لم يتأول إلا ثلاثة أشياء : « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » و« قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » ، و« إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن » فهذه الحكاية كذب على أحمد ، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف ، لا علمه بما قال ، ولا صدقه فيما قال ، وأيضاً وقع النزاع بين أصحابه هل اختلف اجتهـــاده في تأويل المجيء والإتيان والنزول ونحو ذلك ، لأن حنبلاً نقل عنه في المحنة أنهم لما احتجوا عليه بقول النبي ﷺ : « تجيء البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان من طير صواف »

ونحو ذلك من الحديث الذي فيه إتيان القرآن ومجيئه، وقالوا له : لايوصف بالإتيان والمجيء إلا مخلوق، فعارضهم أحمد بقوله – وأحمد وغيره من أهل السنة – فسروا هذا الحديث بأن المراد به مجيء ثواب البقرة وآل عمران كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة ، والمراد منه ثواب الأعمال .

والنبي ﷺ قال : « اقرؤوا البقرة وآل عمران ، فإنها يجيئان يوم القيامة كأنهما غيايتان أو غمامتان أو فرقان من طير صواف ، يحاجان عن أصحابهما » وهذا الحديث في «الصحيح» فلما أمر بقراءتها ، وذكر مجيئها يحاجان عن القارىء ، علم أنه أراد بذلك قراءة القارىء لها وهو عمله ، وأخبر بمجيء عمله الذي هو التلاوة لها في الصورة التي ذكرها ،كما أخبر بمجيء غير ذلك من الأعمال .

وهذا فيه كلام مبسوط في غير هذا الموضع : هل يقلب الله العمل جوهراً قائماً بنفسه أم الأعراض لاتنقلب جواهر ؟ وكذلك قوله : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » والمقصود هنا أن النبي ﷺ لما أخبر بمجيء القرآن في هذه الصورة أراد به الاخبار عن قراءة القارىء التي هي عمله ، وذلك هو ثواب قارىء القرآن ، ليس المراد به أن نفس كلامه الذي تكلم به وهو قائم بنفسه يتصور صورة غمامتين،فلم يكن في هذا حجة للجهمية على ما ادعوه.

ثم إن الإمام أحمد في المحنة عارضهم بقوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أن يأتيَهُمُ الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ) [البقرة : ٢١٠] قال : قيل : إنما يأتي أمره . هكذا نقل حنبل ، ولم ينقل هذا غيره ممن نقل مناظرته في المحنة، كعبد الله بن أحمد ، وصالح بن أحمد، والمروزي وغيره ، فاختلف أصحاب أحمد في ذلك ، فمنهم من قال : غلط حنبل لم يقل أحمد هذا ، وقالوا : حنبل له غلطات معروفة ، وهذا منها وهذه طريقة أبي إسحاق بن شاقلا .

ومنهم من قال : بل أحمد قال ذلك على سبيل الالزام لهم يقول :إذا كان أخبر عن نفسه بالمجيء والاتيان ، ولم يكن ذلك دليلاً على أنه مخلوق ، بل تأولتم ذلك على أنه جاء

أمره ، فكذلك قولوا :جاء ثواب القرآن ، لا أنه نفسه هو الجائي ، فإن التأويل هنا ألزم، فإن المراد هنـــا الاخبار بثواب قارىء القرآن ، وثوابه عمل له لم يقصد به الاخبار عن نفس القرآن .

فإذا كان الرب قد أخبر بمجيء نفسه ثم تأولتم ذلك بـــأمره ، فإذا أخبر بمجيء قراءة القرآن ، فلأن تتأولوا ذلك بمجيء ثوابه بطريق الأولى والأحرى . وإذا قاله لهم على سبيل الالزام ، لم يلزم أن يكون موافقاً لهم عليه ، وهو لا يحتاج إلى أن يلتزم هذا ، فإن هـــذا الحديث له نظائر كثيرة في مجيء أعمال العباد ، والمراد مجيء قراءة القارىء التي هي عمله ، وأعمال العباد مخلوقة ، وثوابها مخلوق ، ولهذا قال أحمد وغيره من السلف إنه يجيء ثواب القرآن ، والثواب إنما يقع على أعمال العباد ، لا على صفات الرب وأفعاله .

وذهبت طائفة ثالثة من أصحاب أحمد إلى أن أحمد قال هذا ذلك الوقت وجعلوا هـذا رواية عنه ، ثم من يذهب منهم إلى التأويل كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما يجعلون هذه عمدتهم حتى يذكرها أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره ولا يذكر من كلام أحمد والسلف ما يناقضها .

ولا ريب أن المنقول المتواتر عن أحمد يناقض هذه الرواية ، ويبين أنه لا يقول : إن الرب يجيء ويأتي وينزل أمره ، بل هو ينكر على من يقول ذلك،والذين ذكروا عن أحمد في تأويل النزول ونحوه من الأفعال لهم قولان : منهم من يتأول ذلك بالقصد ، كما تأول بعضهم قوله : (ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ) بالقصد ، وهذا هو الذي ذكره ابن الزاغوني ، ومنهم من يتأول ذلك بمجيء أمره ، ونزول أمره ، وهو المذكور في رواية حنبل، وطائفة من أصحاب أحمد وغيرهم كالقاضي أبي يعلى وغيره ممن يوافق أبا الحسن الأشعري على أن الفعل هو المفعول ، وأنه لا يقوم بذاته فعل اختياري يقولون:معنى النزول والاستواء وغير ذلك أفعال يفعلها الرب في المخلوقات وهذا هو المنصوص عن أبي الحسن الأشعري وغيره ،

قالوا : الاستواء فعل فعله في العرش كان به مستوياً ، وهذا قول أبي الحسن بن الزاغوني ، وهؤلاء يدعون أنهم وافقوا السلف ، وليس الأمر كذلك ، كما قد بسط في موضعه .

وكذلك ذكرت هذه رواية عن مالك،رويت من طريق كاتبه حبيب بن أبي حبيب، لكن هذا كذاب باتفاق أهل العلم بالنقل لايقبل أحد منه نقله عن مـــالك ، ورويت من طريق أخرى ذكرها ابن عبد البر وفي إسنادها من لانعرفه . واختلف أصحاب أحمدوغيرهم من المنتسبين إلى السنة والحديث في النزول والإتيان والمجيء وغير ذلك هل يقال : إنه بحركة وانتقال ؟ أم يقال بغير حركة وانتقـال ؟ أم يمسك عن الاثبات والنفي ؟ على ثلاثة أقوال ذكرها القاضي أبو يعلى في كتـــاب « اختلاف الروايتين والوجهين » فالأول قول أبي عبد الله بن حامد وغيره ، والثاني قول أبي الحسن التميمي وأهل بيته ، والثـالث قول أبي عبد الله بن بطة وغيره .

ثم هؤلاء فيهم من يقف عن إثبات اللفظ مع الموافقة على المعنى ، وهو قول كثير منهم كما ذكر ذلك أبو عمر بن عبد الرحمن وغيره .

ومنهم من يمسك عن إثبـات المعنى مع اللفظ ، وهم في المعنى منهم من يتصوره مجملًا ، ومنهم من يتصوره مفصلًا ، إما مع الإصابة ، وإما مع الخطأ .

والذين أثبتوا هذه رواية عن أحمد هم وغيرهم ممن ينتسب إلى السنـــة والحديث لهم في تأويل ذلك قولان أحدهما : أن المراد به إثبات أمره . والثاني : أن المراد بذلك عمده وقصده ، وهكذا تأول هؤلاء قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) قالوا : قصد وعمد ، وهذا تأويل طائفة من أهل العربية ، منهم أبو محمد عبد الله بن قتيبة ذكر في كتاب « مختلف الحديث » له الذي رد فيه على أهل الكلام الذين يطعنون في الحديث ، فقال : قالوا حديث في التشبيه يكذبه القرآن والاجماع قالوا : رويتم أن رسول الله ﷺ قـال : « ينزل الله تبارك وتعـــالى إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر ، فيقول : هل من داع

فأستجيب له أو مستغفر فأغفر له » و « ينزل عشية عرفة إلى أهل عرفة » و « ينزل ليلة النصف من شعبان » وهذا خلاف لقوله تعالى : (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ ، ولا أَدْنى مِنْ ذَلِكَ ولا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كانُوا) وقوله : (وهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وفي الأَرْضِ إلهٌ) وقد أجمع الناس أنه يكون بكل مكان ، ولا يشغله شأن عن شأن .

قال أبو محمد: ونحن نقول في قوله (مايكون من نجوى إلا هو رابعهم) : إنه معهم بالعلم بهم عليه، كما تقول لرجل وجهته إلى بلد شاسع ، ووكلته بأمر من أمرك : احذر التقصير والإغفال لشيء مما تقدمت فيه إليك ، فإني معك تريد أنه لايخفى علي تقصيرك أو جدك بالإشراف عليك ، والبحث عن أمورك ،فإذا جاز هذا في المخلوق ، الذي لايعلم الغيب ، فهو في الخالق الذي يعلم الغيب أجوز . وكذلك هو بكل مكان يراد : لايخفى عليه شيء مما في الأماكن فهو فيها بالعلم بها والإحاطة ، فكيف يسوغ لأحد أن يقول : إنه بكل مكان على الحلول مع قوله (الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) أي : استقر كما قال (فإذا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ) أي : استقررت ومع قوله تعالى : (إليْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وكيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرفع إليه عمل هو عنده ؟ وكيف تعرج الملائكة والروح يوم القيامة ؟ وتعرج بمعنى تصعد ، يقال : عرج إلى السماء : إذا صعد ، والله عز وجل ذو المعارج ، والمعارج : الدرج ، فما هذه الدرج ؟ وإلى من تؤدي الملائكة الأعمال إذا كان بالمحل الأعلى مثله بالمحل الأدنى ؟!

ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم ، وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق سبحانه لعلموا أن الله هو العلي وهو الأعلى ، وهو بالمكان الرفيع ، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه ، والأيدي ترفع بالدعاء إليه ،ومن العلو يرجى الفرج ، ويتوقع النصر وينزل الرزق. وهناك الكرسي والعرش والحجب والملائكة يقول الله تبارك وتعالى : (وَلَهُ مَنْ في

السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) [الأنبياء : ١٩] وقال في الشهداء : (أحياء عند ربهم يرزقون) [آل عمران : ١٦٩] قيل لهم شهداء ، لأنهم يشهدون ملكوت الله ، واحدهم شهيد ، كما يقال : عليم وعلماء ، وكفيل وكفلاء . وقال عز وجل : (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا) [الأنبياء : ١٧] أي : لو أردنا أن نتخذ امرأة وولداً لاتخذنا ذلك عندنا لا عندكم ، لأن زوجة الرجل وولده يكونان عنده بحضرته لا عند غيره ، والأمم كلها عربيها وعجميها تقول : إن الله عز وجل في السماء ماتركت على فطرها ، ولم تنقل عن ذلك بالتعليم . وفي الحديث أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ بأمة أعجمية للعتق ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أين الله » ؟ فقالت : في السماء ، قال : « فمن أنا » ؟ قالت : رسول الله ، فقال : « هي مؤمنة » وأمره بعتقها . وقال أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهـــل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذي سبق النا س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعاً ما ينـــاله بصر العيـ ن ترى دونه الملائك صورا

وصورا جمع أصور وهو المائل العنق ، وهكذا قيل في الحديث ان حملة العرش صور ، وكل من حمل شيئاً ثقيلاً على كاهله أو على منكبه لم يجد بداً من أن يميل عنقه . وفي « الانجيل » أن المسيح عليه السلام قال : « لاتحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله تعالى . وقال للحواريين : إن أنتم غفرتم للناس ، فإن ربكم الذي في السماء يغفر لكم ظلمكم ، انظروا إلى طير السماء فإنهن لايزرعن ولا يحصدن ، ولا يجمعن في الأهواء ، وربكم الذي في السماء هو يرزقهن ، أفلستم أفضل منهن . ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب .

قال ابن قتيبة : وأما قوله تعالى (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) فليس في ذلك ما يدل على الحلول بها ، وإنما أراد به أنه إله السماء وإله من فيها ، وإله الأرض وإله من

فيها ، ومثل هذا من الكلام قولك : هو بخراسان أمير وبمصر أمير، فالإمارة تجتمع له فيهما وهو حال بإحداهما أو بغيرهما ، وهذا واضح لايخفى .

فإن قيل لنا : كيف النزول منه جل وعز؟قلنا : لانحتم على النزول منه بشيء ، ولكنا نبين كيف النزول وما تحتمله اللغة من هذا اللفظ ، والله تعالى أعلم بما أراد . والنزول منا يكون بمعنيين ، أحدهما : الانتقال من مكان إلى مكان كنزولك من الجبل إلى الحضيض ، ومن السطح إلى الدار ، والمعنى الآخر إقبالك على الشيء بالارادة والنية ، وكذلك الهبوط والارتقاء والبلوغ والمصير ، وأشباه هذا من الكلام ، ومثال ذلك أن يسألك سائل عن محالّ قوم من الأعراب وهو لايريد المصير إليه ، فتقول له: إذا صرت إلى جبل كذا،فانزل منه وخذ يميناً ، وإذا صرت إلى وادي كذا فاهبط فيه ، ثم خذ شمالاً ، وإذا صرت إلى أرض كذا ، فاعتل هضبة هناك حتى تشرف عليهم ، وأنت لا تريد في شيء مما تقوله : افعله ببدنك إنما تريد : افعله بنيتك وقصدك . وقد يقول القائل : بلغت إلى الأحرار تشتمهم ، وصرت إلى الخلفاء تطعن عليهم ، وجئت إلى العلم تزهد فيه ، ونزلت عن معالي الأخلاق إلى الدناءة ، وليس يراد في شيءٍ من هذا انتقـــال الجسم ، وإنما يراد به القصد إلى الشيء بالارادة والعزم والنية ، وكذلك قوله جل وعز (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) لايرادبه أنه معهم بالحلول ، ولكن بالنصرة والتوفيق والحياطة ، وكذلك قوله تعالى : (من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » قال : وحدثنا عن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه أن موسى عليه السلام لما نودي من الشجرة : اخلع نعليك أسرع الاجابة وتابع التلبية ، وما كان ذلك إلا استئناساً منه بالصوت وسكوناً إليه ، وقال : إني أسمع صوتك وأحسن حسك ، ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ فقال : أنا فوقك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك يريد أني أعلم بك منك بنفسك ، لأنك إذا نظرت إلى ما بين يديك خفي عنك ما وراءك ، وإذا

سموت بطرفك إلى ما هو فوقك ذهب عنك علم ما تحتك وأنا لاتخفى علي خافية منك في جميع أحوالك ، ونحو هذا قول رابعة العابدة العدوية: شغلوا قلوبهم عن الله عز وجل بحب الدنيا ، ولو تركوها لجالت في الملكوت ، ثم رجعت إليهم بطرف الفوائد . ولم ترد أن أبدانهم وقلوبهم تجول في السماء بالحلول ، ولكن تجول هناك بالفكرة والقصد والإقبال ، وكذلك قول أبي مهوية الأعرابي: اطلعت في النار فرأيت الشعراء لهم كصيص يعني : التواء وأنشد:

جنادبها صرعى لهن كصيص

أي : التواء . ولو قال قائل في قول رسول الله ﷺ « اطلعت في الجنة ، فرأيت أكثر أهلها البُلْه ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » : إن اطلاعه فيها كان بالفكر والاقبال كان تأويلاً حسناً .

قلت : وتأويل المجيء والإتيان والنزول ونحو ذلك بمعنى القصد والإرادة ونحو ذلك هو قول طائفة وتأولوا ذلك في قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) وجعل ابن الزاغوني وغيره ذلك هو إحدى الروايتين عن أحمد .

والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها ، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان ، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة ، ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة ، وتكون إما غلطاً أو محرفة كما تقدم من أن قول الأوزاعي وغيره من أئمة السلف في النزول يفعل الله ما يشاء فسره بعضهم أن النزول مفعول مخلوق منفصل عن الله وأنهم أرادوا بقولهم : يفعل الله ما يشاء هذا المعنى ، وليس الأمر كذلك كما تقدمت الإشارة إليه ، وآخرون كالقاضي أبي يعلى في « إبطال التأويل » قالوا : لم يرد الأوزاعي أن النزول من صفات الفعل ، وإنما أراد بهذا الكلام بقوله : يفعل الله ما يشاء ، وشبهوا ذلك بقوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته

مشفقون)[المؤمنون:٥٨] زعموا أن قوله سبحانه ليس تنزيهاً له عن اتخاذ الولدبناءعلىأصلهم الفاسد ، وهو أن الرب لاينزه عن فعل من الأفعال ، بل يجوز عليه كل ما يقدر عليه . وكذلك جعلوا قول الأوزاعي وغيره أن النزول ليس بفعل يشاؤه الله ، لأنه عندهم من صفات الذات لا من صفات الفعل بناء على أصلهم ، وان الأفعال الاختيارية لاتقوم بذات الله ، فلو كان صفة فعل لزم أن لا يقوم بذاته بل يكون منفصلاً عنه .

وهؤلاء يقولون : النزول من صفات الذات ، ومع هذا فهو عندهم أزلي كما يقولون مثل ذلك في الاستواء والمجيء والإتيان والرضى والغضب والفرح والضحك وسائر ذلك ،إن هذا جميعه صفات ذاتية لله، وإنها قديمة أزلية لاتتعلق بمشيئته واختياره بناء على أصلهم الذي وافقوا فيه ابن كلاب وهو أن الرب لايقوم بذاته ما يتعلق بمشيئته واختياره ، بل من هؤلاء من يقول : إنه لايتكلم بمشيئته وقدرته ولا يقوم به فعل يحدث بمشيئته واختياره ، بل من هؤلاء من يقول : إن الفعل قديم أزلي، وانه مع ذلك يتعلق بمشيئته وقدرته، وأكثرالعقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بضرورة العقل كما قالوا مثل ذلك في قول من قال من المتفلسفة : إن الفلك قديم أزلي وانه أبدعه بقدرته ومشيئته، وجمهور العقلاء يقولون : الشيء المعين من الأعيان والصفات إذا كان حاصلاً بمشيئة الرب وقدرته لم يكن أزلياً .

فلما كان من أصل ابن كلاب ومن وافقهم كالحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسن الأشعري ، والقضاة أبي بكر بن الطيب ، وأبي يعلى بن الفراء ، وأبي جعفر السماني ، وأبي الوليد الباجي وغيرهم من الأعيان كأبي المعالي الجويني وأمثاله ، وأبي الوفاء ابن عقيل،وأبي الحسن بن الزاغوني وأمثالهم؟أن الربلايقوم به ما يكون بمشيئته وقدرته ، ويعبرون عن هذا بأنه لاتحله الحوادث ، ووافقوا في ذلك الجهم بن صفوان وأتباعه من الجهمية والمعتزلة صاروا فيما ورد في الكتاب والسنة من صفات الرب على أحد قولين : إما أن يجعلوها كلها مخلوقات منفصلة عنه ، فيقولون : كلام الله مخلوق بائن عنه لا يقوم به

كلام ، وكذلك رضاه وغضبه وفرحه ومجيئه وإتيانه، ونزوله وغير ذلك هو مخلوق منفصل عنه لايتصف الرب بشيء يقوم به عندهم . وإذا قالوا : هذه الأمور من صفات الفعل ، فمعناه أنها منفصلة عن الله بائنة وهي مضافة إليه،لا أنها صفات قائمة به ، ولهذا يقول كثير منهم : إن هذه آيات الاضافات وأحاديث الاضافات ، وينكرون على من يقول : آيات الصفات وأحاديث الصفات .

وإما أن يجعلوا جميع هذه المعاني قديمة أزلية ، ويقولون : نزوله ومجيئه ، وإتيانه وفرحه ، وغضبه ورضاه ونحو ذلك قديم أزلي ، كما يقولون : إن القرآن قديم أزلي .

ثم منهم من يجعله معنى واحداً ، ومنهم من يجعله حروفاً أو حروفاًوأصواتاً قديمة أزلية مع كونه مرتباً في نفسه ، ويقولون ، فرق بين ترتيب وجوده وترتيب ماهيته ، كما قد بسطنا الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع على هذه الأقوال وقائليها، وأدلتها السمعية والعقلية في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه ليس شيء من هذه الأقوال قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا قول أئمة المسلمين المشهورين بالإمامةأئمة السنة والجماعة وأهل الحديث كالأوزاعي ومالك ابن أنس وحماد بن زيد وحماد بن سلمة ، وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأمثالهم بل أقوال السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم من أئمة الدين وعلماء المسلمين موجودة في الكتب التي ينقل فيهـــا أقوالهم بألفاظها بالأسانيد المعروفة عنهم ، كما يوجد ذلك في كتب كثيرة مثل كتاب « السنة » و « الرد على الجهمية » لمحمد بن عبد الله الجعفي شيخ البخاري ، ولأبي داود السجستاني ، ولعبد الله ابن أحمد بن حنبل ، ولأبي بكر الأثرم ، ولحنبل بن إسحاق ، ولحرب الكرماني ، ولعثمان ابن سعيد الدارمي ، ولنعيم بن حماد الخزاعي ، ولأبي بكر الخلال ، ولأبي بكر بن خزيمة، ولعبد الرحمن بن أبي حاتم ، ولأبي القاسم الطبراني ، ولأبي الشيخ الأصبهاني ، ولأبي عبد الله بن منده ، ولأبي عمرو الطلمنكي ، وأبي عمر بن عبد البر .

وفي كتب التفسير المسندة قطعة كبيرة من ذلك، مثل تفسير عبد الرزاق وعبد بن حميد ودحيم وسنيد ؛ وابن جرير الطبري ، وأبي بكر بن المنذر ، وتفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم وغير ذلك من كتب التفسير التي ينقل فيهـــا ألفاظ الصحابة والتابعين في معاني القرآن بالأسانيد المعروفة .

فإن معرفة مراد الرسول ومراد الصحابة هو أصل العلم وينبوع الهدى ، وإلا فكثير ممن يذكر مذهب السلف ويحكيه لا يكون له خبرة بشيء من هذا الباب ، كما يظنون أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها أنـه لا يفهم أحد معانيها لا الرسول ولا غيره ، ويظنون أن هذا معنى قوله (لا يعلم تأويله إلا الله) مع نصرهم للوقف على ذلك ، فيجعلون مضمون مذهب السلف أن الرسول بلغ قرآناً لا يفهم معناه ، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها وأن جبريل كذلك وأن الصحابة والتابعين كذلك ، وهذا ضلال عظيم ، وهو أحد أنواع الضـلال في كلام الله والرسول ﷺ ظن أهل التخييل وظن أهل التحريف والتبديل ، وظن أهل التجهيل ، وهذا مما بسط الكلام عليه في مواضع ، والله يهدينا وسائر إخواننـــا إلى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا .

والمقصود هنا الكلام على من يقول : ينزل ولا يخلو منه عرش ، وان أهل الحديث في هذا على ثلاثة أقوال: منهم من ينكر أن يقال: يخلو أو لا يخلو، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني وغيره ، ومنهم من يقول : بل يخلو منه العرش ، وقد صنف عبد الرحمن بن منده مصنفاً في الانكار على من قال : لا يخلو من العرش أو لا يخلو منه العرش كما تقدم بعض كلامه .

وكثير من أهل الحديث يتوقف عن أن يقول يخلو أو لا يخلو، وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش ، وكثير منهم يتوقف عن أن يقال : يخلو أو لا يخلو لشكهم في ذلك ، وأنهم لم يتبين لهم جواب أحد الأمرين ، واما مع كون الواحد منهم قد ترجح عنده أحد الأمرين

لكن يمسك في ذلك لكونه ليس في الحديث ، ولما يخاف من الانسكار عليه . وأما الجزم بخلو العرش ، فلم يبلغنا إلا عن طائفة قليلة منهم .

والقول الثالث [1] – وهو الصواب وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها – أنه لايزال فوق العرش ، ولا يخلو العرش منه مع دنوه ونزوله إلى السماء الدنيا ، ولايكون العرش فوقه . وكذلك يوم القيامة كما جاء به الكتاب والسنة ، وليس نزوله كنزول أجسام بني آدم من السطح إلى الأرض بحيث يبقى السقف فوقهم ؛ بل الله منزه عن ذلك ، وسنتكلم عليه إن شاء الله ، وهذه المسألة تحتاج إلى بسط .

وأما قول النافي : إنما ينزل أمره ورحمته ؛ فهذا غلط لوجوه ،وقد تقدم التنبيه على ذلك على تقدير كون النفاة من المثبته للعلو،وأما إذا كان من النفاة للعلو والنزول جميعاً ؛فيجاب أيضاً بوجوه :

أحدها : أن الأمر والرحمة إما أن يراد بها أعيان قائمة بنفسها كالملائكة ، وإما أن يراد بها صفات وأعراض . فإن أريد الأول ؛ فالملائكة تنزل إلى الأرض في كل وقت ، وهذا خص النزول بجوف الليل ، وجعل منتهاه سماء الدنيا ، والملائكة لا يختص نزولهم لا بهذا الزمان ولا بهذا المكان ، وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة والتضرع وحلاوة العبادة ونحو ذلك ؛ فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا .

الثاني : أن في الحديث الصحيح : « أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يقول : «لا يسأل عن عبادي غيري » ، ومعلوم أن هذا كلام الله الذي لا يقوله غيره .

الثالث : أنه قال : « ينزل إلى السماء الدنيا ، فيقول : من ذا الذي يدعوني فأستجيب

---

(١) كان شيخ الاسلام قبل قليل قد تعرض لآراء أهل الحديث ، وأورد رأيين وهذا ثالثها .

له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر » ، ومعلوم أنه لايجيب الدعاء ،ويغفر الذنوب، ويعطي كل سائل سؤله إلا الله ، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك .

الرابع : نزول أمره ورحمته لا تكون إلا منه ؛ وحينئذ فهذا يقتضي أن يكون هو فوق العالم ، فنفس تأويله يبطل مذهبه ؛ ولهذا قال بعض النفاة لبعض المثبتين : ينزل أمره ورحمته ؛ فقال له المثبت : فمن ينزل ؟! ما عندك فوق شيء ؛ فلا ينزل منه لا أمر ولا رحمة ولا غير ذلك ؟! فبهت النافي وكان كبيراً فيهم .

الخامس : أنه قد روي في عدة أحاديث : « ثم يعرج » ، وفي لفظ « ثم يصعد » .

السادس : أنه إذا قدر أن النازل بعض الملائكة ، وأنه ينادي عن الله ؛ كما حرف بعضهم لفظ الحديث فرواه « يُنزِلُ » من الفعل الرباعي المتعدي أنه يأمر منادياً ينادي ؛ لكان الواجب أن يقول : من يدعو الله فيستجيب له ؟ من يسأله فيعطيه ؟ من يستغفره فيغفر له ؟ كما ثبت في « الصحيحين » ، و « موطأ مالك » و « مسند أحمد بن حنبل » ، وغير ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا أحب الله العبد نادى في السماء ياجبريل ! إني أحب فلاناً فأحبه ؛ فيحبه جبريل ؛ ثم ينادي جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » ، وقال في البغض مثل ذلك ؛ فقد بين النبي ﷺ الفرق بين نداء الله ونداء جبريل ، فقال في نداء الله : « ياجبريل ! إني أحب فلاناً فأحبه » ، وقال في نداء جبريل : « إن الله يحب فلاناً فأحبوه » ، وهذا موجب اللغة التي بها خوطبنا ، بل وموجب جميع اللغات ، فإن ضمير المتكلم لا يقوله إلا المتكلم . فأما من أخبر عن غيره فإنما يأتي باسمه الظاهر وضمائر الغيبة ، وهم يمثلون نداء الله بنداء السلطان ويقولون : قد يقال : نادى السلطان ، إذا أمر غيره بالنداء — وهذا كما قالت الجهمية المحضة في تكليم الله لموسى : إنه أمر غيره فكلمه ، لم يكن هو المتكلم — ؛ فيقال

لهم : إن السلطان إذا أمر غيره أن ينادي أو يكلم غيره أو يخاطبه ؛ فإن المنادي ينادي : معاشر الناس ! أمر السلطان بكذا ، أو رسم بكذا ، لا يقول: إني أنا أمرتكم بذلك . ولو تكلم بذلك لأهانه الناس ، ولقالوا : من أنت حتى تأمرنا ؟! والمنادي كل ليلة يقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » كما في ندائه لموسى عليه السلام : (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) [طه – ١٤] ، وقال: (إِنَّنِي أَنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ) [القصص – ٣٠] . ومعلوم أن الله لو أمر ملكا أن ينادي كل ليلة أو ينادي موسى لم يقل الملك : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » ، ولا يقول : « لا يسأل عن عبادي غيري » .

وأما قول المعترض[1] : إن الليل يختلف باختلاف البلدان والفصول في التقدم والتأخر والطول والقصر .

فيقال له : الجواب عن هذا كالجواب عن قولك : هل يخلو منه العرش ، أو لا يخلو منه ؟ وذلك أنه إذا جاز أنه ينزل ولا يخلو منه العرش ؛ فتقدم النزول وتأخره وطوله وقصره كذلك بناء على أن هذا نزول لا يقاس بنزول الخلق .

وجماع الأمر أن الجواب عن مثل هذا السؤال يكون بأنواع

أحدها : أن يبين أن المنازع النافي يلزمه من اللوازم ما هو أبعد عن المعقول الذي يعترف به مما يلزم المثبت ، فإن كان مما يحتج به من المعقول حجة صحيحة ؛ لزم بطلان النفي، فيلزم الاثبات ؛ إذ الحق لا يخلو عن النقيضين ، وإن كان باطلًا ؛ لم يبطل به الاثبات، فلا يعارض ماثبت بالفطرة العقلية والشرعة النبوية ، وهذا كما إذا قال : لو كان فوق العرش لكان جسما ، وذلك ممتنع ؛ فيقال له : للناس هنا ثلاثة أقوال :

---

(١) عاد شيخ الاسلام للاجابة على الاعتراضات الواردة في أول الكتاب .

منهم من يقول : هو فوق العرش وليس بجسم .

ومنهم من يقول : هو فوق العرش وهو جسم .

ومنهم من يقول : هو فوق العرش ، ولا أقول : هو جسم ، ولا ليس بجسم ، ثم من هؤلاء من يسكت عن هذا النفي والاثبات لأن كليهما بدعة في الشرع .

ومنهم يستفصل عن مسمى الجسم ، فإن فسر بما يجب تنزيه الرب عنه ؛ نفاه وبين أن علوه على العرش لايستلزم ذلك ، وإن فسر بما يتصف الرب بـــه ؛ لم ينف ذلك المعنى . فالجسم في اللغـة هو البدن ، والله منزه عن ذلك ، وأهل الكلام قد يريدون بالجسم ما هو مركب من الجواهر المفردة أو من المـادة والصورة . وكثير منهم من ينـازع في كون الأجسام المخلوقة مركبة من هذا وهذا ، بل أكثر العقلاء من بني آدم عندهم أن السماوات ليست مركبة لا من الجواهر المفردة ولا من المادة والصورة ؛ فكيف يكون رب العالمين مركباً من هذا وهذا ؟ فمن قال : إن الله جسم ، وأراد بالجسم هذا المركب ؛ فهو مخطىء في ذلك ، ومن قصد نفي هذا التركيب عن الله ؛ فقد أصاب في نفيه عن الله ، لكن ينبغي أن يذكر عبارة تبين مقصوده .

ولفظ التركيب قد يراد به أنه ركبه مركب ، أو أنه كانت أجزاؤه متفرقة فاجتمع ، أو أنه يقبل التفريق ، والله منزه عن ذلك كله . وقد يراد بلفظ الجسم والمتحيز ما يشار إليه بمعنى أن الأيدي ترفع إليه في الدعاء ، وأنه يقال : هو هنا وهناك ، ويراد به القائم بنفسه ، ويراد بـه الموجود . ولا ريب أن الله موجود قائم بنفسه ، وهو عنـد السلف وأهل السنة ترفع الأيدي إليه في الدعاء ، وهو فوق العرش . فإذا سمى المسمي ما يتصف بهـذه المعاني جسما ؛ كان كتسمية الآخر ما يتصف بأنه حي عالم قادر جسما ، وتسمية الآخر ما له حياة وعلم وقدرة جسما .

ومعلوم أن هؤلاء كلهم ينازعون في ثلاث مقامات

أحدها : أن تسمية ما يتصف بهذه الصفات بالجسم بدعة في الشرع واللغة ؛ فلا أهل اللغة يسمون هذا جسما ، بل الجسم عندهم هو البدن كما نقله غير واحد من أئمة اللغة ، وهو مشهور في كتب اللغة ؛ قال الجوهري في « صحاحه » المشهور : قال أبو زيد : الجسم الجسد ، وكذلك الجسمان والجثمان ، وقال الأصمعي : الجسم والجثمان الجسد ، والجثمان الشخص ، قال : والأجسم الأضخم بالبدن ، وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر ، أي : ركبت أجسمه ، وجسيمه ، أي : معظمه ، قال : وكذلك تجسمت الرجل والجبل ، أي : ركبت أجسمه .

وقد ذكر الله لفظ الجسم في موضعين من القرآن ؛ في قوله تعالى : (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) [البقرة – ٢٤٧] ، وفي قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ) [المنافقون – ٤] . والجسم قد يفسر بالصفة القائمة بالمحل وهو القدر والغلظ ، كما يقال : هذا الثوب له جسم ، وهذا ليس له جسم ، أي : له غلظ وضخامة بخلاف هذا ، وقد يراد بالجسم نفس الغلظ والضخم .

وقد ادعى طوائف من أهل الكلام النفاة أن الجسم في اللغة هو المؤلف المركب ، وأن استعمالهم لفظ الجسم في كل ما يشار إليه موافق للغة ؛ قالوا : لأن كل ما يشار إليه ؛ فإنه يتميز منه شيء عن شيء ، وكل ما كان كذلك ؛ فهو مركب من الجواهر المنفردة التي كل واحد منها جزء لا يتجزأ ، ولا يتميز منه جانب عن جانب ، أو من المادة والصورة اللذين هما جوهران عقليان كما يقول ذلك بعض الفلاسفة . قالوا : وإذا كان هذا مركباً مؤلفاً ؛ فالجسم في لغة العرب هو المؤلف المركب ؛ بدليل أنهم يقولون : رجل جسيم ، وزيد أجسم من عمرو ، إذا كثر ذهابه في الجهات ، وليس يقصدون بالمبالغة في قولهم : أجسم وجسيم إلا كثرة الأجزاء المتضمة والتأليف ؛ لأنهم لا يقولون : أجسم فيمن كثرت علومه وقدره وسائر تصرفاته وصفاته غير الاجتماع ، حتى إذا كثر الاجتماع فيه بتزايد أجزائه قيل : أجسم ، ورجل جسيم ؛ فدل ذلك على أن قولهم : جسم ؛ مفيد للتأليف .

فهذا أصل قـــول هؤلاء النفاة ، وهـــو مبني على أصلين : سمعي لغوي ، ونظري عقلي فطري .

أما السمعي اللغوي ، فقولهم : إن أهل اللغة يطلقون لغة الجسم على المركب ، وهم استدلوا عليه بقوله : هو أجسم إذا كان أغلظ وأكثر ذهاباً في الجهات ، وان هـذا يقتضي أنهم اعتبروا كثرة الأجزاء .

فيقال : أما المقدمة الأولى ، وهو أن أهل اللغة يسمون كل ما كان له مقدار بحيث يكون أكبر من غيره أو أصغر ، جسماً ، فهذا لا يوجد في لغة العرب البتة ، ولا يمكن أحد أن ينقل عنهم أنهم يسمون الهواء الذي بين السماء والأرض جسماً ، ولا يسمون روح الإنسان جسماً ، بل من المشهور أنهم يفرقون بين الجسم والروح ؛ ولهـــذا قال تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) [المنافقون - ٤] ،يعني أبدانهم دون أرواحهم الباطنة . وقد ذكر نقلة اللغة أن الجسم عندهم هو الجسد ، ومن المعروف في اللغة أن هذا اللفظ يتضمن الغلظ والكثافة ، فلا يسمون الأشياء القائمة بنفسها إذا كانت لطيفة كالهـواء وروح الإنسان ، وإن كان لذلك مقدار يكون بعضه أكبر من بعض ، لكن لا يسمى في اللغة ذلك جسماً ، ولا يقولون في زيادة أحدهما على الآخر : هذا أجسم من هـــذا ، ولا يقولون : هذا المكان الواسع أجسم من هـذا المكان الضيق ، وإن كان أكبر منه ، وإن كانت أجزاؤه زائدة على أجزائه عند من يقول : بأنه مركب من الأجزاء ؛ فليس كل ما هو مركب عندهم من الأجـزاء يسمى جسماً ، فلا يوجد في الكلام قبض جسمه ، ولا صعد بجسمه إلى السماء ، ولا أن الله يقبض أجسامنا حيث يشاء ويردها حيث شاء ؛ إنما يسمون ذلك روحاً ، ويفرقون بين مسمى الروح ومسمى الجسم كما يفرقون بين البدن والروح ، وكما يفرقون بين الجسد والروح ، فلا يُطلقون لفظ الجسم على الهواء ؛ فلفظ الجسم عندهم يشبه لفظ الجسد ؛ قال الجوهري : الجسد: البدن ، تقول فيه تجسد كما تقول في الجسم تجسم ؛ كما تقدم نقله عن أئمة اللغة أن الجسم هو الجسد .

فعلم أن هذين اللفظين مترادفان ، أو قريبان من الترداف ؛ ولهذا يقولون : لهذا الثوب جسد كما يقولون: له جسم إذا كان غليظاً ثخيناً صفيقاً ، وتقول العلماء : النجاسة قد تكون مستجسدة كالدم والميتة ، وقد لا تكون مستجسدة كالرطوبة ، ويسمون الدم جسداً كما قال النابغة :

فلا لعمر الذي قد زرته حججاً وما أُريـــق على الأنصاب من جسد

كما يقولون : له جسم ؛ فبطل ما ذكروه عن اللغة أن كل ما يتميز منه شيء عن شيء يسمونه جسماً .

المقدمة الثانية : أنه لو سلم ذلك فقولهم : إن هذا جسم يطلقونه عند تزايد الأجزاء ، هو مبني على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة ، وهذا لو قدر أنه صحيح ؛ فأهل اللغة لم يعتبروه ، ولا قال أحد منهم ذلك ؛ فعلم أنهم إنما لحظوا غلظه وكثافته . أما كونهم اعتبروا كثرة الأجزاء وقلتها ؛ فهذا لا يتصوره أكثر عقلاء بني آدم ، فضلاً عن أن ينقل عن أهل اللغة قاطبة أنهم أرادوا ذلك بقولهم : جسيم وأجسم . والمعنى المشهور في اللغة لا يكون مسماه ما لا يفهمه إلا بعض الناس ، وإثبات الجواهر المنفردة أمر خص به بعض الناس ؛ فلا يكون مسمى الجسم في اللغة ما لا يعرفه إلا بعض الناس ، وهو المركب من ذلك.

وأما الأصل الثاني العقلي[1] فقولهم : إن كل ما يشار إليه بانه هنا أو هناك ؛ فإنه مركب من الجواهر المنفردة ، أو من المادة والصورة . وهذا بحث عقلي ، وأكثر عقلاء بني آدم من أهل الكلام وغير أهل الكلام ينكرون أن يكون ذلك مركباً من الجواهر المنفردة ، أو من المادة والصورة ، وإنكار ذلك قول ابن كلاب وأتباعه من الكلابية – وهو إمام الأشعري في مسائل الصفات – وهو قول الهشامية ، والنجارية والضرارية ، وبعض الكرامية. وهؤلاء

---

(١) كان شيخ الاسلام رحمه الله قد رد قبل قليل أصول النفاة إلى أصلين : لغوي وعقلي ، فلما استنفد الحديث عن الأصل اللغوي بدأ هنا بالحديث عن الأصل العقلي .

الذين أثبتوا الجوهر الفرد زعموا أنا لا نعلم لا بالحس ولا بالضرورة أن الله أبدع شيئاً قائماً بنفسه ، وأن جميع ما نشهده مخلوق . من السحاب والمطر والحيوان والنبات والمعدن وبني آدم وغير بني آدم ، فإن مافيه أنه أحدث أكواناً في الجواهر المنفردة كالجمع والتفريق والحركة والسكون ، وأنكر هؤلاء أن يكون الله لما خلقنا أحدث أبداننا قائمة بأنفسها أو شجراً وثمراً أو شيئاً آخر قائماً بنفسه ، وإنما أحدث عندهم أعراضاً . وأما الجواهر المنفردة ، فلم تزل موجودة ، ثم من يقول : إنها محدثة ، منهم من يقول : إنهم علموا حدوثها بأنها لم تخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث ؛ فهو حادث .

قالوا : فبهذا الدليل العقلي وأمثاله علمنا أنه ما أبدع شيئاً قائماً بنفسه ، لأنا نشهده من حلول الحوادث المشهودة كالسحاب والمطر . وهؤلاء في معاد الأبدان يتكلمون فيه على هذا الأصل ، فمنهم من يقول : يفرق الأجزاء ثم يجمعها ، ومنهم من يقول : يعدمها ثم يعيدها ؛ واضطربوا ههنا فيما إذا أكل حيوان حيواناً فكيف يعاد ؟ وادعى بعضهم أن الله يعدم جميع أجزاء العالم ، ومنهم من يقول : هذا ممكن لا نعلم ثبوته ولا انتفاءه . ثم المعاد عندهم يفتقر إلى أن يبتدىء هذه الجواهر ، والجهم بن صفوان منهم يقول بعدمها بعد ذلك ، ويقول بفناء الجنة والنار لامتناع دوام الحوادث عنده في المستقبل كامتناع دوامها في الماضي ، وأبو الهذيل العلاف يقول بعدم الحركات ، وهؤلاء ينكرون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، أو انقلاب جنس إلى جنس ، بل الجواهر عندهم متماثلة ، والأجسام مركبة منها ، وما ثم إلا تغيير التركيب فقط ، لا انقلاب ولا استحالة .

ولا ريب أن جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم على إنكار هذا ، والأطباء والفقهاء ممن يقول باستحالة الأجسام بعضها إلى بعض كما هو موجود في كتبهم ، والأجسام عندهم ليست متماثلة ؛ بل الماء يخالف الهواء ، والهواء يخالف التراب ، وأبدان الناس تخالف النبات ، ولهذا صارت النفاة إذا أثبت أحد شيئاً من الصفات ؛ كان ذلك مستلزماً لأن يكون الموصوف عندهم جسما ، – وعندهم الأجسام متماثلة – فصاروا يسمونه مشبهاً بهذه المقدمات التي تلزمهم

مثل ما ألزموه لغيرهم ، وهي متناقضة لا يتصور أن ينتظم منها قول صحيح ، وكلها مقدمات ممنوعة عند جماهير العقلاء ، وفيها من تغيير اللغة والمعقول ما دخل بسبب هـــذه الأغاليط والشبهات حتى يبقى الرجل حائراً لا يهون عليه إبطال عقله ودينه ، والخروج عن الإيمان والقرآن ، فإن ذلك متطابق على إثبات الصفات ، ولا يهون عليه التزام ما يلزمونه من كون الرب مركباً من الأجزاء ومماثلاً للمخلوقات ؛ فإنه يعلم أيضاً بطلان هذا ، وأن الرب عز وجل يجب تنزيهه عن هذا ؛ فإنه سبحانه أحد صمد ، والأحد ينفي التمثيل ، والصمد ينفي ان يكون قابلاً للتفريق والتقسيم والبعضية سبحانه وتعالى فضلاً عن كونه مؤلفاً مركباً ركب وألف من الأجزاء ؛ فيفهمون من يخاطبون أن ما وصف به الرب نفسه لا يعقل إلا في بدن مثل بدن الإنسان ، بل وقد يصرحون بذلك ويقولون : الكلام لا يكون إلا من صورة مركبة مثل فم الإنسان ونحو ذلك مما يدعونه .

وإذا قال النفاة لهم : متى قلتم : إنه يرى ؛ لزم أن يكون مركباً مؤلفاً ؛ لأن المرئي لا يكون إلا بجهة من الرائي ، وما يكون بجهة من الرائي لا يكون إلا جسما ، والجسم مؤلف مركب من الأجزاء ، أو قالوا : إن الرب إذا تكلم بالقرآن أو غيره من الكلام ؛ لزم ذلك ، وإذا كان فوق العرش ؛ لزم ذلك ؛ وصار المسلم العارف بما قاله الرسول ﷺ يعلم أن الله يُرى في الآخرة لما تواتر عنده من الأخبار عن الرسول ﷺ بذلك ، وكذلك يعلم أن الله تكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، ويعلم أن الله فوق العرش بما تواتر عنده عن الرسول بما يدل على ذلك مع ما يوافق ذلك من القضايا الفطرية التي خلق الله عليها عباده .

وإذا قالوا له : — هذا يستلزم أن يكون الله مركباً من الأجزاء المنفردة ، والمركب لابد له من مركِّب ؛ فيلزم أن يكون الله محدثاً ؛ إذ المركب يفتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه تكون غيره ، وما افتقر إلى غيره ؛ لم يكن غنياً واجب الوجود بنفسه — حيروه وشككوه

إن لم يجعلوه مكذباً لما جاء به الرسول ، مرتداً عن بعض ما كان عليه من الإيمان ، مع أن تشككه وحيرته تقدح في إيمانه ودينه وعلمه وعقله .

فيقال لهم : أما كون الرب سبحانه وتعالى مركباً ركبه غيره ؛ فهذا من أظهر الأمور فساداً ، وهذا معلوم فساده بضرورة العقل . ومن قال هذا ؛ فهو من أكفر الناس وأجهلهم وأشدهم محاربة لله ، وليس في الطوائف المشهورين من يقول بهذا . وكذلك إذا قيل : هو مؤلف أو مركب – بمعنى أنه كانت أجزاؤه متفرقة فجمع بينها كما يجمع بين أجزاء المركبات من الأطعمة والأدوية والثياب والأبنية – فهـــذا التركيب من اعتقده في الله ؛ فهو من أكفر الناس وأضلهم ، ولم يعتقده أحد من الطوائف المشهورة في الأمة ، بل أكثر العقلاء عندهم أن مخلوقات الرب ليست مركبة هذا التركيب ، وإنما يقول بهذا من يثبت الجواهر المنفردة . وكذلك من زعم أن الرب مركب مؤلف بمعنى أنه يقبل التفريق والانقسام والتجزئة ، فهذا من أكفر الناس وأجهلهم ، وقوله شر من قول الذين يقولون : إن لله ولداً ، بمعنى أنه انفصل منه جزء فصار ولداً له ، وقد بسطنا الكلام على هذا في تفسير (قل هو الله أحد) وفي غير ذلك .

وكذلك إذا قيل : هو جسم ، بمعنى أنه مركب من الجواهر المنفردة أو المادة والصورة ؛ فهذا باطل ، بل هو أيضاً باطل في المخلوقات ، فكيف في الخالق سبحانه وتعالى ؟! وهذا مما يمكن أن يكون قد قاله بعض المجسمة والهشامية والكرامية وغيرهم ممن يحكى عنهم التجسيم إذ من هؤلاء من يقول : إن كل جسم فانه مركب من الجواهر المنفردة ، ويقولون مع ذلك : إن الرب جسم ، وأظن هذا قول بعض الكرامية ، فإنهم يختلفون في إثبات الجوهر الفـــرد ، وهم متفقون على أنه سبحانه جسم ، لكن يحكى عنهم نزاع في المراد بالجسم ؛ هل المراد به أنه موجود قائم بنفسه ، أو المراد به أنه مركب ؟ فالمشهور عـن أبي الهيصم وغيره من نظارهم أنه يفسر مراده ؛ بأنه موجود قائم بنفسه مشار إليه ، لا بمعنى أنه مؤلف

مركب . وهؤلاء ممن اعترف نفاة الجسم بأنهم لا يكفرون ؛ فانهم لم يثبتوا معنى فاسداً في حق الله تعالى ، لكن قالوا إنهم أخطؤوا في تسمية كل ما هو قائم بنفسه ، أو ما هو موجود جسما من جهة اللغة؛ قالوا : فانأهل اللغة لا يطلقون لفظ الجسم إلا على المركب.

والتحقيق أن كلا الطائفتين مخطئة على اللغة : أولئك الذين يسمون كل ما هو قائم بنفسه جسما ، وهؤلاء الذين سموا كل ما يشار إليه وترفع الأيدي إليـــه جسما ، وادعوا أن كل ما كان كذلك فهو مركب ؛ وأن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على كل ما كان مركباً ، فالخطأ في اللغة والابتداع في الشرع مشترك بين الطائفتين .

وأما المعاني فمن أثبت من الطائفتين مانفاه الله ورسوله ، أو نفى ماأثبت الله ورسوله؛ فهو مخطىء عقلًا ، كما هو مخطىء شرعاً ، بل أولئك يقولون لهم : نحن وأنتم اتفقنا على أن القائم بنفسه يسمى جسماً في غير محل النزاع ،ثم ادعيتم أن الخالق القائم بنفسه يختص بما يمنع هذه التسمية التي اتفقنا نحن وأنتم عليها ؛ فبينا أنه لايختص، لأن ذلك مبني على أن الأجسام مركبة ، ونحن نمنع ذلك ونقول:ليست مركبة من الجواهر المنفردة ؛ ولهذا كره السلف والأئمة كالإمام أحمد وغيره أن ترد البدعة بالبدعة ، فكان أحمد في مناظرته للجهمية لمـــا ناظروه على أن القرآن مخلوق،وألزمه أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث أنه إذا كان غيرمخلوق لزم أن يكون الله جسماً وهذا منتف ، فلم يوافقه أحمد لا على نفي ذلك ولا على إثبـاته ، بل قال : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) . ونبه أحمد على أن هذا اللفظ لا يُدرى مايريدون به ، وإذا لم يعرف مراد المتكلم بـــه لم يوافقه لا على إثباته ولا على نفيه . فإن ذكرَ معنى أثبته الله ورسوله أثبتناه ، وإن ذكر معنى نفاه الله ورسوله نفيناه باللسان العربي المبين ، ولم نحتج إلى ألفاظ مبتدعة في الشرع ، محرفة في اللغة ، ومعانيها متناقضة في العقل ؛ فيفسد الشرع واللغة والعقل ، كما فعل أهل البدع من أهل الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة .

وكذلك أيضاً لفظ الجبر كره السلف أن يقال : جبر ، وأن يقال : ما جبر ؛ فروى الخلال في كتاب « السنة » ، عن أبي إسحاق الفزاري الإمام ، قال : قال الأوزاعي: أتاني رجلان فسألاني عن القدر ، فأحببت أن آتيك بها تسمع كلامهما وتجيبها . قلت : رحمك الله ، أنت أولى بالجواب . قال : فأتاني الأوزاعي ومعه الرجلان ، فقال : تكلما ، فقالا : قدم علينا ناس من أهل القدر فنازعونا في القدر، ونازعناهم حتى بلغ بنا وبهم الجواب إلى أن قلنا : إن الله قد جبرنا على ما نهانا عنه ، وحال بيننا وبين ما أمرنا به ، ورزقنا ماحرم علينا . قال : أجبها يا أبا إسحاق . قلت : رحمك الله ، أنت أولى بالجواب ؛ فقال: أجبها ؛ فكرهت أن أخالفه؛ فقلت : يا هؤلاء إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثاً ، وإني أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا إليه ؛ فقال : أجبت وأحسنت يا أبا إسحاق .

وروى أيضاً عن بقية بن الوليد قال : سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر ؛ فقال الزبيدي : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ، ولكن يقضي ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب . وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة ؛ فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر ، والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ ؛ وإنما وضعت هذا مخافة أن يرتاب رجل من أهل الجماعة والتصديق .

وروي عن أبي بكر المروزي قال : قلت لأبي عبد الله : نقول: إن الله أجبر العباد ؟ فقال : هكذا لانقول ، وأنكر هذا ، وقال : يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .

وقال المروزي : كتب إلي عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف العكبري ، وقال : إنه تنزه عن ميراث أبيه ، فقال رجل قدري : إن الله لم يجبر العباد على المعاصي ؛ فرد عليه أحمد بن رجاء فقال : إن الله جبر العباد — وأراد بذلك إثبات القدر — فوضع

أحمد بن علي كتاباً يحتج فيه ، فأدخلته على أبي عبدالله وأخبرته بالقصة قال : ويضع كتاباً ؟! وأنكر عليهما جميعاً : على ابن رجاء حين قال . جبر العباد ، وعلى القدري الذي قال : لم يجبر ، وأنكر على أحمد بن علي وضعه الكتاب واحتجاجه ، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب ، وقال لي : يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال : جبر العباد . فقلت لأبي عبد الله : فما الجواب في هذه المسألة ؟ فقال : يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء .

قال الخلال : وأخبرنا المروزي في هذه المسألة أنه سمع أبا عبد الله لما أنكر على الذي قال : لم يجبر ، وعلى من رد عليه ؛ فقال أبو عبد الله : كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا في جوابها . وقال : يستغفر ربه الذي رد عليهم بمحدثة ، وأنكر على من رد شيئاً من جنس الكلام إذا لم يكن له فيه إمام تقدم .

قال المروزي : فما كان بأسرع من أن قدم احمد بن علي من عكبرا ومعه نسخة كتاب من أهل عكبرا ؛ فأدخلت احمد بن علي على أبي عبد الله ؛ فقال : يا أبا عبد الله ! هذا الكتاب ادفعه إلى أبي بكر حتى يقطعه ، وأنا أقوم على منبر عكبرا وأستغفر الله ؛ فقال أبو عبد الله لي : ينبغي أن تقبلوا منه وارجعوا إليه .

قال المروزي : سمعت بعض المشيخة يقول : سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : أنكر سفيان الثوري جبر ، وقال : الله تعالى جبل العباد . قال المروزي : أظنه أراد قول النبي ﷺ لأشج عبد القيس [1] .

قلت : هذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع ، وإنما المقصود التنبيه على أن السلف

---

(١) حديث الأشج وقوله صلى الله عليه وسلم له « إن فيك خصلتين يحبها الله ورسوله الحلم والأناة » مخرج في الصحيح والسنن ، وما عناه المروزي من حديث الأشج وهو « بل الله جبلك عليها » أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٢/٤٢ ، ٤٥ وسنده حسن وانظر «المجمع» ٩/٣٨٧ ، ٣٩٠ وابن ماجة رقم ٤١٨٧ .

كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فيما يثبتونه وينفونه في الله من صفاته وأفعاله ، ولا يأتون بلفظ محدث مبتدع في النفي والاثبات ، بل كل معنى صحيح فإنه داخل فيما أخبر به الرسول ﷺ . والألفاظ المبتدعة ليس لها ضابط ، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده اولئك : كلفظ الجسم ، والجهة ، والحيز ، والجبر ، ونحو ذلك ، بخلاف ألفاظ الرسول فإن مراده بها يُعلم كما يُعلم مراده بسائر ألفاظه ، ولو لم يعلم الرجل مراده لوجب عليه الإيمان بما قاله مجملًا ، ولو قدر معنى صحيح – والرسول ﷺ لم يخبر به – لم يحل لأحد أن يدخله في دين المسلمين ، بخلاف ما أخبر به الرسول ﷺ فإن التصديق به واجب .

والأقوال المبتدعة تضمنت تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة . ولما انتشر الكلام المحدث ، ودخل فيه ما يناقض الكتاب والسنة ، وصاروا يعارضون به الكتاب والسنة ؛ صار بيان مرادهم بتلك الألفاظ وما احتجوا به لذلك من لغة وعقل يبين للمؤمن ما يمنعه أن يقع في البدعة والضلال ، أو يخلص منها إن كان قد وقع ، ويدفع عن نفسه في الباطن والظاهر ما يعارض إيمانه بالرسول ﷺ من ذلك . وهذا مبسوط في موضعه .

والمقصود هنا أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يُدفع بالألفاظ المجملة كلفظ التجسيم وغيره مما قد يتضمن معنى باطلًا ، والنافي له ينفي الحق والباطل . فإذا ذكرت المعاني الباطلة نفرت القلوب . وإذا ألزموه ما يلزمونه من التجسيم – الذي يدعونه نفر إذا قالوا له : هذا يستلزم التجسيم ؛ لأن هذا لا يعقل إلا في جسم – لم يُحسن نقض ما قالوه ، ولم يُحسن حله ، وكلهم متناقضون .

وحقيقة كلامهم أن ما وصف به الرب نفسه لا يعقل منه إلا ما يعقل في قليل من المخلوقات التي نشهدها كأبدان بني آدم ، وهذا في غاية الجهل ؛ فان من المخلوقات مخلوقات

لم نشهدها كالملائكة والجن حتى أرواحنا . ولا يلزم أن يكون ما أخبر بـه الرسول ﷺ مماثلًا لها ، فكيف يكون مماثلًا لما شاهدوه ؟!

وهذا الكلام في لفظ الجسم من حيث اللغة .

وأما الشرع فمعلوم أنه لم ينقل عن أحد من الأنبياء ولا الصحابة ولا التابعين ولاسلف الأمة أن الله جسم ، أو أن الله ليس بجسم ، بل النفي والإثبات بدعة في الشرع . وأمامن جهة العقل فبينهم نزاع فيما اتفقوا على تسميته جسما : كالسماء ، والأرض ، والريح ،والماء، ونحو ذلك مما يشار إليه ويختص بجهة وهو متحيز . وقد تنازعوا هل هو مركب منجواهر لا تقبل القسمة ، أو من مادة وصورة ، أو لا من هذا ولا من هذا ؟ وأكثر العقلاء على القول الثالث . وكل من القولين الأولين قاله طائفة من الناس ، والأول كثير في أهل الكلام ، والثاني كثير في الفلاسفة ، لكن قول الطائفتين باطل ، معلوم بالعقل بطلانه عند اهل القول الثالث .

وإذا كان كذلك ؛ فإذا قال القائل : أنا أقول : إنه فوق العرش ، وإنه ترفع الأيدي إليه ونحو ذلك ؛ وليس كل ما كان كذلك كان مركباً من أجزاء مفردة ولا من المادة والصورة العقليين ؛ كان الكلام مع هذا في التلازم . فإذا قال الثاني : بل كل ما كان فوق غيره ، وكل ما كان يشار إليه بالايدي ؛ فلا يكون إلا مركباً إما من هذا وإما من هذا كان هذا بمنزلة قول الآخر : كل ما كان حياً قادراً عالماً ، فلا يكون إلا مركباً هذا التركيب ، أو كل ما كان له حياة وعلم وقدرة ، فلا يكون إلا مركباً هذاالتركيب ، أو كل ما كان سميعاً بصيراً متكلماً ؛ فلا يكون إلا مركباً هذا التركيب ، بناء على أن كل موجود قائم بنفسه هو جسم ، وكل جسم فهو مركب هذا التركيب .

ومعلوم ان هذا باطل عند جماهير العلماء والعقلاء باتفاقهم ؛ فإني لا أعلم طائفة من العقلاء المعتبرين انهم قالوا : هو جسم ، وهو مركب هذاالتركيب ، بل الذي اعرف انهم

قالوا : هو جسم كالهشامية والكرامية لا يفسرون كلهم الجسم بما هو مركب هذا التركيب، بل إنما نقل هذا عن بعضهم ، وقد ينقل عن بعضهم مقالات ينكرها بعضهم : كما نقل عن مقاتل بن سليمان ، وهشام بن الحكم مقالات رديئة . ومن الناس من رد هذا النقل عن مقاتل ابن سليمان ، فرده كثير من الناس ، واما النقل عن هشام ، فرده كثير من اتباعه .

ومن قدر انه قال ذلك من الناس ؛ فقوله باطل كسائر من قال على الله الباطل ، كما حكي عن بعض اليهود والمجسمة ، وأنهم يصفونه بالنقائص التي تعالى الله عنها ، كوصفه أنه أجوف ، وأنه بكى حتى رمد وعادته الملائكة ، وعض أصابعه حتى خرج منها الدم ، وأنه ينزل عشية عرفة على جمل أورق ، وأمثال هذه الأقوال التي فيها الافتراء على الله تعالى ووصفه بالنقائص ما يعلم بطلانه بصريح المعقول وصحيح المنقول .

وهكذا إذا قال القائل : إنه لو نزل إلى سماء الدنيا ؛ للزم الحركة ، والانتقال، والحركة والانتقال من خصائص الأجسام ، أو قال : للزم أن يخلو منه العرش ، وذلك محال ، فإن للناس في هذا ثلاثة أقوال :

أحدها : قول من يقول : ينزل وليس بجسم .

وقول من يقول : ينزل وهو جسم .

وقول من لا ينفي الجسم ولا يثبته ؛ إما إمساكاً عنها لكون ذلك بدعة وتلبيساً كما تقدم ، واما مع تفصيل المراد . واقرار الحق وبطلان الباطل وبيان الصواب من المعاني العقلية التي اشتبهت في هذا ؛ مثل أن يقال : النزول والصعود والمجيء والاتيان ، ونحو ذلك مما هو أنواع جنس الحركة لا نسلم أنه مخصوص بالجسم الصناعي الذي يتكلم المتكلمون في إثباته ونفيه ، بل يوصف به ماهو أعم من ذلك . ثم هنا طريقان :

أحدهما : أن هذه الأمور توصف بها الأجسام والأعراض، فيقال : جاء البرد ، وجاء الحر ، وجاءت الحمى ، ونحو ذلك من الأعراض . وإذا كانت الأعراض توصف بالمجيء

والاتيان ؛ علم أن ذلك ليس من خصائص الأجسام ، فيجوز أن يوصف بهذه الأفعال حقيقة مع أنه ليس بجسم ، وهذه طريقة الأشعري ومن تبعه من نظار أهل الحديث وأتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، كالقاضي أبي يعلى وغيره . وهذا معنى ما حكاه في « المقالات » عن أهل السنة والحديث . ولهذا كان قول ابن كلاب والأشعري والقلانسي ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم من أصحاب أحمد وغيرهم: إن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش. وكذلك يقولون في النزول ، ومعنى ذلك أنه يحدث في العرش قربا ، فيصير مستويا عليه من غير أن يقوم به نفسه فعل اختياري ، سواء قالوا : إن الفعل هو المفعول ، أو لم يقولوا بذلك، وكذلك النزول عندهم ؛ فهم يجعلون الأفعال اللازمة بمنزلة الأفعال المتعدية ، وذلك لأنهم اعتقدوا أنه لا يقوم به فعل اختياري، لأن ذلك حادث ؛ فقيامه به يستلزم أن تقوم به الحوادث ، فنفوا ذلك لهذا الأصل الذي اعتقدوه .

الطريق الثاني : أن يقال : المجيء والاتيان والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التي تفارقه بالموت ، وتسمى النفس ، وتوصف به الملائكة ، وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول البدن وصعوده ؛ فان روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات، ثم تهبط الى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره . وهذا زمن يسير لا يصعد البدن إلى ما فوق السماوات ثم ينزل الى الأرض في مثل هذا الزمان. وكذلك صعودها ثم عودها إلى البدن في النوم واليقظة ، ولهذا يشبه بعض الناس نزولها إلى القبر بالشعاع ، لكن ليس هذا مثالا مطابقاً ، فإن نفس الشمس لا تنزل ، والشعاع الذي يظهـــر على الأرض هو عرض من الأعراض يحدث بسبب الشمس ، ليس هو الشمس ولا صفة قائمة بها . والروح نفسها تصعد وتنزل ؛ ففي الحديث المشهور حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قبض الروح وفتنة القبر وقد رواه الإمام أحمد وغيره ، ورواه أبو داود أيضاً ، واختصره وكذلك النسائي ، وابن ماجة ، ورواه أبو عوانة في « صحيحه » بطوله ، وفي روايته عن زاذان : سمعت البراء

وذلك يبطل قول من قال : إنه لم يسمعه منه ، ورواه الحاكم في « صحيحه [1] » من حديث أبي معاوية ، قال : حدثنا الأعمش ، ثنا المنهال بن عمرو ، عن أبي عمرو زاذان ، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ، — قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، وذكر الحديث بطوله ، ورواه الحاكم أيضاً من حديث محمد بن الفضل ، قال : حدثنا الأعمش ، فذكره . وقال في آخره : حدثنا فضيل ، حدثني أبي ، عن أبي حازم ، عن ابي هريرة بهذا الحديث ، إلا انه قال : « ارقد رقدة كرقدة من لا يوقظه إلا احب الناس إليه » . قال : وقد رواه شعبة ، وزائدة ، وغيرهما ، عن الأعمش ، ورواه مؤمل ، عن الثوري عنه ، قال : وهو على شرطهما قد احتجا بالمنهال بن عمرو . قال : وقد روى ابن جرير عن شعبة ، عن ابي اسحق ، عن البراء ، قال : « ذكر النبي ﷺ المؤمن والكافر » ، ثم ذكر طرفاً من حديث القبر ، وقد رواه الإمام احمد في « مسنده » عن عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يونس بن خباب ، عن المنهال بن عمرو ، الحديث بطوله . قال : وكذلك ابو خالد الدالاني ، وعمرو بن قيس الملائي ، والحسن بن عبيد الله النخعي ، عن المنهال ، ورواه شعيب بن صفوان ، عن يونس بن خباب ، فقال : عن المنهال ، عن زاذان ، عن ابي البختري قال : سمعت البراء قال : وهذا وهم من شعيب ، فقد رواه معمر ومهدي بن ميمون وعباد ابن عباد عن يونس التامر .

وقال الحافظ ابو نعيم الاصبهاني : واما حديث البراء رواه المنهال بن عمرو ، عن زاذان عن البراء ؛ فحديث مشهور رواه عن المنهال الجم الغفير ، ورواه عن البراء عدي بن ثابت ، ومحمد بن عقبة ، وغيرهما ، ورواه عن زاذان عطاء بن السائب قال : وهو حديث اجمع رواة الأثر على شهرته واستفاضته ، وقال الحافظ ابو عبد الله بن منده : هذا الحديث إسناده متصل مشهور رواه جماعة عن البراء .

---

(١) هذا تساهل في التعبير ، والصواب أن يقال في « مستدركه » .

وقال الإمام احمد في « المسند[1] »حدثناابو معاوية ، ثنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ، قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحَدْ ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر ،مرتين او ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل عليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ،معهم كفن من اكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : ايتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ في السقاء ؛ فيأخذها . فإذا اخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض ، فيصعدون بها ؛ فلا يمرون ،يعني بها ، على ملأ من الملائكة بين الأرض والسماء إلا قالوا : ماهذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، واعيدوه إلى الأرض ؛ فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟فيقول : ربي الله ،فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان :وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ؛ فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال :

---

(١) ٤/٢٨٧ ، ٢٨٨ واسناده صحيح .

فيأتيه من رَوْحِها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدَّ بصره . قال : فيأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب ، طيب الريح ؛ فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل عليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرَّقُ في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت في وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا ؛ فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : (لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبوابُ السَّماءِ ، ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ) [الأعراف – ٣٩] فيقول الله : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحِيقٍ) [الحج – ٣٢] . فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان : ماهذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ؛ فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد فيه ، فيقول : من أنت فوجهك وجه الذي يجيء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لاتقم الساعة » .

قلت : هذا قد رواه عن البراء بن عازب غير واحد غير زاذان،منهم : عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة ، ومجاهد .

قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده في كتاب « الروح والنفس » : حدثنا محمد بن يعقوب بن يوسف ، ثنا محمد بن إسحاق الصَّغاني ، ثنا أبو النضر هاشم بن قاسم ، ثنا عيسى بن المسيب ، عن عدي بن ثابت ، عن البراء بن عازب ، قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحد ، فجلس وجلسنا حوله كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رؤوسنا الطير،فأرَمَّ قليلًا - والإرمام : السكوت- فلما رفع رأسه قال : إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت ؛ نزلت عليه ملائكة من السماء ، معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة ، فيجلسون منه مد بصره . وجاءه ملك الموت فجلس عند رأسه ، ثم يقول : اخرجي أيتها النفس الطيِّبة ، اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه ؛ فتسيل نفسه كما تقطر القطرة من السقاء ، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض إلا الثقلين ، ثم يصعد به إلى السماء ، فتفتح له السماء ، ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربوا كل سماء ، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ، فيقول الرب عز وجل : ردوا عبدي إلى مضجعه ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فيرد إلى مضجعه ، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ، ويفحصان الأرض بأشعارهما، فيجلسانه ثم يقال له : يا هذا من ربك ؟ فيقول : الله ربي ، فيقولان : صدقت. ثم يقال له : مادينك ؟ فيقول : الإسلام، فيقولان له : صدقت . ثم يقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد رسول الله ؛ فيقولان : صدقت . ثم يفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له : جزاك الله خيراً ، فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله ، فيقول: وأنت جزاك الله خيراً فمن أنت ؟ فقال : أنا عملك الصالح . ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى

مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة . وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة وحضره ملك الموت ، نزل عليه من السماء ملائكة معهم كفن من نار ، وحنوط من نار . قال : فيجلسون منه مد بصره ، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ، ثم قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى غضب الله وسخطه ؛ فتفرّقُ روحه في جسده كراهة أن تخرج لما ترى وتعاين ، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول، فإذا خرجت نفسه، لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء الدنيا فتغلق دونه ، فيقول الرب تبارك وتعالى : ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ؛ فترد روحه إلى مضجعه ؛ فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ، ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ؛ فيجلسانه ، ثم يقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري ؛ فينادي من جانب القبر : لا دريت ، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تُقل ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول : جزاك الله شراً ؛ فوالله ما علمت ان كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً في معصية الله ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث . ثم يفتح له باب إلى النار ، فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » .

وقال ابن منده : رواه الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمود بن غيلان ، وغيرهما عن ابي النضر .

ومن ذلك حديث ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة . وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» وغيره ، وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : هذا حديث متفق على عدالة ناقليه ، اتفق الإمامان محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج على ابن أبي ذئب ، ومحمد بن عمرو بن عطاء ، وسعيد بن يسار ، وهم من شرطهما ، ورواه

المتقدمون الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك ، وعنه دحيم بن إبراهيم .

قلت : وقد رواه عن ابن أبي ذئب غير واحد ، ولكن هذا سياق حديث ابن أبي فديك لتقدمه ؛ قال ابن أبي فديك : حدثني محمد بن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو ، عن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت تحضره الملائكة ؛ فإذا كان الرجل الصالح فيقولون : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان ، قال : فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء الدنيا فيستفتح لها فيقال : من هذا؟ فيقولون: فلان ، فيقولون مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، أدخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال : أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقولون : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لن تفتح لك أبواب السماء ؛ فترسل بين السماء والأرض ، فتصير إلى قبره . فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشغوف ، ثم يقال : ما كنت تقول في الإسلام ؟ فيقول : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فآمنا فصدقنا » . وذكر تمام الحديث .

والمقصود أن في حديث أبي هريرة قوله : « فيصير إلى قبره » كما في حديث البراء بن عازب ، وحديث أبي هريرة روي من طرق تصدق حديث البراء بن عازب ، وفي بعض طرقه سياق حديث البراء بطوله ، كما ذكره الحاكم ، مع أن سائر الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن ؛ إذ المسألة للبدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور ، وكذلك السؤال للروح بلا بدن قاله ابن ميسرة وابن حزم . ولو كان

كذلك لم يكن للقبر بالروح اختصاص . وزعم ابن حزم أن العود لم يروه إلا زاذان عن البراء وضعفه ، وليس الأمر كما قاله ،بل رواه غير زاذان عن البراء ، وروي عن غير البراء مثل عدي بن ثابت وغيره. وقد جمع الدارقطني طرقه في مصنف مفرد مع أن زاذان من الثقات، روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره ، وروى له مسلم في « صحيحه » وغيره ؛ قال يحيى ابن معين : هو ثقة ، وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه فقال : هو ثقة لا يسأل عن مثل هؤلاء ، وقال ابن عدي : أحاديثه لا بأس بها إذا روى عنه ثقه، وكان يتبع الكرابيسي ، وإنما رماه من رماه بكثرة كلامه .

وأما المنهال بن عمرو ،فمن رجال البخاري،وحديث عود الروح قد رواه عن غير البراء أيضاً ، وحديث زاذان مما اتفق السلف والخلف على روايته وتلقيه بالقبول .

وأرواح المؤمنين في الجنة ، وإن كانت مع ذلك قد تعاد إلى البدن ، كما أنها تكون في البدن ويعرج بها إلى السماء كما في حال النوم . أما كونها في الجنة ففيه أحاديث عامة ، وقد نص على ذلك أحمد وغيره من العلماء ، واحتجوا بالأحاديث المأثورة العامة ، وأحاديث خاصة في النوم وغيره . فالأول مثل حديث الزهري المشهور الذي رواه مالك عن الزهري في « موطأه » وشعيب بن أبي حمزة وغيرهما، وقد رواه الامام أحمد في« المسند » وغيره .

قال الزهري : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن كعب بن مالك الأنصاري – وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم – كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده » ؛ فأخبر أنه يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسده ، يعني في النشأة الآخرة . قال أبو عبد الله بن منده : ورواه يونس ، والزبيدي ، والأوزاعي ، وابن إسحاق .

وقال عمرو بن دينار ، وابن أخي الزهري ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب ،

عن أبيه قال . . . ، وقال صالح بن كيسان ، وابن أخي الزهري ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب ، أنه بلغه أن كعباً قال . . . رواه الامام أحمد، والنسائي ، وابن ماجة ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

قلت : وفي الحديث المشهور حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، رواه أبو حاتم في « صحيحه » ، وقد رواه أيضاً الأئمة . قال : « إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة على رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه . فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخل ، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخل ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ماقِبَلي مدخل، ثم يؤتى من قِبَل رجليه ،فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان إلى الناس : ما قِبَلي مدخل ؛ فيقال : اجلس ، فيجلس قد مُثِّلت له الشمس وقد دنت للغروب فيقال له:ما هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ؟فيقول: دعوني حتى أصلي ؛ فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه . فقال : عم تسألوني ؟ فيقولون : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، ماتشهد عليه به ؟ فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ؛ فيقال : على ذلك حييتَ ، وعلى ذلك تُبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة فيقال له: ذلك مقعدك منها وماأعد الله لك فيها ؛ فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : ذلك مقعدك منها وماأعدا الله لك فيها لو عصيت ربك ،فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه ،ويعاد جسده كما بدىء ، وتجعل نسمته في نسيم الطيب ،وهي طير تعلق في شجر الجنة» . وفي لفظ: «وهو في طير يعلق في شجر الجنة» ، قال أبو هريرة: قال الله تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [إبراهيم – ٢٧] وفي لفظ : « ثم يعاد الجسد إلى ما بدىء منه ».وهذه الاعادة هي المذكورة في قوله تعالى:

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) [طه - ٥٥] ليست هي النشأة الثانية . رواه الحاكم في « صحيحه » عن معمر ، عن قتادة ، عن قسامة ابن زهير ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن المؤمن إذا احتضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان ؛ فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنهم ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض !! وكلما أتوا سماءً قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلهم أفرحُ به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه ، فيسألونه[1] : ما فعل فلان ؟ قال : فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال لهم : ما أتاكم ؟!! فإنه قد مات ؛ يقولون : ذُهِبَ به إلى أمه الهاوية . وأما الكافر فإن ملائكة العذاب تأتيه ، فتقول : اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وسخطه ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فينطلقون به إلى باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح !! كلما أتوا على أرض قالوا ذلك ، حتى يأتوا به أرواح الكفار[2] » . قال الحاكم : تابعه هشام

---

(١) أي: يسأل المؤمنون المؤمن القادم عليهم عن رجل من أهل الدنيا يعرفونه فيخبرهم أنه قد مات ؛ فيعلمون أنه ذُهِبَ به إلى جهنم لأنه لم يأتهم .

(٢) وهو في « الترغيب والترهيب » ، باب ما يجري بين الميت في القبر وبين منكر ونكير في القول ، بلفظ مخالف قليلاً وهو :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : أخرجي إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً ، فيشمونه حتى يأتوا به باب السماء ؛ فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض ؟! ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح في غم الدنيا ، فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية . وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون : أخرجي إلى غضب الله ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فيذهب به إلى باب الأرض » .

قال المنذري : رواه ابن حبان في « صحيحه »، وهو عند ابن ماجة بنحوه بإسناد صحيح .

الدستوائي ، عن قتادة، وقال همام بن يحيى، عن قتادة ، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

والكل صحيح ، وشاهدها حديث البراء بن عازب ، وكذلك رواه الحافظ أبو نعيم من حديث القاسم بن الفضل الحذائي ، كما رواه معمر . قال : ورواه أبو موسى وبندار ، عن معاذ بن هشام ، عن أبيه ، عن قتادة ، مثله مرفوعاً . ومن أصحاب قتادة من رواه موقوفاً ، ورواه همام عن قتادة ، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، مرفوعاً نحوه . وقد روى هذا الحديث النسائي ، والبزار في « مسنده » وأبو حاتم في « صحيحه » .

وقد روى مسلم في « صحيحه »[1] عن أبي هريرة قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فصعدا بها، فذكر من طيب ريحها وذكر المسك . قال : فيقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق بها إلى ربه ثم يقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه ، وذكر من نتنها وذكر لعناً ، فيقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة : فرد رسول الله ﷺ ريطة[2] كانت عليه على أنفه هكذا » .

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند النوم : « باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لهـــا ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ

---

(١) ٤/٢٢٠٢ .

(٢) قال النووي : الريطة بفتح الراء وإسكان الياء ، وهو ثوب رقيق ، وقيل هي الملاءة ، وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن روح الكافر .

به عبادك الصالحين[1] »وفي الصحيح أيضاً أنه كان يقول : « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها،فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين [2] » .

ففي هذه الأحاديث من صعود الروح إلى السماء ، وعودها إلى البدن مابين أن صعودها نوع آخر ليس مثل صعود البدن ونزوله .

وروينا عن الحافظ أبي عبد الله محمد بن منده في كتاب « الروح والنفس » ، حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، ثنا عبد الله بن الحسن الحراني ، ثنا أحمد بن شعيب ، ثنا موسى بن أيمن ، عن مطرف ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنها في تفسير هذه الآية : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) [الزمر – ٤٢] قال : تلتقي أرواحُ الأحياء في المنام بأرواح الموتى ، ويتساءلون بينهم ؛ فيمسك الله أرواح الموتى ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وروى الحافظ أبو محمد بن أبي حاتم في « تفسيره » ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، ثنا الحسن ، ثنا عامر ، عن الفرات ، ثنا أسباط عن السدي (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) قال : يتوفاها في منامها.قال : فتلتقي روح الحي وروح الميت ، فيتذاكران ويتعارضان. قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجله في الدنيا ، قال : وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

---

(١) هو في البخاري ١١/١٠٧، ١٠٨ ماعدا« فاغفر لها » . ولفظ مسلم ٤/٢٠٨٤، ٢٠٨٥: « سبحانك اللهم ربي بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

(٢) هو في مسلم ٤/٢٠٨٣ باب ما يقول عند النوم بلفظ:« اللهم خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أمتها فاغفر لها ، اللهم إني أسألك العافية » .

وهذا أحـــد القولين وهو أن قوله : (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ) [الزمر – ٤٢] أريد بها أن من مات قبل ذلك لقي روح الحي .

والقول الثاني – وعليه الأكثرون – أن كُلاً من النفسين : الممسكة والمرسلة توفيتا وفاة النوم ، وأما التي توفيت وفاة الموت ، فتلك قسم ثالث ، وهي التي قدمها بقوله : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) ، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة ؛ فإن الله قـــال : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ؛ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [الزمر – ٤٢] ، فذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها بالنوم ، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا إرسال ، ولا ذكر في الآية التقاء الموتى بالنيام .

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين ، فإن الله ذكر توفيتين : توفي الموت ، وتوفي النوم ، وذكر إمساك المتوفاة ، وإرسال الأخرى ، ومعلوم أنه يمسك كل ميتة سواء ماتت في النوم أو قبل ذلك ، ويرسل من لم تمت . وقوله : (يتوفى الأنفس حين موتها) يتناول ما ماتت في النوم ، فلما ذكر التوفيتين ذكر أنه يمسكها في أحد التوفيتين ويرسلهـــا في الأخرى ، وهذا ظاهر اللفظ ومدلوله بلا تكلف . وما ذكر من التقاء أرواح النيام والموتى لا ينـافي ما في الآية ، وليس في لفظها دلالة عليه ، لكن قوله : (فيمسك التي قضى عليها الموت) يقتضي أنه يمسكها لا يرسلها كما يرسل النائمة ، سواء توفاها في اليقظة أو في النوم ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « اللهم خلقت نفسي وأنت تتوفاها . لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » فوصفها بأنها في حال توفي النوم إمـــا ممسكة وإما مرسلة .

وقال ابن أبي حاتم : ثنا أبي ، ثنا عمر بن عثمان ، ثنا بقية ، ثنا صفوان بن عمرو ، حدثني سليم بن عامر الحضرمي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعلي بن أبي طـالب رضي الله

عنه : أعجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطره على بال ! ؛ فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرى الرجل الشيء ؛ فلا تكون رؤياه شيئاً ؛ فقال علي بن أبي طالب : أفلا أخبرك بذلك ياأمير المؤمنين ؟ إن الله يقول: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ؛ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [الزمر – ٤٢] ؛ فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت – وهي عنده في السماء – فهو الرؤيا الصادقة ، وما رأت – إذا أرسلت إلى أجسادها – تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها، فأخبرتها بالأباطيل وكذبت فيها ؛ فعجب عمر من قوله .

وذكر هذا أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده في كتاب « الروح والنفس » ، وقال: هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ولفظه: قال علي بن أبي طالب : ياأمير المؤمنين! يقول الله تعالى : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [الزمر – ٤٢] ، والأرواح يعرج بها ؛ فما رأت وهي في السماء فهو الحق ، فإذا ردت إلى أجسادها ، تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها ؛ فما رأت من ذلك فهو الباطل .

قال الإمام أبو عبد الله بن منده : وروي عن أبي الدرداء قال : روى ابن لهيعة ، عن عثمان بن نعيم الرعيني ، عن أبي عثمان الأصبحي ، عن أبي الدرداء قال : إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش ، قال : فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود ، وإن كان جنباً ، لم يؤذن لها بالسجود . رواه زيد بن حباب وغيره .

وروى ابن منده حديث علي وعمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ، ثنا محمد بن شعيب، ثنا ابن عياش بن أبي إسماعيل، وأنا الحسن بن علي ، أنا عبدالرحمن ابن محمد ، ثنا قتيبة والرازي ، ثنا محمد بن حميد ، ثنا أبو زهير عبد الرحمن بن مغراء الدَّوْسي ، ثنا الأزهر بن عبد الله الأزدي ، عن محمد بن عجلان ، عن سالم بن عبد الله بن

عمر ، عن أبيه ، قال : لقي عمر بن الخطاب علي بن أبي طالب فقال : [1] يا أبا الحسن ! ربما شهدت وغبنا وربما شهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن ، فهل عندك منهن علم ؟ فقال علي بن أبي طالب : وما هن ؟ قال : الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً ، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً . فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الأرواح جنود مجندة تلتقي في الهواء ، فتشام ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . قال عمر : واحدة قال عمر : والرجل يحدث الحديث إذ نسيه، فبينما هو قد نسيه إذ ذكره . فقال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، فبينما القمر يضيء إذ تجللته سحابة فأظلم ، إذ تجلت عنه فأضاء ؛ وبينما القلب يتحدث إذ تجللته فنسي ، إذ تجلت عنه فذكر » قال عمر : اثنتان . قال : والرجل يرى الرؤيا ، فمنها ما يصدق ، ومنها ما يكذب ، فقال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد ينام فيمتلىء نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش ، فالذي لايستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق ، والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب . فقال عمر : ثلاث كنت في طلبهن ، فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت .

ورواه من وجه ثالث أن ابن عباس سأل عن عمر ، فقال : حدثنا أحمد بن سليمان بن أيوب ، ثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد ، ثنا آدم بن أبي أياس ، ثنا إسماعيل بن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم الخثعمي عن ابن أبي طلحة القرشي أن ابن عباس رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين : أشياء أسألك عنها ؟ قال : سل عما شئت ؛فقال: يا أمير المؤمنين ! مم يذكر الرجل ، ومما ينسى ؟ ومما تصدق الرؤيا ، ومم تكذب ؟ فقال

---

(١) الحديث فيه محمد بن حميد الرازي وهو حافظ لكنه ضعيف، وكان ابن معين حسن الرأي فيه خرج له أبو داود والترمذي وابن ماجة .

له : أما قولك مما يذكر الرجل ومم ينسى ؟ فإن على القلب طخاءة [1] مثل طخاء القمر ، فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم، فإذا تجلت عن القلب ذكر ما كان ينسى ، وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب ؟ فإن الله يقول : (اللهُ يَتَوفَى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِها والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) [الزمر – ٤٢] ، فمن دخل منها في ملكوت السماء ، فهي التي تصدق، وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب .

قلت : وفي هذين الطريقين ذكر أن التي تكذب ما لم يكمل وصولها إلى العلو ، وفي الأول ذكر أن ذلك يكون مما يحصل بعد رجوعها ، وكلا الأمرين ممكن ، فإن الحكم يختلف لفوات شرطه ، أو وجود مانعه عن ذلك ، قال عكرمة ومجاهد : إذا نام الإنسان فإن له سبباً تجري فيه الروح ، وأصله في الجسد ، فتبلغ حيث شاء الله ، فما دام ذاهباً فإن الإنسان نائم ، فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان ، فكان بمنزلة شعاع هو ساقط بالأرض وأصله متصل بالشمس .

قال ابن منده : وأخبرت عن عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، عن علي ابن يزيد السمرقندي – وكان من أهل العلم والأدب وله بصر بالطب والتعبير – قال : إن الأرواح تمتد من منخر الإنسان ، ومراكبها وأصلها في بدن الإنسان ، فلو خرج الروح لمات ، كما أن السراج لو فرقت بينهاوبين الفتيلة لطفئت ، ألاترى أن تركب النار في الفتيلة وضوؤها وشعاعها ملآ البيت ، فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامها حتى تأتي السماء ، وتجول في البلدان ، وتلتقي مع أرواح الموتى ، فإذا رآها الملك الموكل بأرواح العباد أراه ما أحب أن يراه ، فإذا كان المرء في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً ، لايلتفت في اليقظة إلى شيء من الباطل رجع إليه روحه ، فأدى إلى قلبه الصدق بما أراه الله عز وجل على حسب صدقه. وإن كان خفيفاً نزيقاً يحب الباطل والنظر إليه، فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر، رجع

---

(١) وهو ما يغشيه من غيم يغطي نوره .

روحه ، فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو باطلاً وقف عليه كما يقف في يقظته ، وكذلك يؤدى إلى قلبه ، فلا يعقل ما رأى ، لأنه خلط الحق بالباطل ، فلا يمكن معبر يعبر له ، وقد اختلط الحق بالباطل. قال الإمام ابن منده : ومما يشهد لهذا الكلام ماذكرناه عن عمر وعلي وأبي الدرداء رضي الله عنهم .

قلت : وخرج ابن قتيبة في كتاب « تعبير الرؤيا » ، قال : حدثني حسين بن حسن المروزي ، أخبرنا ابن المبارك عبد الله ، ثنا المبارك عن الحسن أنه قال : أنبئت أن العبد إذا نام وهو ساجد يقول الله تبارك وتعالى : « انظروا إلى عبدي ، روحه عندي وجسده في طاعتي » .

وإذا كانت الروح تعرج إلى السماء مع أنها في البدن ، علم أنه ليس عروجها من جنس عروج البدن الذي يمتنع هذا فيه ، وعروج الملائكة ونزولها من جنس عروج الروح ونزولها ، لا من جنس عروج البدن ونزوله ، وصعود الرب عز وجل فوق هذا كله وأجل من هذا كله ، فإنه تعالى أبعد عن مماثلة كل مخلوق ومن مماثلة مخلوق لمخلوق .

وإذا قيل : الصعود والنزول والمجيء والإتيان أنواع جنس الحركة ، قيل : والحركة أيضاً أصناف مختلفة ، فليست حركة الروح كحركة البدن ، ولا حركة الملائكة كحركة البدن ، والحركة يراد بها انتقال البدن والجسم من حيز ، ويراد بها أمور أخرى ، كما يقوله كثير من الطبائعية والفلاسفة ، منها الحركة في الكم كحركة النمو ، والحركة في الكيف كحركة الإنسان من جهل إلى علم ، وحركة اللون أو الثياب من سواد إلى بياض ، والحركة في الأين كالحركة تكون بالأجسام النامية من النبات والحيوان في النمو والزيادة ، أو في الذبول والنقصان ، وليس هناك انتقال جسم من حيز إلى حيز .

ومن قال : إن الجواهر المفردة تنتقل ، فقوله غلط كما هو مبسوط في موضعه . وكذلك الأجسام تنتقل ألوانها وطعومها وروائحها ، فيسود الجسم بعد ابيضاضه ، ويحلو

بعد مرارته بعد أن لم يكن كذلك. وهذه حركات واستحالات وانتقالات وإن لم يكن في ذلك انتقال جسم من حيز إلى حيز ، وكذلك الجسم الدائر في موضع واحد كالدولاب والفلك هو بجملته لايخرج من حيزه ، وإن لم يزل متحركاً . وهذه الحركات كلهـــا في الأجسام ، وأما في الأرواح فالنفس تنتقل من بغض إلى حب ، ومن سخط إلى رضا،ومن كراهة إلى إرادة ، ومن جهل إلى علم ، ويجد الإنسان من حركات نفسه وانتقالاتهـــا وصعودها ونزولها ما يجده ، وذلك من جنس آخر غير جنس حركات بدنه .

وإذا عرف هذا ، فإن للملائكة من ذلك ما يليق بهم ، وإن ما يوصف به الرب تبارك وتعالى هو أكمل وأعلى وأتم من هذا كله ، وحينئذفإذا قال السلف والأئمة كحماد بن زيد، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهما من أئمة أهل السنة : إنه ينزل ولا يخلو منه العرش ، لم يجز أن يقال : إن ذلك ممتنع ،بل إذا كان المخلوق يوصف من ذلك بما يستحيل من مخلوق آخر، فالروح توصف من ذلك بما يستحيل اتصاف البدن به ،كان جواز ذلك في حق الرب تبارك وتعالى أولى من جوازه من المخلوق كأرواح الآدميين والملائكة .

ومن ظن أن ما يوصف به الرب عز وجل لايكون إلا مثل ما توصف به أبدان بني آدم ، فغلطه أعظم منغلط من ظن أن ما توصف به الروح مثل ما توصف به الأبدان .

وأصل هذا أن قربه سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته لايستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ؛ كما قال ذلك من قاله من السلف ، وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال تعالى : (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى

لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم) [النمل – ٧ – ١١] وقال في السورة الأخرى : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله : امكثوا ، إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) [القصص – ٢٨ – ٢٩]،وقال تعالى : (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا ، وكان رسولا نبيا. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) [مريم – ٥٨ – ٥٩] فأخبر أنه ناداه من جانب الطور ، وأنه قربه نجيا ، وقال تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ ناديا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) [القصص – ٤٣ – ٤٦] ، وقال تعالى : (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى) [طه – ١٢ – ١٦] .

وقال ابن أبي حاتم في « تفسيره »:حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عثمان ابن أبي شيبة ، ثنا معاوية بن هشام ، ثنا شريك ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى : (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها) قال : كان ذلك النار ، قال الله : من في النور ونودي أن بورك من في النور .

حدثنا علي بن الحسين ، ثنا محمد بن حمزة ، ثنا علي بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوي ، أن عكرمة حدثني عن ابن عباس (أن بورك من في النار) قال : كان ذلك النار نوره (ومن حولها) أي بورك من في النور ومن حول النور . وكذلك روى باسناده من تفسير عطية عن ابن عباس : (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار) يعني نفسه ، قال : كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها .

ثنا أبي ، ثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، ثنا أبو معاوية ، عن شيبان ، عن عكرمة : (أن بورك من في النار) قال : كان الله في نوره .

حدثنا أبو زرعة ، ثنا ابن أبي شيبة ، ثنا علي بن جعفر المدائني ، عن ورقاء ، عن عطاء ابن السائب ، عن سعيد بن جبير : (أن بورك من في النار) قال : ناداه وهو في النور .

حدثنا علي بن الحسين المنجاني ، ثنا سعيد بن أبي مريم ، ثنا مفضل بن أبي فضالة ، حدثني ابن ضمرة : (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها) ، قال : إن موسى كان على شاطىء الوادي — إلى أن قال — فلما قام أبصر النار فسار إليها ، فلما أتاها (نودي أن بورك من في النار) ، قال : إنها لم تكن ناراً ، ولكن كان نور الله وهو الذي كان في ذلك النور ، وإنما كان ذلك النور منه ، وموسى حوله .

حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، ثنا مكي بن إبراهيم ، ثنا موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب في قوله عز وجل : (أن بورك من في النار ومن حولها) ، قال : النار نور الرحمة ، قال : ضوء من الله تعالى ، ومن حولها موسى والملائكة .

وروى باسناده عن ابن عباس (ومن حولها) قال : الملائكة . قال : وروي عن عكرمة ، والحسين ، وسعيد بن جبير ، وقتادة مثل ذلك . وروي عن السدي وحده (أن بورك من في النار) ، قال : كان في النار ملائكة .

وفي «صحيح مسلم»[1] عن أبي عبيدة ، عن أبي موسى ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لاينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ،وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه » . ثم قرأ أبو عبيدة : (أن بورك من في النار ومن حولها) . وذكر من تفسير الوالبي عن ابن عباس (أن بورك من في النار) ، يقول : قدس ، وعن مجاهد : (أن بورك من في النار) بوركت النار . كذلك كان يقول ابن عباس وفي السورة الأخرى : ذكر أنه ناداه من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وقوله: (من الشجرة) هو بدل من قوله: (من شاطىء الوادي الأيمن) فالشجرة كانت فيه ، وقال أيضاً : (وناديناه من جانب الطور الأيمن — الطور — ١٩) والطور هو الجبل ، فالنداء كان من الجانب الأيمن من الطور ومن الوادي فإن شاطىء الوادي جانبه ، وقال : (وما كنت بجانب الغربي) أي بالجانب الغربي ، وجانب المكان الغربي ؛ فدل على أن هذا الجانب الأيمن هو الغربي لا الشرقي ، فذكر أن النداء كان من موضع معين وهو الوادي المقدس طوى من شاطىء الوادي الأيمن من جانب الطور الأيمن من الشجرة . وذكر أنه قربه نجياً فناداه وناجاه ، وذلك المنادي له والمناجي له هو الله رب العالمين لا غيره ، ونداؤه ومناجاته قائمة به ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه ، كما يقوله من يقول : إن الله لايقوم به كلام ، بل كلامه منفصل عنه مخلوق ، وهو سبحانه وتعالى ناداه وناجاه ذلك الوقت كما دل عليه القرآن لا كما يقوله من يقول : لم يزل منادياً مناجياً له ولكن ذلك الوقت خلق فيه إدراك النداء القديم الذي لم يزل ولا يزال .

فهذان قولان مبتدعان لم يقل واحداً منها أحدٌ من السلف . وإذا كان المنادي هو الله

---

(١) ١٦٢/١ كتاب الايمان — باب ما جاء في رؤية الله عز وجل .

رب العالمين ، وقد ناداه من موضع معين وقربه إليه ، دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى عليه السلام ، مع أن هذا قرب مما دون السماء .

وقد جاء أيضاً من حديث وهب بن منبه وغيره من الاسرائيليات قربه من أيوب عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، ولفظه الذي ساقه البغوي أنه أظله غمام ثم نودي : يا أيوب ! أنا الله يقول : أنا قد دنوت منك ، أنزل منك قريباً . لكن الاسرائيليات إنما تذكر على وجه المتابعة لا على وجه الاعتماد وحدها ، وهو سبحانه وتعالى قد وصف نفسه في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ بقربه من الداعي وقربه من المتقرب إليه ، فقال تبارك وتعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة – ١٨٦] .

وثبت في « الصحيحين » [١] عن أبي موسى ، أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ؛ فقال : « أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . وفي « الصحيحين » [٢] عن النبي ﷺ « يقول الله تعالى : من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه

---

(١) هو في البخاري ١١/١٥٩ في الدعوات باب الدعاء إذا علا عقبة ومسلم ٤/٢٠٧٦ ، ٢٠٧٧ في الذكر باب استحباب خفض الصوت بالذكر ونص رواية البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكنا إذا علونا كبرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً » ثم أتى علي وأنا أقول في نفسي : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ فقال : ياعبد الله بن قيس ! قل: لاحول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة ، أو قال : ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) هو في البخاري ١٣/٣٢٥ ، ٣٢٨ في التوحيد باب قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) ومسلم ٤/٢٠٦١ في الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله تعالى بلفظ :

ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » . وقُربه من العباد بتقربهم إليه مما يُقِرُّبه جميع من يقول : إنه فوق العرش ، سواء قالوا مع ذلك: إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أو لم يقولوا . وأما من ينكر ذلك :

فمنهم من يفسر قرب العباد بكونهم يقاربونه ويشابهونه من بعض الوجوه فيكونون قريبين منه ، وهذا تفسير أبي حامد والمتفلسفة ، فإنهم يقولون : الفلسفة هي التشبه بالإله على حسب الطاقة .

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم ، ويفسر قربه بإثابته ، وهذا تفسير جمهور الجهمية ؛ فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقريب أصلًا.

ومما يدخل في معاني القرب ـ وليس في الطوائف من ينكره ـ قرب المعروف والمعهود إلى قلوب العارفين العابدين ؛ فإن كل من أحب شيئاً فإنه لابد أن يعرفه ويقرب من قلبه، والذي يبغضه يبعد من قلبه. لكن هذا ليس المراد به أن ذاته نفسها تحل في قلوب العارفين العابدين ، وإنما في القلوب معرفته وعبادته ومحبته ، والإيمان به ؛ ولكن العلم يطابق المعلوم . وهذا الإيمان الذي في القلوب هو المثل الأعلى الذي له في السموات والأرض ، وهو معنى قوله تعالى : (وهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إلهٌ وفِي الأرْضِ إلهٌ) [الزخرف – ٨٤] ، وقوله : (وهُوَ اللهُ فِي السَّمَواتِ وفِي الأرْضِ) [الأنعام – ٣] .

وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم ، فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعابد والعارف ، من جنس قول النصارى في المسيح ؛ وهو قول باطل كما قد بسط في

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

موضعه . والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة ، وهو قول الأشعري وغيره من الكلابية ؛ فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته ، وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته ، ونحو ذلك ، ويقولون : الاستواء فعل فعله في العرش ، فصار مستوياً على العرش ، وهذا أيضاً قول ابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم. وأما دنوّه نفسه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر .

وأول من أنكر هذا في الإسلام الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش ، ثم جاء ابن كلاب ، فخالفهم في ذلك ، وأثبت الصفات والعلو على العرش ، لكن وافقهم على أنه لاتقوم به الأمور الاختيارية ، ولهذا أحدث قوله في القرآن: إنه قديم لم يتكلم به بقدرته . ولا يعرف هذا القول عن أحد من السلف ، بل المتواتر عنهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته كما ذكرت ألفاظهم في كتب كثيرة في مواضع غير هذا .

فالذين يثبتون أنه كلم موسى بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً به ؛ هم الذين يقولون: إنه يدنو ويقرب من عباده بنفسه . وأما من قال : القرآن مخلوق أو قديم ؛ فأصل هؤلاء أنه لا يمكن أن يقرب من شيء ولا يدنو إليه . فمن قال منهم بهذا مع هذا ، كان من تناقضه ، فإنه لم يفهم أصل القائلين بأنه قديم . وأهل الكلام قد يعرفون من حقائق أصولهم ولوازمها مالا يعرفه من وافقهم على أصل المقالة ، ولم يعرف حقيقتها ولوازمها ، فلذا يوجد كثير من الناس يتناقض كلامه في هذا الباب ، فإن نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف متظاهرة بالإثبات ، وليس على النفي دليل واحد لا من كتاب ولا من سنة ولا من أثر وإنما أصله قول الجهمية ، فلما جاء ابن كلاب فرّق ، ووافقه كثير من الناس على ذلك ، فصار كثير من الناس يقر

بما جاء عن السلف وما دل عليه الكتاب والسنة وبما يقوله النفاة مما يناقض ذلك ، ولا يهتدي للتناقض ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وبهذا يحصل الجواب عما احتج به من قـــال : إن ثلث الليل يختلف باختلاف البلاد. وهذا قد احتج به طائفة ، وجعلوا هـذا دليلاً على ما يتأولون عليه حديث النزول . وهذا الذي ذكروه إنما يصح إذا جعل نزوله من جنس نزول أجسام الناس من السطح إلى الأرض، وهو يشبه قول من قال : يخلو العرش منه بحيث يصير بعض المخلوقات فوقه وبعضها تحته .

فإذا قدر النزول هكذا كان ممتنعاً ، لما ذكروه من أنه لايزال تحت العرش في غالب الأوقات أو جميعها ، فإن بين طرفي العمارة نحو ليلة ، فإنه يقال : بين ابتداء العمارة من المشرق ومنتهاها من المغرب مقدار مائة وثمانين درجة فلكية ، وكل خمس عشرة درجة فهي ساعة معتدلة ، والساعة المعتدلة هي ساعة من اثنتي عشرة ساعة بالليل أو النهار إذا كان الليل والنهار متساويين – كما يستويان في أول الربيع الذي تسميه العرب الصيف ، وأول الخريف الذي تسميه الربيع - بخلاف ما إذا كان أحدهما أطول من الآخر ، وكل واحد اثنتا عشرة ساعة ؛ فهذه الساعات مختلفة في الطول والقصر فتغرب الشمس عن أهل المشرق قبل غروبها عن أهل المغرب ، كما تطلع على هؤلاء قبل هؤلاء بنحو اثنتي عشرة ساعة أو أكثر ، فإن الشمس على أي موضع كانت مرتفعة من الأرض الارتفاع التام كما يكون عند نصف النهار، فإنها تضيء على ما أمامها وخلفها من المشرق والمغرب تسعين درجة شرقية وتسعين غربية ، والمجموع مقدار حركتها اثنتـا عشرة ساعة ، ستة شرقية وستة غربية ، وهو النهار المعتدل . ولايزال لها هذا النهار لكن يخفى ضوؤها بسبب ميلها إلى جانب الشمال والجنوب ، فإن المعمور من الأرض من الناحية الشمالية من الأرض التي هي شمالي خط الاستواء المحاذي لدائرة معتدل النهار التي نسبتها إلى القطبين الشمالي والجنوبي نسبة واحدة ؛ ولهذا يقال في حركة الفلك: إنها على ذلك المكان دولابية مثل الدولاب ، وإنها عند القطبين

رحاوية تشبه حركة الرحى ، وانها في المعموره من الأرض حمائلية تشبه حمائل السيوف . والمعمورة المسكون من الأرض، يقال : إنه بضع وستون درجة أكثر من السدس بقليل. والكلام على هذا لبسطه موضع آخر ذكرنا فيه دلالة الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وسائر من تبعهم من علماء المسلمين على أن الفلك مستدير . وقد ذكر إجماع علماء المسلمين على ذلك غير واحد، منهم الإمام أبو الحسين بن المنادي الذي له نحو أربعمائة مصنف، وهو من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم.

والمقصود هنا أن الشمس إذا طلعت على أول البلاد الشرقية ، فإنه حينئذ يكون إما وقت غروبها وإما قريباً من وقت غروبها على آخر البلاد الغربية ، فإنهـــا تكون بحيث يكون الضوء أمامها تسعين درجة وخلفها تسعين درجة ، فهذا منتهى نورها . فإذا طلعت عليه كان بينها وبينهم تسعون درجة، وكذلك على بلد تطلع عليه والحاسب يفرق بين الدرجات كما يفرق بين الساعات فإن الساعات المختلفة الزمانية كل واحد منها خمس عشرة درجة بحسب ذلك الزمان ؛ فيكون بينها وبين المغرب أيضاً تسعون درجة من ناحية المغرب وإذا صار بينها وبين مكان تسعون درجة غربية غابت ، كما تطلع إذا كان بينها وبينهم تسعون درجة شرقية ، وإذا توسطت عليهم – وهو وقت استوائها قبل أن تدالك وتزيغ ويدخل وقت الظهر – كان لها تسعون درجة شرقية ، وتسعون درجة غربية .

وإذا كان كذلك – والنزول المذكور في الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق عليه الشيخان : البخاري ومسلم واتفق علماء الحديث على صحته هو : « إذا بقي ثلث الليل الآخر » ، وأما رواية النصف والثلثين ، فانفرد بها مسلم في بعض طرقه ، وقد قال الترمذي : إن أصح الروايات عن أبي هريرة : « إذا بقي ثلث الليل الآخر ». وقد روي عن النبي ﷺ من رواية جماعة كثيرة من الصحابة كما ذكرنا قبل هذا، فهو حديث متواتر عند أهل العلم بالحديث ، والذي لاشك فيه إذا بقي ثلث الليل الآخر –

فإن كان النبي ﷺ قد ذكر النزول أيضاً إذا مضى ثلث الليل الأول وإذا انتصف الليل ، فقوله حق وهو الصادق المصدوق ، ويكون النزول أنواعاً ثلاثة : الأول إذا مضى ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف وهو أبلغ ، ثم إذا بقي ثلث الليل ، وهو أبلغ الأنواع الثلاثة .

ولفظ الليل والنهار في كلام الشارع إذا أطلق ، فالنهار من طلوع الفجر ، كما في قوله سبحانه وتعالى : (أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ) [هود – ١١٥] وكما في قوله ﷺ : « صم يوماً وأفطر يوماً [١] » ، وقوله : « كالذي يصوم النهار ويقوم الليل » ، ونحو ذلك ، فإنما أراد صوم النهار من طلوع الفجر ، وكذلك وقت صلاة الفجر وأول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعامة والاجماع الذي لاريب فيه بين الأمة ، وكذلك في مثل قوله ﷺ : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفتَ الصبح فأوتر بركعة[٢] » . ولهذا قال العلماء كالإمام أحمد بن حنبل وغيره: إن صلاة الفجر من صلاة النهار.

وأما من قال إذا قال الشارع ﷺ : نصف النهار فإنما يعني به النهار المبتدىء من طلوع الشمس ؛ لايريد قط – لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار –

---

(١) هو جزء من حديث طويل في البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص في صوم يوم وإفطار يوم .

(٢) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر، وزاد فيه « فإن الله وتر يحب الوتر » ، وأخرجه البخاري في « صحيحه » عن ابن عمر أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الليل فقال رسول الله عليه السلام . «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى » .

وأورده مسلم بعدة روايات تتفق إحداها مع ما أخرجه الطبراني دون الزيادة، وتتفق الأخرى مع لفظ البخاري ؛ وثالثه بزيادة : قيل لابن عمر : « ما مثنى مثنى ؟ قال : يسلم في كل ركعتين » . وزاد الإمام أحمد في رواية : « صلاة الليل مثنى مثنى ، تسلم في كل ركعتين » .

وقد رواه أيضاً أصحاب السنن .

النهار الذي أوله من طلوع الفجر ، فان نصف هذا يكون قبل الزوال ، ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء – لما رأى كلام العلماء أن الصائم المتطوع يجوز له أن ينوي التطوع قبل نصف النهار وهل يجوز له بعده ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد – ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر ، وسبب غلطه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار إذا أطلق ، وبين مسمى نصف النهار ، فالنهار الذي يضاف إليه نصف في كلام الشارع وعلماء أمته هو من طلوع الشمس ، والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر .

والنبي ﷺ لما أخبر بالنزول إذا بقي ثلث الليل فهذا الليل – المضاف إليه الثلث يظهر أنه من جنس النهار المضاف إليه النصف – وهو الذي ينتهي إلى طلوع الشمس ، وكذلك لما قال النبي ﷺ : « وقت العشاء إلى نصف الليل أو إلى الثلث » ؛ فهو هذا الليل ، وكذلك الفقهاء إذا أطلقوا ثلث الليل ونصفه ، فهو كاطلاقهم نصف النهار ، وهكذا أهل الحساب لا يعرفون غير هذا .

وقد يقال : بل هو الليل المنتهي بطلوع الفجر كما في الحديث الصحيح : « أفضل القيام قيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه وينام سدسه [1] » ، واليوم المعتاد المشروع إلى طلوع الشمس بل إلى طلوع الفجر ، فان كان المراد بالحديث هذا – وحينئذ فاذا قدر ثلث الليل في أول المشرق يكون قبل طلوع الشمس عليهم بأربع ساعات ، وقد قال النبي ﷺ : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر » – فقد أخبر

---

(١) هو في البخاري باب من نام عند السحر ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً » .

بدوامه إلى طلوع الفجر ، وفي رواية : « إلى أن ينصرف القارىء من صلاة الفجر » . وقد قال تعالى : (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء - ٧٨] تشهده ملائكة الليل والنهار ، وقد قيل : يشهده الله وملائكته . وإذا كان هذا النزول يدوم نحو سدس عند أولئك ؛ فهكذا هو عند كل قوم إذا مضى ثلث ليلهم يدوم عندهم سدس الزمان وأما النزول الذي في النصف أو الثلثين ، فإنه يدوم ربع الزمان أو ثلثه ، فهو أكثر دواماً من ذلك ، وإن أريد الليل المنتهي بطلوع الشمس ؛ كان وقت النزول أقل من ذلك فيكون قريباً من ثمن الزمان وتُسعه ، وعلى رواية النصف والثلث يكون قريباً من سدسه وربعه وأكثر من ذلك .

ومعلوم أن زمن ثلث ليل البلد الشرقي قبل ثلث ليل البلد الغربي كما قد عرف ، والعمارة طولها اثنتا عشرة ساعة مائة وثمانون درجة ، فلو قدر أن لكل مقدار ساعة - وهو خمس عشرة درجة من المعمور - ثلثا غير ثلث مقدار الساعة الأخرى ؛ لكان المعمور ستة وثلاثين ثلثا ، والنزول يدوم في كل ثلث مقدار سدس الزمان ، فيلزم أن يكون النزول يدوم ليلًا ونهاراً ، أنه يدوم بقدر الليل والنهار ست مرات ، إذا قدر أن لكل طول ساعة من المعمور ثلثا ، فكيف النزول الإلهي إلى السماء الدنيا لدعاء عباده الساكنين في الأرض ؟ فكل أهل بلد من البلاد يبقى نزوله ودعاؤه لهم : هل من سائل ؟ هل من داع ؟ هل من مستغفر ؟ سدس الزمان ، والبلاد من المشرق إلى المغرب كثيرة والاسلام ولله الحمد قد انتشر من المشرق إلى المغرب ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي منها لي »[1] .

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» ، كتاب الفتن وأشراط الساعة بروايتين عن ثوبان أطولها : عن ثوبان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني —

وإنما ذكرنا هذا لأنه قد يقال : إن هذا النزول والدعاء إنما هو لعباده المؤمنين الذين يعبدونه ويسألونه ويستغفرونه كما أن نزول عشية عرفة إنما هو لعباده الذين يحجون إليه ، وكما أن رمضان إذا دخل فتحت أبواب الجنة لعباده المؤمنين الذين يصومون رمضان ، وعنهم تغلق أبواب النار ،وتصفد شياطينهم ،وأما الكفار الذين يستحلون إفطار شهر رمضان ولايرون له حرمة ومزية ، فلا تفتح لهم فيه أبواب الجنة ، ولاتغلق عنهم فيه أبواب النار ، ولا تصفد شياطينهم .

وليس المقصود هنا بسط هذا المعنى ، بل المقصود أن النزول إن كان خاصاً بالمؤمنين ، فهو ولله الحمد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وإن كان عاماً ، فهو أبلغ ، فعلى كل تقدير لابد أن يدوم النزول الالهي على أهل كل بلد مقدار سدس الزمان أو أكثر . فانه إذا قيل : ليل صيفهم قصير ؛ قيل : وليل شتائهم طويل ؛ فيعادل هذا هذا ، وما نقص من ليل صيفهم زيد في ليل شتائهم ، ولهذا جاء في الأثر « الشتاء ربيع المؤمن : يصوم نهاره ويقوم ليله [1] » وإذا كان كذلك – فلو كان النزول كما يتخيله بعض الجهال من أنه يصير تحت السماوات وفوق السماء الدنيا وتحت العرش مقدار ثلث الليل على كل بلد – لم يكن اللازم أنه لايزال تحت العرش وتحت السماوات فقط ، فإن هذا إنما يكون وحده هو اللازم إذا كان كل سدس من المعمور لهم كلهم ثلث واحد ، فكان المجموع ستة أثلاث ، فإذا قدر بقاؤه على هؤلاء مقدار ثلث ، ثم على هؤلاء الآخرين مقدار ثلث ، لزم أن لايزال تحت

– سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة بعامة ، وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ! إني إذا قضيت قضاء فإنه لايرد،وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال : من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً » .

وهو في أبي داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، في باب الفتن .

(١) هو حديث تكلم عنه الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » ، وخلاصة كلامه أن الحديث ضعيف .

العرش أو تحت السماوات ، أو حيث تخيل الجاهل أن الله محصور فيه ، فلايكون قط فوق العرش . وأما إذا كان لكل بلد ثلث غير الثلث الآخر ، وإن أول كل بلد بعد الثلث الآخر ، بقدر ما بينهما ، وكذلك آخر ثلث ليل البلد الشرقي ينقضي قبل انقضاء ثلث ليل البلد الغربي . وأيضاً ، إن كانت مداخلة ، فلا بد أن يدوم النزول على كل بلد ثلث ليلهم إلى طلوع فجرهم ؛ فيلزم من ذلك أن يقدر أثلاث بقدر عدد البلاد .

وأيضاً ، فكما أن ثلث الليل يختلف بطول البلد ، فهو يختلف بعرضها أيضاً، فكلما كان البلد أدخل في الشمال ، كان ليله في الشتاء أطول ، وفي الصيف أقصر ، وما كان قريباً من خط الاستواء يكون ليله في الشتاء أقصر من ليل ذاك ، وليله في الصيف أطول من ليل ذاك ، فيكون ليلهم ونهارهم أقرب إلى التساوي .

وحينئذ فالنزول الإلهي لكل قوم هو مقدار ثلث ليلهم ، فيختلف مقداره بمقادير الليل في الشمال والجنوب ، كما اختلف في المشرق والمغرب . وأيضاً ، فإنه إذا صار ثلث الليل عند قوم ، فبعده بلحظة ثلث الليل عندما يقاربهم من البلاد ، فيحصل النزول الإلهي الذي أخبر به الصادق المصدّق أيضاً عند أولئك إذا بقي ثلث ليلهم ، وهكذا إلى آخر العمارة . فلو كان كما توهمه الجاهل من أنه يكون تحت العرش ، وتكون فوقه السماء وتحته السماء ، لكان هذا ممتنعاً من وجوه كثيرة ، منها أنه لايكون فوق العرش قط بل لايزال تحته ، ومنها أنه يجب على هذا التقدير أن يكون الزمان بقدر ما هو مرات كثيرة جداً ليقع كذلك ، ومنها أنه مع دوام نزوله إلى سماء هؤلاء إلى طلوع فجرهم إن أمكن مع ذلك أن يكون قد نزل على غيرهم أيضاً ممن ثلث ليلهم يخالف ثلث هؤلاء في التقديم والتأخير والطول والقصر .

فهذا خلاف ما تخيلوه ، فانهم لايمكنهم أن يتخيلوا نازلاً كنزول العباد من يكون نازلاً على سماء هؤلاء ثلث ليلهم ، وهو أيضاً في تلك الساعة نازلاً على سماء آخرين ، مع أنه يجب أن يتقدم على أولئك أو يتأخر عنهم ، أو يزيد أو يقصر .

وحكي عن بعض الجهال أنه قيل له: فالسماوات كيف حالها عند نزوله ؟ قال : يرفعها ، ثم يضعها ، وهو قادر على ذلك . فهؤلاء الذين يتخيلون ما وصف رسول الله ﷺ به ربه أنه مثل صفات أجسامهم كلهم ضالون ، ثم يصيرون قسمين .

قسم علموا أن ذلك باطل ، وظنوا أن هذا ظاهر النص ومدلوله ، وأنه لا يفهم منه معنى إلا ذلك فصاروا : إما أن يتأولوه تأويلًا يحرفون به الكلم عن مواضعه ، وإما أن يقولوا : لا يفهم منه شيء ، ويزعمون أن هذا مذهب السلف ، ويقولون : إن قوله : (ومايعلم تأويله إلا الله) [آل عمران – ٧] يدل على أن معنى المتشابه لا يعلمه إلا الله ، والحديث منه متشابه كما في القرآن ، وهذا من متشابه الحديث ، فيلزمه أن يكون الرسول الذي تكلم بحديث النزول لم يدر هو ما يقول ، ولا ما عنى بكلامه وهو المتكلم به ابتداء . فهل يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من عقلاء بني آدم ؟! فضلًا عن الأنبياء ، فضلًا عن أفضل الأولين والآخرين ، وأعلم الخلق ، وأفصح الخلق ، وأنصح الخلق للخلق ﷺ؟! وهم مع ذلك يدعون أنهم أهل السنة ، وأن هذا القول الذي يصفون به الرسول وأمته هو قول أهل السنة ، ولا ريب أنهم لم يتصوروا حقيقة ما قالوه ولوازمه ، ولو تصوروا ذلك ، لعلموا أنه يلزمهم ما هو من أقبح أقوال الكفار في الأنبياء ، وهم لا يرتضون مقالة من ينتقص النبي ﷺ ، ولو تنقصه أحد لاستحلوا قتله ، وهم مصيبون في استحلال قتل من يقدح في الأنبياء عليهم السلام ، وقولهم يتضمن أعظم القدح ، لكن لم يعرفوا ذلك ، ولازم القول ليس بقول ، فإنهم لو عرفوا أن هذا يلزمهم ما التزموه .

وقسم ثان من الممثلين لله بخلقه ، لما رأوا أن قول هؤلاء منكر ، وأن قول الرسول ﷺ حق قالوا مثل تلك الجهالات ، من أنه تصير فوقه سماء وتحته سماء ، أو أن السماوات ترفع ثم تعود ، ونحو ذلك مما يظهر بطلانه لمن له أدنى عقل ولب . وقد ثبت في «الصحيحين» أنه ينزل ، وفي لفظ : « ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر » ،

وفي حديث آخر : « أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الآخر » ، وفي « صحيح مسلم » : « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يمضي ثلث الليل ، وفي « صحيح مسلم» : « إذا مضى شطر الليل أوثلثاه ينزل الله إلى سماء الدنيا» . فماذكر من تقدم اختلاف الليل في البلاد يبطل قول من يظن أنه يخلو منه العرش ويصير تحت العرش أو تحت السماء .

وأما النزول الذي لا يكون من جنس نزول أجسام العباد ، فهذا لايمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثير ، ويكون قدره لبعض الناس أكثر ، بل لايمتنع أن يقرب إلى خلق من عباده دون بعض فيقرب إلى هذا الذي دعاه دون هذا الذي لم يدعه وجميع ماوصف به الرب عز وجل نفسه من القرب ، فليس فيه ما هو عام لجميع المخلوقات كما في المعية ، فإن المعية وصف نفسه فيها بعموم وخصوص .

وأما قربه مما يقرب منه ، فهو خاص لمن يقرب منه ، كالداعي والعابد ، وكقربه عشية عرفة ، ودنوه إلى السماء الدنيا لأجل الحجاج ، وإن كانت تلك العشية بعرفة قد تكون وسط النهار في بعض البلاد ، وتكون ليلًا في بعض البلاد ، فإن تلك البلاد لم يدن إليها ولا إلى سمائها الدنيا ، وإنما دنا إلى السماء الدنيا التي على الحجاج، وكذلك نزوله بالليل، وهذا كما أن حسابه لعباده يوم القيامة يحاسبهم كلهم في ساعة واحدة ، وكل منهم يخلو به كما يخلو الرجل بالقمر ليلة البدر ، فيقرره بذنوبه ، وذلك المحاسَب لايرى أنه يُحاسب غيرهُ كذلك قال أبو رزين للنبي ﷺ لما قال النبي ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، قال : يا رسول الله ! كيف ؟ ونحن جميعاً وهو واحد ؟! فقال : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله : هذا القمر كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر » .وقال رجل لابن عباس رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في ساعة واحدة ؟ قال :كما يرزقهم في ساعة واحدة . وكذلك ما ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « يقول الله : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي

ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ؛ قال الله : حمدني عبدي ، فإذا قال العبد: الرحمن الرحيم ؛ قال الله : اثنى علي عبدي ، فإذا قال العبد : مالك يوم الدين ؛ قال الله : مجدني عبدي ، فإذا قال العبد: إياك نعبد وإياك نستعين ؛ قال : هذه بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »[1] .

فهذا يقوله سبحانه وتعالى لكل مصل قرأ الفاتحة فلو صلى الرجل ما صلى من الركعات قيل له ذلك ، وفي تلك الساعة يصلي من يقرأ الفاتحة من لا يحصي عدده إلا الله ، وكل واحد منهم يقول الله له كما يقول لهذا ، كما يحاسبهم كذلك ، فيقول لكل واحد ما يقول له من القول في ساعة واحدة ، وكذلك سمعه لكلامهم يسمع كلامهم كله مع اختلاف لغاتهم ، وتفنن حاجاتهم ، يسمع دعاءهم سمع إجابة ، ويسمع كل ما يقولونه سمع علم وإحاطة لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ، فإنه سبحانه هو الذي خلق هذا كله ، وهو الذي يرزق هذا كله ، وهو الذي يوصل الغذاء إلى كل جزء من أجزاء البدن على مقداره وصفته المناسبة له ، وكذلك من الزرع ، وكرسيه قد وسع السماوات والأرض ولا يؤوده حفظها ، فإذا كان لا يؤوده خلقه ورزقه على هذه التفاصيل ، فكيف يؤوده العلم بذلك ، أو سمع كلامهم ، أو رؤية أفعالهم ، أو إجابة دعائهم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر - ٩٧] ؟!!

وهذه الآية مما تبين خطأ هؤلاء ، فإنه سبحانه وتعالى قال : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ ، والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ،

---

(١) « صحيح مسلم » باب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

سُبْحانَهُ وَتعالى عمّا يُشْرِكُونَ) ، وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ، ويقول: أنا الملك ، أنا الملك أين ملوك الأرضين؟ »[1] . وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبلغ من ذلك ، والسياق لمسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبـــارون أين المتكبرون » ، رواه عن أبي بكر بن أبي شيبة ورواه عثمان بن أبي شيبة قال : « يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين ، ثم يأخذهن بشماله ، فيقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ »

وفي حديث عبد الله بن مقسم عن عبدالله بن عمر ، قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر ، وهو يقول : « يأخذ الجبار سمواته وأرضه — وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها — ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً ، أنا الذي أعيدها ، أين الجبارون أين المتكبرون ؟ » ويتميل رسول الله على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ رواه ابن منده وابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وسعيد بن منصور وغيرهم من الأئمة الحفاظ النقاد الجهابذة .

فإذا كان سبحانه يطوي السماوات كلها بيمينه ، وهذا قدرها عنده — كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم . وهو سبحانه بين لنا من عظمته بقدر ما نعقله ، كما قال عبد العزيز الماجشون : والله ما دلهم على عظيم ماوصف من نفسه وما تحيط به قبضته إلاصغر

---

(١) هو في « البخاري » ، كتاب التوحيد .

نظيرها منهم عندهم أن ذلك الذي ألقي في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم ، وقد قال تعالى: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) [الأنعام - ١٠٣] قال ابن أبي حاتم في «تفسيره» : حدثنا أبو زرعة ، ثنا منجاب بن الحارث ، ثنا بشر بن عمارة عن أبي روق، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله سبحانه وتعالى : (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ) [الأنعام - ١٠٣] ، قال : « لو أن الجن والإنس ، والشياطين والملائكة ، منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً »[1] - فمن هذه عظمته ، كيف يحصره مخلوق من المخلوقات ، سماء أو غير سماء !؟ حتى يقال : إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه ، أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه وتعالى .

فإذا قال القائل : هو قادر على ما يشاء ؛ قيل : فقل : هو قادر على أن ينزل سبحانه وتعالى وهو فوق عرشه ، وإذا استدللت بمطلق القدرة والعظمة من غير تمييز ، فما كان أبلغ في القدرة والعظمة ؛ فهو أولى بأن يوصف به مما ليس كذلك ؛ فإن من توهم العظيم الذى لا أعظم منه يقدر على أن يصغر حتى يحيط به مخلوقه الصغير ، وجعل هذا من باب القدرة والعظمة ؛ فقوله : إنه ينزل مع بقاء عظمته وعلوه على العرش ؛ أبلغ في القدرة والعظمة ، وهو الذي فيه موافقة الشرع والعقل . وهذا كما قد يقوله طائفة منهم أبو طالب المكي قال: إن شاء وسعه أدنى شيء ، وإن شاء لم يسعه شيء ، وإن أراد عرفه كل شيء ، وإن لم يرد لم يعرفه شيء ، إن أحب وجد عند كل شيء ، وإن لم يحب لم يوجد عند شيء ، وقد جاوز الحد والمعيار ، وسبق القبل والأقدار ، ذو صفات لاتحصى ، ولاتتناهى ، ليس محبوساً في صورة ، ولا موقوفاً بصفة ، ولا محكوماً عليه بحكم، ولا يتجلى بوصف مرتين، ولا يظهر

---

(١) عطية العوفي ضعيف ، وذكره ابن كثير في تفسيره ، وقال : غريب لايعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة .

في صورة لاثنين ، ولا يرد منه بمعنى واحد كلمتان ؛ بل لكل تجل منه صورة ، ولكل عبد عند ظهوره له صفة ، وعن كل نظرة كلام ، وبكل كلمة إفهام ، ولا نهاية لتجليه ، ولا غاية لأوصافه .

قلت : أبو طالب رحمه الله هو وأصحابه السالمية – أتباع الشيخ أبي الحسن بن سالم صاحب سهل بن عبد الله التستري – لهم من المعرفة والعبادة والزهد واتباع السنة والجماعة في عامة المسائل المشهورة لأهل السنة ما هم معروفون به ، وهم منتسبون إلى إمامين عظيمين في السنة : الإمام أحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التستري ، ومنهم من تفقه على مذهب مالك بن أنس كبيت الشيخ أبي محمد وغيرهم ، وفيهم من هو على مذهب الشافعي . فالذين ينتسبون إليهم أو يعظمونهم ويقصدون متابعتهم أئمة هدى رضوان الله عليهم أجمعين ، وهم في ذلك كأمثالهم من أهل السنة والجماعة . وقل طائفة من المتأخرين إلا وقع في كلامها نوع غلط لكثرة ماوقع من شبه اهل البدع ؛ ولهذا يوجد في كثير من المصنفات في أصول الفقه ، وأصول الدين ، والفقه ، والزهد ، والتفسير ، والحديث ، من يذكر في الأصل العظيم عدة أقوال ، ويحكي من مقالات الناس ألواناً ، والقول الذي بعث الله به رسوله لايذكره ، لعدم علمه به ، لا لكراهته لما عليه الرسول .

وهؤلاء وقع في كلامهم أشياء أنكروا بعض ما وقع من كلام أبي طالب في الصفات من نحو الحلول وغيره ، أنكرها عليهم أئمة العلم والدين ونسبوهم إلى الحلول من أجلها ؛ ولهذا تكلم أبو القاسم بن عساكر في أبي علي الأهوازي لما صنف هذا مثالب أبي الحسن الأشعري وهذا مناقبه ، وكان أبو علي الأهوازي من السالمية ، فنسبهم طائفة إلى الحلول . والقاضي أبو يعلى له كتاب صنفه في الرد على السالمية ، وهم فيما ينازعهم المنازعون فيه – كالقاضي أبي يعلى وغيره ، وكأصحاب الأشعري وغيرهم من ينازعهم – من جنس تنازع الناس ، تارة يرد عليهم حقاً وباطلاً ، وتارة يرد عليهم حقاً من حقهم ، وتارة يرد باطلاً بباطل ، وتارة يرد

باطلاً بحق . وكذلك ذكر الخطيب البغدادي في « تاريخه » أن جماعة من العلماء أنكروا بعض ما وقع في كلام أبي طالب في الصفات ، وما وقع في كلام أبي طالب من الحلول سرى بعضه إلى غيره من الشيوخ الذين أخذوا عنه كأبي الحكم بن برجان ونحوه .

وأما أبو إسماعيل الأنصاري صاحب « منازل السائرين » فليس في كلامه شيء من الحلول العام ، لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو : مقام التوحيد ، وقد باح منه بما لم يبح به أبو طالب ، لكن كنى عنه .

وأما الحلول العام ، ففي كلام أبي طالب قطعة كبيرة منه مع تبريه من لفظ الحلول ، فإنه ذكر كلاماً كثيراً حسناً في التوحيد كقوله: عالم لا يجهل ، قادر لا يعجز ، حي لا يموت ، قيوم لا يغفل ، حليم لا يسفه ، سميع بصير ، ملك لا يزول ملكه ، قديم بغير وقت ، آخر بغير حد، كائن لم يزل ، إلى أن قال: وإنه أمام كل شيء ، ووراء كل شيء ، وفوق كل شيء ، ومع كل شيء ، ويسمع كل شيء ، وأقرب إلى كل شيء من ذلك الشيء ، وإنه مع ذلك غير محل للأشياء ، وإن الأشياء ليست محلاً له ، وإنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه ، وإنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

وذكر كلاماً آخر يتعلق بالمخلوقات وإحاطة بعضها ببعض بحسب ما رآه ، ثم قال : والله جل جلاله وعظم شأنه هو ذات منفرد بنفسه ، متوحد بأوصافه ، بائن من جميع خلقه ، لا يحل الأجسام ، ولا تحله الأعراض ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه من ذاته شيء ، ليس في الخلق إلا الخلق ، ولا في الذات إلا الخالق .

قلت : وهذا ينفي الحلول كما نفاه أولاً .

ثم قال فصل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين: فشهادة الموقن بيقينه أن الله هو الأول من كل شيء، وأقرب من كل شيء ، فهو المعطي المانع، الهادي المضل ، لا معطي ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله ، كما لا إله إلا الله، ويشهد قرب الله منه، ونظره إليه ، وقدرته عليه ؛

وحيطته به فيسبق نظره وهمه إلى الله قبل كل شيء ، ويذكره في كل شيء ، ويخلو قلبه له من كل شيء ، ويرجع إليه بكل شيء ، ويتأله إليه دون كل شيء ، ويعلم أن الله أقرب إلى القلب من وريده ، وأقرب إلى الروح من حياته ، وأقرب إلى البصر من نظره ، وأقرب إلى اللسان من ريقه — بقرب هو وصفه لابتقريب ولابتقرب — وأنه تعالى على العرش في ذلك كله ، وأنه رفيع الدرجات من الثرى ، كما هو رفيع الدرجات من العرش ، وأن قربه من الثرى ومن كل شيء كقربه من العرش ، وأن العرش غير ملامس له بحس ، ولا مفكر فيه بوجس ، ولا ناظر إليه بعين ، ، ولا محيط به بدرك ؛ لأنه تعالى محتجب بقدرته عن جميع بريته ، ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب موقن عالم به ، واجد بما أوجده منه من أن الله عليه ، وأن العرش مطمئن به ، وأن الله محيط بعرشه فوق كل شيء ، وفوق تحت كل شيء ، فهو فوق الفوق وفوق التحت ، لا يوصف بتحت فيكون له فوق ، لأنه العلي الأعلى ، أين كان لايخلو من علمه وقدرته مكان ، ولا يجد بمكان ، ولا يفقد من مكان ، ولا يوجد بمكان ، فالتحت للأسفل ، والفوق للأعلى ، وهو سبحانه فوق كل فوق في العلو ، وفوق كل تحت في السمو ، هو فوق ملائكة الثرى ، كما هو فوق ملائكة العرش والأماكن للمكنات ، ومكانه مشيئته ووجوده وقدرته ، والعرش والثرى فما بينهما هو حد للخلق الأسفل والأعلى بمنزلة خردلة في قبضته ، وهو أعلى من ذلك ، ومحيط بجميع ذلك بحيطة هي صفته ، وسعة هي قدرته ، وعلو هو عظمته ، بما لا يدركه العقل ، ولا يكيفه الوهم ، ولا نهاية لعلوه ، ولا فوق لسموه ، ولا بُعد في دنوه .

إلى أن قال : وإن الله لايحجبه شيء عن شيء ، ولا يبعد عليه شيء ، قريب من كل شيء بوصفه وهو القدرة والدرك ، والأشياء مبعدة بأوصافها وهو البعد والحجب ، فالبعد والابعاد حكم مشيئته ، والحدود والأقطار حجب بريته .

إلى أن قال : (وهُوَ اللهُ في السَّمَوَاتِ وفي الأَرْضِ) ، (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

العَرْش) ، (وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) غير متصل بالخلق ولا مفارق ، وغير مماس لكون ولا متباعد ، بل منفرد بنفسه ، متحد بوصفه ، لايزدوج إلى شيء ،ولا يقترن به شيء ، أقرب من كل شيء بقرب هو وصفه ، وهو محيط بكل شيء بحيطة هي نعته ، وهو مع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وأمام كل شيء ، ووراء كل شيء ، بعلو ودنو هو قربه ، فهو وراء الحول الذي هو وراء حملة العرش ، وهو أقرب من حبل الوريد الذي هو الروح ، وهو مع ذلك فوق كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وليس هو تعالى في كل هذا مكاناً لشيء ، ولا مكاناً له شيء ، وليس كمثله في كل هذا شيء ، لاشريك له في ملكه ولا معين له في خلقه ، ولانظير له في عباده ، ولا شبيه له في اتحاده ، وهو أول في آخريته بأولية هي صفته ، وآخر في أوليته بأخرية هي نعته ، وباطن في ظهوره بباطنية هي قربه ، وظاهر بباطنيته بظهور هو علوه ، لم يزل كذلك أزلاً ، ولا يزال كذلك أبداً ، ولم يزل كذلك باطناً ، ولا يزال كذلك ظاهراً .

إلى أن قال : هو على عرشه باختياره لنفسه ، فالعرش حد خلقه الأعلى وهو غير محدود بعرشه ، والعرش محتاج إلى مكان ، والرب عز وجل غير محتاج إليه ؛ كما كان : (الرَّحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوى) ، الرحمن اسمه والاستواء نعتـــه متصل بذاته ، والعرش خلقه منفصل عن صفاته ، ليس بمضطر إلى مكان يسعه ولاحامل يحمله .

إلى أن قال : وهو لايسعه غير مشيئته ، ولايظهر إلا في أنوار صفته ، ولا يوجد إلا في سعة البسطة . فإذا قبض أخفى ما أبدى ، وإذا بسط أعاد ما أخفى ، وكذلك جعله في كل رسم كَوْن ، وفعله بكل اسم مكان ، مما جل فظهر ، ومما دق فاستتر ؛ ولا يسعه غير مشيئته بقربه ، ولايعرف إلا بشهوده ، ولا يرى إلا بنوره ، هذا لأوليائه اليوم بالغيبة في القلوب ، ولهم ذلك غداً في المشاهدة بالأبصار ، ولايعرف إلا بمشيئته ، إن شاء وسعه أدنى شيء وإن لم يشأ لم يسعه كل شيء ، إن أراد عرفه كل شيء وإن لم يرد لم يعرفه شيء ، إن

أحب وجد عند كل شيء ، وإن لم يحب لم يوجد بشيء ، وذكر تمام كلامه كما حكيناه من قبل .

قلت : وهذا الذي ذكره من قربه وإطلاقه وأنه لايتجلى بوصف مرتين ولايظهر في صورة لاثنين ؛ هو حكم ما يظهر لبعض السالكين من قربه إلى قلوبهم ، وتجليه لقلوبهم – لا أن هذا هو وصفه في نفس الأمر ، وأنه كما تحصل هذه التجليات المختلفة تحصل يوم القيامة للعيون – .

وهذا الموضع مما يقع الغلط فيه لكثير من السالكين ؛ يشهدون أشياء بقلوبهم فيظنون أنها موجودة في الخارج هكذا ، حتى ان فيهم خلقاً منهم من المتقدمين والمتأخرين يظنون أنهم يرون الله بعيونهم ، لما يغلب على قلوبهم من المعرفة والذكر والمحبة ، يغيب بشهوده فيما حصل لقلوبهم ، ويحصل لهم فناء واصطلام ؛ فيظنون أن هذا هو أمر مشهود بعيونهم ، ولايكون ذلك إلا في القلب ؛ ولهذا ظن كثير منهم أنه يرى الله بعينه في الدنيا .

وهذا مما وقع لجماعة من المتقدمين والمتأخرين ، وهو غلط محض ، حتى أورث مما يدعيه هؤلاء شكاً عند أهل النظر والكلام الذين يجوزون رؤية الله في الجملة،وليس لهم من المعرفة بالسنة ما يعرفون به ؛ هل يقع في الدنيا أو لايقع ؟ فمنهم من يذكر في وقوعها في الدنيا قولين ، ومنهم من يقول بجوز ذلك ، وهذا كله ضلال ؛ فإن أئمة السنة والجماعة متفقون من أن الله لايراه أحد بعينه في الدنيا ، ولم يتنازعوا إلا في نبينا ﷺ خاصة . وقد روي نفي رؤيتنا له في الدنيا عن النبي ﷺ من عدة أوجه : منها ما رواه مسلم في « صحيحه » عن النبي ﷺ أنه قال لما ذكر الدجال قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت »[1]، وموسى بن عمران عليه السلام قد سأل الرؤية ؛ فذكر الله سبحانه قوله : (لَنْ تَرَانِي) [الأعراف – ١٤٣] ؛ وما أصاب موسى من الصعق .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » باب رؤية الله عز وجل .

وهؤلاء منهم من يقول : إن موسى رآه ، وإن الجبل كان حجابه ، فلما جعل الجبل دكا رآه ، وهذا يوجد في كلام أبي طالب ونحوه ، ومنهم من يجعل الرائي هو المرئي ؛ فهو الله فيذكرون اتحاداً وأنه أفنى موسى عن نفسه حتى كان الرائي هي المرئي، فمارآه عندهم موسى ، بل رأى نفسه بنفسه ، وهذا يدعونه لأنفسهم .

والاتحاد والحلول باطل ، وعلى قول من يقول به إنما هذا في الباطن والقلب لا في الظاهر ؛ فإن غاية ذلك ما تقوله النصارى في المسيح ، ولم يقولوا : إن أحداً رأى اللاهوت الباطن المتدرع بالناسوت .

وهذا الغلط يقع كثيراً في السالكين، يقع لهم أشياء في بواطنهم ، فيظنونها في الخارج، وهم في ذلك بمنزلة الغالطين من نظار المتفلسفة ونحوهم ، حيث يتصورون أشياء بعقولهم كالكليات والمجردات ونحو ذلك ، فيظنونها ثابتة في الخارج ، وإنما هي في نفوسهم ؛ ولهذا يقول أبو القاسم السهيلي وغيره : نعوذ بالله من قياس فلسفي ، وخيال صوفي .

ولهذا يوجد التناقض الكثير في كلام هؤلاء وهؤلاء . وأما الذين جمعوا الآراء الفلسفية الفاسدة ، والخيالات الصوفية الكاسدة كابن عربي وأمثاله ؛ فهم من أضل أهل الأرض ، ولهذا كان الجنيد رضي الله عنه سيد الطائفة إمام هدى ، فكان قد عرف ما يعرض لبعض السالكين ، فلما سئل عن التوحيد قال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم ؛ فبين أنه يميز المحدث عن القديم تحذيراً عن الحلول والاتحاد. فجاءت الملاحدة كابن عربي ونحوه ، فأنكروا هذا الكلام على الجنيد ؛ لأنه يبطل مذهبهم الفاسد ،والجنيد وأمثاله أئمة هدى ، ومن خالفه في ذلك فمن أهل الضلال . وكذلك غير الجنيد من الشيوخ تكلموا فيما يعرض للسالكين وفيما يرونه في قلوبهم من الأنوار وغير ذلك ؛ وحذروهم أن يظنوا أن ذلك هو ذات الله تعالى .

وقد خطب عروة بن الزبير من عبد الله بن عمر ابنته،وهو في الطواف؛ فقال : أتحدثني

في النساء ، ونحن نتراءى الله في طوافنا ؟! فهذا كله وما أشبهه لم يريدوا به أن القلب ترفع جميع الحجب بينه وبين الله حتى تكافح الروح ذات الله كما يرى هو نفسه ، فإن هذا لا يمكن لأحد في الدنيا ، ومن جوز ذلك إنما جوزه للنبي ﷺ كقول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين . ولكن هذا التجلي يحصل بوسائط بحسب إيمان العبد ومعرفته وحبه ؛ولهذا تتنوع أحوال الناس في ذلك كما تتنوع رؤيتهم له في المنام ؛ فيراه كل إنسان بحسب إيمانه ، ويرى في صور متنوعة .

فهذا الذي قاله أبو طالب وهؤلاء إذا قيل مثله فيما يحصل في القلوب ؛ كان مقارباً ، مع أن في بعض ذلك نظراً ، وأما أن يقال : إن الرب تعالى في نفسه هو كذلك ، فليس الأمر كذلك .

وأما قوله : أقرب إلى الروح من حياته ، وأقرب إلى البصر من نظره، وإلى اللسان من ريقه بقرب هو وصفه ... وقوله : أقرب من حبل الوريد . . . فهذا ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ، ولا قاله أحد من السلف : لا من الصحابة ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا الأئمة الأربعة وأمثالهم من أئمة المسلمين ، ولا الشيوخ المقتدى بهم من شيوخ المعرفة والتصوف . وليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب من كل شيء أصلاً، بل قربه الذي في القرآن خاص لا عام ؛ كقوله تعالى : (وإذَا سألكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة -- ١٨٦] ، فهو سبحانه قريب ممن دعاه .

وكذلك ما في «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ؛ فقال : « أيها الناس ؛ اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . فقال : « إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم » ، لم يقل إنه قريب إلى كل

موجود ، وكذلك قول صالح عليه السلام: (فَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) [هود - ٦١] ، هو كقول شعيب : (واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) ومعلوم أن قوله : (قريب مجيب) مقرون بالتوبة والاستغفار ، أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود ، وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال : إنه مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى .

وأسماء الله المطلقة كاسمه : السميع ، والبصير ، والغفور ، والشكور ، والمجيب ، والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ؛ بل يتعلق كل اسم بما يناسبه ، واسمه العليم لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوماً تعلق بكل شيء .

وأما قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق - ١٦، ١٩] ، وقوله : (فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) [الواقعة - ٨٣ ، ٨٤] ؛ فالمراد به قربه إليه بالملائكة ، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف ، قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة ، وقد قال طائفة : (ونحن أقرب إليه) بالعلم ، وقال بعضهم : بالعلم والقدرة ولفظ بعضهم بالقدرة والرؤية .

وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود، حتى يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية ، ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ؛ وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب مثل لفظ المعية ، فإن لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى :

(هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأرْضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فيها ، وَهُوَ مَعَكُمْ أيْنَمَا كُنْتُمْ ، واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد – ٤] ، وقوله تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلا أدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيامَةِ) [المجادلة – ٧] ، وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا : هو معهم بعلمه ، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله ، وهو مأثور عن ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل ابن حيان ، وسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم .

قال ابن أبي حاتم في « تفسيره » : حدثنا أبي ، ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن معمر ، عن نوح بن ميمون المضروب ، عن بكير بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله : (وهو معكم أينما كنتم) قال : هو على العرش وعلمه معهم قال: وروي عن سفيان الثوري أنه قال : علمه معهم . وقال : حدثنا أبي ، قال : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ، حدثنا نوح بن ميمون المضروب ، ثنا بكير بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن الضحاك بن مزاحم ، في قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) إلى قوله : (أينما كانوا) ، قال : هو على العرش وعلمه معهم . ورواه بإسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا وهو ثقة في التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان .

وقال عبد الله بن أحمد : ثنا أبي ، ثنا نوح بن ميمون ، عن بكير بن معروف ، ثنا أبو معاوية ، عن مقاتل بن حيان ، عن الضحاك في قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، إلا هو معهم أينما كانوا) ، قال : هو على العرش وعلمه معهم . وقال علي بن الحسن بن شقيق : حدثنا

عبد الله بن موسى صاحب عبادة ، ثنا معدان – قال ابن المبارك : إن كان أحد بخراسان من الأبدال فمعدان – قال : سألت سفيان الثوري عن قوله (وهو معكم أينما كنتم) ؛ قال : علمه .

وقال حنبل بن إسحاق في كتاب « السنة » : قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : ما معنى قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) ، و (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) ، إلى قوله تعالى : (إلا هو معهم أينما كانوا) قال : علمه ، عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء ، شاهد ، علام الغيوب ، يعلم الغيب ، ربنا على العرش بلا حد ولا صفة ، وسع كرسيه السموات والأرض .

وقد بسط الإمام أحمد الكلام على معنى المعية في « الرد على الجهمية » . ولفظ المعية في كتاب الله جاء عاماً كما في هاتين الآيتين ، وجاء خاصاً كما في قوله : (إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل – ١٢٨] ، وقوله : (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) وقوله : (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) [التوبة – ٤٠] . فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء ؛ لكان التعميم يناقض التخصيص ؛ فإنه قد علم أن قوله : (لاتحزن إن الله معنا) أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار ، وكذلك قوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) خصهم بذلك دون الظالمين والفجار ، وأيضاً فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى، كما في قوله : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) [الفتح – ٢٩] ، وقوله : (فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) [النساء – ١٤٦] ؛ وقوله : (اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة – ١٢٠] ، وقوله : (وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ) [الأنفال-٧٥]. ومثل هذا كثير ؛ فامتنع أن يكون قوله : (وهو معكم) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً فإنه افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ؛ فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به .

وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر ، وبين أن لفظ المعية في اللغة – وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقارنة – فهو إذا كان مع العباد لم ينف ذلك علوه على عرشه، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه، فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالاعانة والنصر والتأييد . وقد قال ابن أبي حاتم : قرأت على محمد بن الفضل ، حدثنا محمد ابن علي بن الحسن بن شقيق ، ثنا محمد بن مزاحم ، ثنا بكير بن معروف ، عن مقاتل بن سليمان ، في قوله تعالى: (يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرْضِ) من المطر (وَما يخْرُجُ منها) من النبات (وَما ينْزِلُ مِنَ السَّماءِ) من القطر (وَما يَعْرُجُ فِيها) ما يصعد إلى السماء من الملائكة (وَهُوَ مَعكمْ أيْنما كُنْتمْ)، يعني بقدرته وسلطانه وعلمه معكم أينما كنتم .وبهذا الاسناد عن مقاتل بن سليمان قال . بلغنا والله أعلم في قوله تعالى : (هُوَ الأولُ) قال : قبل كل شيء (والآخِرُ) قال : بعد كل شيء (والظّاهِرُ) قال : فوق كل شيء (والباطِنُ) قال : أقرب من كل شيء، وإنما نعني بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه (وَهُوَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ) [الحديد – ٤] يعلم نجواهم ويسمع كلامهم ، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء نطقوا به ، سيء أو حسن .

وهذا ليس مشهوراً عن مقاتل كشهرة الأول الذي روي عنه من وجوه ، لم يجزم بما قاله ، بل قال : بلغنا ، وهو الذي فسر الباطن بالقريب ، ثم فسر القرب بالعلم والقدرة ، ولا حاجة إلى هذا . وقد ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء[1] » ، وجاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وأبي ذر

---

(١) هو في « مسلم » ٤/٢٠٨٤ بروايات متعددة أوسعها ، عن سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام ، أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل –

رضي الله عنهما في تفسير هذه الأسماء وحديث الادلاء ماقد بسطنا القول عليه في مسألة الإحاطة .

وكذلك هذا الحديث ذكره قتادة في تفسيره ، وهو يبين أنه ليس معنى الباطن أنه القرب ، ولا لفظ الباطن يدل على ذلك ، ولا لفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية ، ولا لفظ القرب في اللغة والقرآن كلفظ المعية ، فإنه إذا قال هذا مع هذا فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة ، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى ، ولا اختلاطها بها ، فلهذا كان إذا قيل : هو معهم ، دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم ، وهو مع ذلك فوق عرشه ، كما أخبر القرآن والسنة بهذا . وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) [الحديد – ٤] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء ، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء .

وكذلك في حديث الأوعال [1] الذي في « السنن » ، قال النبي ﷺ : « والله فوق عرشه ويعلم ما أنتم عليه » ، ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء ، بل قال : (إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ) [الأعراف – ٥٦] ، وقال : (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة – ١٨٦] ، وقال النبي ﷺ : إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب » .

قال ابن أبي حاتم : ثنا يحيى بن المغيرة ، ثنا جرير ، عن عبدة بن أبي برزة السجستاني ، عن الصلت بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه . فسكت النبي ﷺ ، فأنزل الله

---

(١) هو حديث ضعيف لايحتج به وقد تكلم عليه غير واحد من الحفاظ .

تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) . إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني أستجيب لهم .

ولا يقال في هذا : قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ولم يسألوا عنه ، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، ولهذا قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لكونه هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده ، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول : إنه قريب من كل شيء بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف كما تقدم عن مقاتل بن حيان ، وكثير من الخلف ، ولكن لم يقل أحد منهم : إن نفس ذاته قريبة من كل شيء ، وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين ؛ من يقول : إنه فوق العرش ومن يقول: إنه ليس فوق العرش .

وقد ذكر ابن أبي حاتم بإسناده عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون قال: (الرحمن على العرش استوى) [طه - ٥] ، يعلم وهو كذلك ما توسوس به أنفسنا منا وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد ، وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا، فكيف بحبل الوريد ؟! وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكي ، قال : ومن سأل عن قوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [ق - ١٦] ، فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه ، والدليل من ذلك صدر الآية؛ فقال الله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ، لأن الله لما كان عالماً بوسوسته ؛ كان أقرب إليه من حبل الوريد ، وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس .

ويلزم الملحد على اعتقاده أن يكون معبوده مخالطاً لدم الانسان ولحمه ، وأن لايجرد الانسان تسمية المخلوق حتى يقول : خالق ومخلوق ، لأن معبوده بزعمه داخل حبل الوريد من الانسان وخارجه ، فهو على قوله ممتزج به غير مباين له .

قال : وقد أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله على عرشه بائن من جميع خلقه ، وتعالى الله عن قول أهل الزيغ ، وعما يقول الظالمون علواً كبيراً .

قال : وكذلك الجواب في قوله فيمن يحضره الموت : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ) [الواقعة – ٥٨] أي : بالعلم به والقدرة عليه ، إذ لايقدرون له على حيلة ، ولا يدفعون عنه ، وقد قال تعالى : (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) [السجدة – ١١] .

قلت : وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين مثل الثعلبي وأبي الفرج بن الجوزي وغيرهما في قوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ، وأما في قوله : (ونحن أقرب إليه منكم) ، فذكر أبو الفرج القولين أنهم الملائكة ، وذكر عن أبي صالح عن ابن عباس أنه القرب بالعلم . وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من وريد العبد ومن الميت ، ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية ، ولا حاجة إلى هذا ، فإن المراد بقوله : (ونحن أقرب إليه منكم) ، أي بملائكتنا في الآيتين ، وهذا بخلاف لفظ المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا ، وهو نفسه الذي خلق السموات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش ، فلايجعل لفظ مثل لفظ مع تفريق القرآن بينهما .

وكذلك قال أبو حامد موافقاً لأبي طالب المكي في بعض ماقال،مخالفاً له في البعض ،

فإنه من نفاة علو الله نفسه على العرش ، وإنما المراد عنده أنه قادر عليه ، مستول عليه ، أو أنه أفضل منه ، قال : وانه مستو على العرش على الوجـــه الذي قاله والمعنى الذي أراده ، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لايحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطيف قدرته ، مقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ؛ فوقيته لاتزيده قرباً إلى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مـــع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، إذ لايماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لايحل في شيء ، ولا يحل فيه شيء إلى أن قـــال : وإنه بائن بصفاته من خلقه ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته .

قلت : فالفوقية التي ذكرها في القدرة والاستيلاء فوقية القدرة وهو أنه أفضل المخلوقات ، والقرب الذي ذكره هو العلم أو هو العلم والقدرة ، وثبوت علمه وقدرته واستيلائه على كل شيء هو مما اتفق عليه المسلمون . وتفسير قربه بهذا قاله جماعة من العلماء لظنهم أن القرب في الآية هو قربه وحده ، ففسروها بالعلم لما رأوا ذلك عاماً . قالوا : هو قريب من كل موجود بمعنى العلم ، وهذا لايحتاج إليه كما تقدم . وقوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريـد) [ق – ١٦] لايجوز أن يراد به مجرد العلم ؛ فإن من كان بالشيء أعلم من غيره لايقال : إنه أقرب إليه من غيره بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه .

ثم إنه سبحانه وتعالى عالم بما يُسَر من القول وما يجهر به وعالم بأعماله ؛ فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ؛ فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الانسان وباطنه . قال تعالى : (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [الملك – ١٣] ، وقال تعالى : (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[طه – ٧] ، وقال تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الغُيُوبِ) [التوبه – ٧٩] وقال تعالى : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف – ٨٠] ، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلا أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ ؛ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة – ٧] .

ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم ، أنه قال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)[ق – ١٦ – ١٧] ؛ فأخبر أنه يعلم ما توسوس به نفسه، ثم قال : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) ؛ فأثبت العلم ؛ وأثبت القرب، وجعلها شيئين ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر . وقيد القرب بقوله : (إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق – ١٨ – ١٩] . وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، أوأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا في غاية الضعف ، وذلك أن الذين يقولون : إنه في كل مكان ، أوانه قريب من كل شيء بذاته ، لايخصون بذلك شيئاً دون شيء ، ولايمكن مسلماً أن يقول : إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا إنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء .

وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم وهو عندهم في جميع بدن الانسان ، أو قريب من جميع بدن الانسان أوهو في أهل الميت كما هو في الميت ؛ فكيف يقول (ونحن أقرب إليه منكم) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟! وهل يكون أقرب إلى نفسه من

نفسه !؟ وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة ، فإنه قال : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق – ١٦ – ١٩] . فقيد القرب بهذا الزمان ، وهو زمان تلقي المتلقيان : قعيد عن اليمين ، وقعيد عن الشمال ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان كما قال : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

ومعلوم أنه لو كان المراد قرب ذات الرب لم يختص ذلك بهذه الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين والرقيب والعتيد معنى مناسب . وكذلك قوله في الآية الأخرى : (فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) [الواقعة – ٨٣] ، فلو أراد قرب ذاته لم يخص ذلك بهذه الحال ، ولا قال : (ولكن لاتبصرون) ، فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ، ولكن نحن لانبصره ، والرب تعالى لايراه في هذا الحال لا الملائكة ولا البشر . وأيضاً فإنه قال : (ونحن أقرب إليه منكم) ، فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذا الحال . وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل : هي في مكان ، أو قيل : قريبة من كل موجود ، لايختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، ولايكون أقرب إلى شيء من شيء .

ولا يجوز أن يراد به قرب الرب الخاص كما في قوله : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) [البقرة – ١٨٦] ، فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده ، وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً أو مؤمناً أومقرباً ، ولهذا قال تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ، وأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) [الواقعة – ٩٠ ، ٩٢] ومعلوم أن مثل هذا

المكذب لايخصه الرب بقرب منه دون من حوله ، وقد يكون حوله قوم مؤمنون ، وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر كما قال تعالى : (إنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) [النساء – ٩٧] ، وقال : (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) [الأنفال : ٥١] ، وقال : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) [الأنعام – ٩٣] ، وقال تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) [الأنعام – ٦١] ، وقال تعالى : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) [السجدة – ١١] .

ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال : (ونحن أقرب إليه منكم) (ونحن أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق – ١٦] ، وهذا كقوله سبحانه : (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [القصص – ٣] ، وقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) وقال : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة – ١٧ – ١٩] ، فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه دل على أن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة ، فإن صيغة نحن يقولها المتبوع المطاع المعظم الذي له جنود يتبعون أمره ، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم ، وهو خالقهم وربهم ، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ « نحن » هنا هو المناسب .

وكذلك قوله : وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) فإنه سبحانه يعلم ذلك ،

وملائكته يعلمون ذلك كما ثبت في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا هم العبد بحسنة كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت حسنة »[1] . فالملك يعلم مايهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم بالغيب الذي اختص الله به ، وقد روي عن ابن عيينة أنهم يشمون رائحة طيبة فيعلمون أنه همّ بحسنة ، ويشمون رائحة خبيثة فيعلمون أنه هم بسيئة ، وهم إن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة ؛ فعلمهم لايفتقر إلى ذلك بل مافي قلب ابن آدم يعلمونه ، بل ويبصرونه ويسمعون وسوسة نفسه ، بل الشيطان يلتقم قلبه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل قلبه عن ذكره وسوس ؛ ويعلم هل ذكر الله أم غفل عن ذكره ، ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغي فيزينها له .

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ في حديث ذكر صفية رضي الله عنها: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[2] » .

وقرب الملائكة والشيطان من قلب ابن آدم مما تواترت به الآثار ، سواء كان العبد مؤمناً أو كافراً . وأما أن يكون ذات الرب في قلب كل أحد كافر أو مؤمن فهذا باطل لم يقله أحد من سلف الأمة ولا نطق به كتاب ولا سنة ، بل الكتاب والسنة وإجماع السلف مع العقل يناقض ذلك . ولهذا لما ذكر الله سبحانه قربه من داعيه وعابديه قال : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) ، فهنا هو نفسه سبحانه وتعالى القريب الذي يجيب دعوة الداعي لا الملائكة، وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته : « إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، ان الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[3] .

---

(١) « صحيح البخاري » باب الرقائق .

(٢) « صحيح البخاري » في باب الصوم و « مسلم » في باب الاستئذان .

(٣) « صحيح مسلم » باب التوبة وقد مضى تخريجه بالتفصيل .

وذلك لأن الله سبحانه قريب من قلب الداعي فهو أقرب إليه من عنق راحلته، وقربه من قلب الداعي له معنى متفق عليه بين أهل الاثبات الذين يقولون : إن الله فوق العرش ، ومعنى آخر فيه نزاع . فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعي إليه ، كما يقرب إليه قلب الساجد ، كما ثبت في « الصحيح » : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد »[1] . فالساجد يقرب الرب إليه فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر صار الآخر إليه قريباً بالضرورة . وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه ، وقد وصف الله أنه يقرب إليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لله ولا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء - ٧٢] ، وقال : والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ اولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) [الواقعة - ١٠] ، وقال تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) وقال تعالى : (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) وقال : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) [الإسراء - ٥٧] ، وقال : (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيا) [مريم - ٥٢] .

وأما قرب الرب قرباً يقوم به بفعله القائم بنفسه ، فهذا تنفيه الكلابية ومن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته ، وأما السلف وأئمة الحديث والسنة ، فلا يمنعون ذلك ، وكذلك كثير من أهل الكلام . فنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ونزوله عشية عرفة ، ونحو ذلك هو من هذا الباب ، ولهذا حد النزول بأنه إلى السماء الدنيا ، وكذلك تكليمه لموسى عليه السلام، فإنه لوأريد مجرد تقريب الحجاج وقوام الليل إليه لم يخص نزوله سماء الدنيا كما لم يخص ذلك في إجابة الداعي وقرب العابدين له، قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان) ، وقال : « من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً[2] »،

---

(١) « صحيح مسلم » ، كتاب الصلاة .

(٢) تقدم ذكر وتخريج هذا الحديث .

وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه ، بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاء على تقربه باختياره. فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر، زاده الرب قرباً إليه، حتى يكون كالمتقرب بذراع . فكذلك قرب الرب من قلب العابد ، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والايمان به ، وله المثل الأعلى، وهذا أيضاً لانزاع فيه ؛ وذلك أن العبد يصير محباً لما أحب الرب ، مبغضاً لما أبغض ، موالياً لمن يوالي ، معادياً لمن يعادي ؛ فيتحد مراده مع المراد المأمور به الذي يحبه الله ويرضاه .

وهذا مما يدخل في موالاة العبد لربه، وموالاة الرب لعبده ، فإن الولاية ضد العداوة، والولاية تتضمن المحبة والموافقة ، والعداوة تتضمن البغض والمخالفة . وقد ثبت في «صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه » .

فأخبر سبحانه وتعالى أنه يقرب العبد بالفرائض ، ولايزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه الله فيصير العبد محبوبا لله ، كما قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) [آل عمران — ٣١] ، وقال تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) [المائدة — ٥٤] ، وقال تعالى : (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة — ١٩٥] ، وقال تعالى : (وَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة — ٥] ، وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة — ٢٢٢] ، وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) [الصف – ٤] ، وقال تعالى: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ)[التوبة-١٠٨]، وقال تعالى : (وَما ضَعُفُوا وَما اسْتَكانُوا ، واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران – ١٤٦] .

فقد أخبر أنه يحب المتبعين لرسوله والمجاهدين في سبيله ، وأنه يحب المتقين والصابرين والتوابين والمتطهرين ، وهو سبحانه يحب كل ما أمر به أمر إيجاب أواستحباب .

وقوله: (ونعلمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نفسُهُ ونحنُ أقربُ إليهِ منْ حبلِ الوريد) [ق – ١٦] ، يقتضي أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما يوسوس به العبد نفسه، كما قال : (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، بَلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف – ٨٠] فهو يسمع ومن يشاء من الملائكة يسمعون ومن شاء من الملائكة .

وأما الكتابة فرسله يكتبون ، كما قال ههنا : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحيي المَوْتَى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُمْ)[يس – ١٢]، فأخبر بالكتابة بقوله : « نحن » ؛ لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) مثل قوله : (نكتب ما قدموا وآثارهم) لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا يكتبون عمله بأمره ، قال ذلك ، وقربه من كل أحد بتوسط الملائكة كتكليمه كل أحد بتوسط الرسل ، كما قال تعالى : (وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشَاءُ) [الشورى – ٥١] .

فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة في النفس ، والظاهرة على اللسان ، وقال تعالى : (وإنَّ عَلَيْكُمَ لحافِظِينَ . كِرَاماً كاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار - ١٠ - ١٢] .

وقد غلط طائفة ظنوا أنه نفسه الذي يسمع منه القرآن ، وهو الذى يقرؤه بنفسه بلا واسطةعند قراءة كل قارىء، كما غلطوا في القرب، وهم طائفة من متأخري أهل الحديث ومتأخري الصوفية .

ومن الناس من يفسر قول القائلين : بأنه أقرب إلى كل شيء من نفس ذلك الشيء : بأن الأشياء معدومة من جهة أنفسها ، وإنما هي موجودة بخلق الرب سبحانه وتعالى لها ، وهي باقية ببقائه ، وهو سبحانه وتعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلا موجود إلا بايجاده ، ولا باق إلا ببقائه . فلو قدر أنه لم يشأ خلقها وتكوينها لكانت باقية على العدم لا وجود لها أصلًا ، فصار هو أقرب إليها من ذواتها ، فتكوين الشيء وخلقه وإيجاده هو فعل الرب سبحانه وتعالى ، وبه كان الشيء موجوداً وكان ذاتاً محققة في الخارج، والموجود دائماً محتاج إلى خالقه ، لايستغني عنه طرفة عين، فكان موجوداً بنسبته إلى خالقه ، ومعدوماً بنسبته إلى نفسه فإنه بالنظر إلى نفسه لايستحق إلا العدم فكان الرب أقرب إلى المخلوقات من المخلوقات إلى نفسها بهذا الاعتبار . وقد يفسر بعضهم قوله تعالى : (كلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وَجْهَهُ) بهذا المعنى، فإن الأشياء كلها بالنظر إلى أنفسها عدم محض، ونفي صرف ، وإنما هي موجودة تامة بالوجه الذي لها إلى الخالق ، وهو تعلقها به ، وبمشيئته وقدرته ، فباعتبار هذا الوجه كانت موجودة ، وبالوجه الذي يلي أنفسها لاتكون إلا معدومة ، وقد يفسرون بذلك قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل [1]

---

(١) والبيت بتمامه :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل .

ولا يقال : هذه المقالة صحيحة في نفسها ، فإنها لولا خلق الله للأشياء لم تكن موجودة ، ولولا إبقاؤه لها لم تكن باقية . وقد تكلم النظار في سبب افتقارها إليه هل هو الحدوث ـ فلا تحتاج إلا في حال الاحداث كما يقول ذلك من يقوله من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ـ أو هو الامكان الذي يظن أنه يكون بلا حدوث بل يكون الممكن المعلول قديماً أزلياً ، ويمكن افتقارها في حال البقاء بلا حدوث كما يقوله ابن سينا وطائفة ؟

وكلا القولين خطأ كما قد بسط في موضعه ، وبيّن أن الامكان والحدوث متلازمان كما عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين حتى قدماء الفلاسفة كأرسطو وأتباعه ، فإنهم أيضاً يقولون : إن كل ممكن فهو محدث ، وإنما خالفهم في ذلك ابن سينا وطائفة ، ولهذا أنكر ذلك عليه إخوانه من الفلاسفة كابن رشد وغيره ، والمخلوقات مفتقرة إلى الخالق ، فالفقر وصف لازم لها دائماً لا تزال مفتقرة إليه ، والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار ؛ لا أن هذين الوصفين جعلا الشيء مفتقراً بل فقر الأشياء إلى خالقها ، لازم لها لا يحتاج إلى علة ، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة ، وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة ، بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته إلا فقيرة فقراً لازماً لها لا يستغني إلا بالله .

وهذا من معاني « الصمد » ، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء ، ويستغني عن كل شيء ، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ، ومن جهة إلاهيته ، فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم ، وهذا تحقيق قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين). فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء ، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله ـ فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته ـ وإلا كانت أعمالاً فاسدة، فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية كما افتقرت إلى العلة الفاعلية ، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً ، ولولا ذلك لم يفعل ، فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات ، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى

قوله : (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا) [الأنبياء - ٢٢] ، ولم يقل لعدمتا ؛ وهذا معنى قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وهو كالدعاء المأثور : « أشهد أن كل معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطل إلا وجهك الكريم » ولفظ الباطل يراد به المعدوم ، ويراد به مالا ينفع ، كقول النبي ﷺ : « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته لزوجته ، فإنهن من الحق »[1] . وقوله عن عمر رضي الله عنه : « إن هذا الرجل لايحب الباطل » . ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال : إذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل في أيهما يجعل الغناء ؟ قال السائل : من الباطل ؛ قال : (فَماذا بَعْدَ الحَقِّ إلا الضَّلال) [يونس - ٣٢] . ومنه قوله تعالى : (ذلِكَ بِأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ . وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ) [الحج - ٦٢] ، فإن الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لاينفع ،والمقصود منها لايحصل ؛ فهو باطل ، واعتقاد ألوهيتها باطل ، أي: غير مطابق ، واتصافها بالإلهية في أنفسها باطل ، لا بمعنى أنه معدوم .

ومنه قوله تعالى : (بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فإذا هُوَ زاهِقٌ) [الأنبياء - ١٨] ، وقوله : (وقُلْ جَاءَ الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كانَ

---

(١) أورده في « الترغيب والترهيب » في حديث طويل عن عطاء بن أبي رباح قال : رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاري رضي الله عنه يرتميان ، قال أحدهما فجلس ، فقال له الآخر : كسلت ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لهو أو سهو إلا أربعة خصال : مشي الرجل بين الغرضين ، وتأديبه فرسه ،وملاعبته أهله ، وتعليم السباحة » .

قال المنذري : رواه الطبراني في « الكبير » بإسناد جيد .

زَهُوقاً) [الإسراء - ٨١] ، فإن الكذب باطل لأنه غير مطابق ، وكل فعل ما لا ينفع باطل ، لأنه ليس له غاية موجودة محمودة ، فقول النبي ﷺ : « أصدق كلمة قالهـــا شاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ؛

هذا معناه أن كل معبود من دون الله باطل، كقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ، وأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ) [الحج - ٦٢] ، وقال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ، ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللهُ ، فَقُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلا الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) [يونس - ٣١ ، ٣٢] ، وقد قال قبل هذا: (وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ وضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [يونس - ٣٠]، كما قال في الأنعام : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ) [الأنعام - ٦١ ، ٦٢] ، وقال: (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ) [محمد - ٣] .

ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال : كيف تجدك ؟ قال أجدني مردوداً إلى الله مولاي الحق ، قال تعالى : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ) [النور - ٢٤] ، وقد أقروا بوجوده في الدنيا ، لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ؛ ولهذا قال : (هو الحق) بصيغة الحصر ، فإنه يومئذ لا يبقى أحد يدعي فيه الإلهية ، ولا أحد يشرك بربه أحداً .

فصل

وإذا عرف تنزيه الرب عن صفات النقص مطلقاً ، فلا يوصف بالسفول ولا علو شيء عليه بوجه من الوجوه ، بل هو العلي الأعلى الذي لا يكون إلا أعلى ، وهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، كما أخبر النبي ﷺ ، وأنه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من الأفعال اللازمة والمتعدية ، لا النزول ولا الاستواء ولا غير ذلك ، فيجب مع ذلك إثبات ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ، والأدلة العقلية الصحيحة توافق ذلك لاتناقضه ، ولكن السمع والعقل يناقضان البدع المخالفة للكتاب والسنة ، والسلف بل الصحابة والتابعون لهم باحسان ، كانوا يقرون أفعاله من الاستواء والنزول وغيرهما على ما هي عليه .

قال أبو محمد بن أبي حاتم في « تفسيره » ، ثنا عصام بن الرواد ، ثنا آدم ، ثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، (ثمّ استوى إلى السّماء) يقول : ارتفع . قال : وروي عن الحسن ، يعني البصري ، والربيع بن أنس مثله كذلك .

وذكر البخاري في « صحيحه » في كتاب التوحيد قال : قال أبو العالية : (استوى إلى السّماء) [البقرة - ٢٩] ، ارتفع فسوى خلقهن . وقال مجاهد : (استوى على العرشِ) [الأعراف - ٥٤] ، علا على العرش . وكذلك ذكر ابن أبي حاتم في « تفسيره » في قوله : (ثمّ استوى على العرشِ) [الأعراف - ٥٤] ، وروي بهذا الاسناد عن أبي العالية وعن الحسن وعن الربيع مثل قول أبي العالية . وروى باسناده (ثمّ استوى على العرشِ) ، قال : في اليوم السابع .

وقال أبو عمرو الطلمنكي : وأجمعوا - يعني أهل السنة والجماعة - على أن لله عرشاً ، وعلى أنه مستو على عرشه ، وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه . قال : فأجمع المسلمون

من أهل السنة على أن معنى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) [الحديد - ٤] ، ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء .

قال : وقال أهل السنة في قوله : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه - ٥] ، الاستواء من الله على عرشه المجيد على الحقيقة لا على المجاز ، واستدلوا بقول الله : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) [المؤمنون - ٢٨] ، وبقوله : (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ) [الزخرف - ١٣] ، وبقوله : (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [هود - ٤٤] ، إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات في هذا على أقوال : فقال مالك رحمه الله : إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال عبد الله بن المبارك ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير : إن معنى استوى على العرش: استقر ، وهو قول القتيبي. وقال غير هؤلاء : استوى، أي: ظهر . وقال أبوعبيدة معمر بن المثنى : استوى بمعنى علا ، وتقـــول العرب : استويت على ظهر الفرس ، بمعنى علوت عليه ، واستويت على سقف البيت ، بمعنى علوت عليه ، ويقال : استويت على السطح بمعناه ،وقال الله تعالى: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ) [المؤمنون - ٢٨] ، وقال : (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ) [الزخرف - ١٣] ، وقال : (واستوت على الجودي) وقال : (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [الأعراف - ٥٤] ، بمعنى علا على العرش .

وقول الحسن ، وقول مالك من أنبل جواب وقع في هذه المسألة وأشده استيعاباً ، لأن فيه نبذ التكييف ، وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه واستحسنوه .

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى .

وقال الثعلبي: وقال الكلبي ومقاتل: (ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ) [الأعراف – ٥٤]، يعني استقر ، قال : وقال أبو عبيدة : صعد ، وقيل : استولى ، وقيل : ملك ، واختار هو ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه أقبل على خلق العرش، وعمد إلى خلقه ، قال: ويدل عليه قوله : (ثم اسْتَوى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ) [فصلت – ١١] ، أي : عمد إلى خلق السماء . وهذا الوجه من أضعف الوجوه ، فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات والأرض ، وكذلك ثبت في «صحيح البخاري» عن عمران بن حصين ، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر الحكيم كل شيء ، ثم خلق السماوات والأرض »[1] ، فإذا كان العرش مخلوقاً قبل خلق السماوات والأرض ، فكيف يكون استواؤه عمدَه إلى خلقه له ؟ لو كان هذا يعرف في اللغة أن استوى على كذا بمعنى أنه عمد إلى فعله ، وهذا لا يعرف قط في اللغة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، لا في نظم ولا في نثر .

ومن قال : استوى بمعنى عمد ذكره في قوله : (ثُمَّ اسْتَوى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ) [السجدة – ١١] ، لأنه عدي بحرف الغاية ، كما يقال : عمدت إلى كذا ، وقصدت إلى كذا ، ولا يقال : عمدت على كذا ولا قصدت عليه ، مع أن ما ذكر في تلك

---

(١) هو في « صحيح البخاري » ، كتاب بدء الخلق ، من حديث طويل نصه : عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : « دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، عقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم ، فقال : اقبلوا البشرى يابني تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قد قبلنا يارسول الله ، قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، فنادى مناد ذهبت ناقتك يابن الحصين ، فانطلقت ، فإذا هي يقطع دونها السراب ؛ فوالله وددت أني كنت تركتها » .

الآية لايعرف في اللغة أيضاً ، ولاهو قول أحد من مفسري السلف ، بل المفسرون من السلف قولهم بخلاف ذلك كما قدمنا عن بعضهم، وإنما هذا القول وأمثاله ابتدع في الإسلام لما ظهر إنكار أفعال الرب التي تقوم به، ويفعلها بقدرته ومشيئته واختياره، فحينئذ صار يفسر القرآن من يفسره بما ينافي ذلك كما يفسر سائر أهل البدع القرآن على مايوافق أقاويلهم .وأما أن ينقل هذا التفسير عن أحد من السلف فلا ، بل أقوال السلف الثابتة عنهم متفقة في هذا الباب ، لايعرف لهم فيه قولان كما قد يختلفون أحياناً في بعض الآيات ، وإن اختلفت عباراتهم فمقصودهم واحد وهو إثبات علو الله على العرش .

فإن قيل : إذا كان الله لايزال عالياً على المخلوقات كما تقدم ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ قيل : هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروي « ثم يعرج » وهو سبحانه لم يزل فوق العرش ، فإن صعوده من جنس نزوله ، وإذا كان في نزوله لم يصر شيء من المخلوقات فوقه ، فهو سبحانه يصعد وإن لم يكن منها شيء فوقه .

وقوله : (ثم استوى إلى السماء) إنما فسروه بأنه ارتفع ، لأنه قال قبل هذا : (أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ : ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) [فصلت – ٣ – ٨] وهذه نزلت في (حم) بمكة ، ثم أنزل الله في المدينة سورة البقرة (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ

اسْتَوى إلى السَّماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ) [البقرة – ٢٨ ، ٢٩] فلما ذكر أن استواءه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها ، تضمن معنى الصعود ، لأن السماء فوق الأرض ، فالاستواء إليها ارتفاع إليها .

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فقبل ذلك لم يكن على العرش ؟ قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شيء عال عليه ، وليس كل عال على شيء مستوياً عليه .

ولهذا لا يقال لكل ما كان عالياً على غيره : إنه مستو عليه ، واستوى عليه ، ولكن كل ما قيل فيه : إنه استوى على غيره ، فإنه عال عليه . والذي أخبر الله أنه كان بعد خلق السماوات والأرض الاستواء لا مطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستوياً عليه قبل خلق السماوات والأرض لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عالياً عليه ولم يكن مستوياً عليه ، فلما خلق هذا العالم استوى عليه ، فالأصل أن علوه على المخلوقات وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك . وأما الاستواء ، فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته ، ولهذا قال فيه : (ثم استوى) . ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر ، وأما علوه على المخلوقات ، فهو عند أئمة أهل الاثبات من الصفات العقلية المعلومة بالعقل مع السمع ، وهذا اختيار أبي محمد بن كلاب وغيره ، وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى ، وقول جماهير أهل السنة والحديث ونظار المثبتة .

وهذا الباب ونحوه إنما اشتبه على كثير من الناس ، لأنهم صاروا يظنون ما وصف الله عز وجل به من جنس ما توصف به أجسامهم ، فيرون ذلك يستلزم الجمع بين الضدين ، فإن كونه فوق العرش مع نزوله يمتنع في مثل أجسامهم ، لكن مما يسهل عليهم معرفة إمكان هذا معرفة أرواحهم وصفاتها وأفعالها ، وأن الروح قد تعرج من النائم إلى السماء وهي لم تفارق البدن ، كما قال تعالى : (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ في

منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) [الزمر - ٤٢] وكذلك الساجد ، قال النبي ﷺ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » [١] . وكذلك تقرب الروح إلى الله في غير حال السجود مع أنها في بدنها ، ولهذا يقول بعض السلف: القلوب جوالة :قلب يجول حول العرش ، وقلب يجول حول الحش .

وإذا قبضت الروح عرج بها إلى الله في أدنى زمان ، ثم تعاد إلى البدن فتسأل وهي في البدن ، ولو كان الجسم هو الصاعد النازل لكان ذلك في مدة طويلة ، وكذلك ما وصف النبي ﷺ من حال الميت في قبره وسؤال منكر ونكير له ، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله ، فذلك قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) [إبراهيم - ٢٧] [٢] .

وكذلك في « صحيح البخاري » وغيره ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ان العبد إذا وضع في قبره وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً . وأما الكافر والمنافق فيقول: هاه هاه لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلان » [٣] .

---

(١) هو في مسلم وأبي داود والنسائي .

(٢) مر تخريج هذا الحديث .

(٣) تقدم تخريج هذا الحديث .

والناس في مثل هذا على ثلاثة أقوال : منهم من ينكر إقعاد الميت مطلقاً ، لأنه قد أحاط ببدنه من الحجارة والتراب ما لا يمكن قعوده معه ، وقد يكون في صخرة تطبق عليه ، وقد يوضع على بدنه ما يكشف فيوجد بحاله ونحو ذلك ، ولهذا صار بعض الناس إلى أن عذاب القبر إنما هو على الروح فقط كما يقوله ابن مسيرة وابن حزم ، وهذا قول منكر عند عامة أهل السنة والجماعة .

وصار آخرون يحتجون بالقدرة وبخبر الصادق ، ولا ينظرون إلى ما يعلم بالحس والمشاهدة وقدرة الله حق ، وخبر الصادق حق ، لكن الشأن في فهمهم .

وإذا عرف أن النائم يكون نائماً ، وتقعد روحه وتقوم وتمشي ، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه ، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب ، مع أن جسده مضطجع ، وعينيه مغمضة ، وفمه مطبق ، وأعضاءه ساكنة ، وقد يتحرك بدنه لقوة الحركة الداخلة ، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح لقوة الأمر في باطنه ، وكان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره ، فإن روحه تقعد وتجلس وتُسأل وتنعم وتعذب وتصيح وذلك متصل ببدنه ، مع كونه مضطجعاً في قبره . وقد يقوى الأمر حتى يظهر ذلك في بدنه ، وقد يرى خارجاً من قبره والعذاب عليه وملائكة العذاب موكلة به ، فيتحرك بدنه ويمشي ويخرج من قبره ، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين في قبورهم ، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب ، ومن يقعد بدنه أيضاً إذا قوي الأمر لكن هذا ليس لازماً في حق كل ميت ، كما أن قعود بدن النائم لما يراه ليس لازماً لكل نائم ، بل هو بحسب قوة الأمر .

وقد عرف أن أبداناً كثيرة لا يأكلها التراب كأبدان الأنبياء وغير الأنبياء من الصديقين وشهداء أحد وغير شهداء أحد ، والأخبار بذلك متواترة . لكن المقصود أن

ما ذكره النبي ﷺ من إقعاد الميت مطلقاً هو متناول لقعودهم ببواطنهم ، وإن كان ظاهر البدن مضطجعاً .

ومما يشبه هذا إخباره ﷺ بما رآه ليلة المعراج من الأنبياء في السماوات ، وأنه رأى آدم وعيسى ويحيى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم ، وأخبر أيضاً أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره وقد رآه أيضاً في السماوات . ومعلوم أن أبدان الأنبياء في القبور إلا عيسى وإدريس . وإذا كان موسى قائماً يصلي في قبره ، ثم رآه في السماء السادسة ، مع قرب الزمان ، فهذا أمر لا يحصل للجسد ، ومن هذا الباب أيضاً نزول الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه ، جبريل وغيره .

فإذا عرف أن ما وصف به الملائكة وأرواح الآدميين من جنس الحركة والصعود والنزول وغير ذلك لا يماثل حركة أجسام الآدميين ، وغيرها مما يشهده بالأبصار في الدنيا ، وأنه يمكن فيها ما لا يمكن في أجسام الآدميين ، كان ما يوصف به الرب من ذلك أولى بالإمكان ، وأبعد عن مماثلة نزول الأجسام ، بل نزوله لا يماثل نزول الملائكة وأرواح بني آدم وإن كان أقرب من نزول أجسامهم .

وإذا كان قعود الميت في قبره ليس هو مثل قعود البدن ، فما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ من لفظ القعود والجلوس في حق الله تعالى كحديث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيرهما أولى أن لا يماثل صفات أجسام العباد .

فصل

نزاع الناس في معنى « حديث النزول » وما أشبهه في الكتاب والسنة من الأفعال اللازمة المضافة إلى الرب سبحانه وتعالى مثل المجيء ، والاتيان ، والاستواء إلى السماء وعلى

العرش ، بل وفي الأفعال المتعدية مثل الخلق ، والإحسان ، والعدل وغير ذلك ، هو ناشىء عن نزاعهم في أصلين :

أحدهما : أن الرب تعالى هل يقوم به فعل من الأفعال ، فيكون خلقه للسماوات والأرض فعلاً فعله غير المخلوق ، أو أن فعله هو المفعول ، والخلق هو المخلوق ؟

على قولين معروفين :

والأول هو المأثور عن السلف ، وهو الذي ذكره البخاري في كتاب خلق أفعال العباد عن العلماء مطلقاً ، ولم يذكر فيه نزاعاً . وكذلك ذكره البغوي وغيره عن مذهب أهل السنة ، وكذلك ذكره أبو علي الثقفي والضبعي وغيرهما من أصحاب ابن خزيمة في العقيدة التي اتفقوا هم وابن خزيمة على أنها مذهب أهل السنة ، وكذلك ذكره الكلاباذي في كتاب « التعرف لمذهب التصوف » أنه مذهب الصوفية ، وهو مذهب الحنفية وهو مشهور عندهم ، وبعض المصنفين في الكلام كالرازي ونحوه ينصب الخلاف في ذلك معهم فيظن الظان ان هذا مما تفردوا به ، وهو قول السلف قاطبة وجمهور الطوائف ، وهو قول جمهور أصحاب أحمد ، متقدموهم كلهم وأكثر المتأخرين منهم ، وهو أحد قولي القاضي أبي يعلى . وكذلك هو قول أئمة المالكية والشافعية وأهل الحديث ، وأكثر أهل الكلام كالهشامية والكرامية كلهم ، وبعض المعتزلة ، وكثير من أساطين الفلاسفة ، متقدميهم ومتأخريهم .

وذهب آخرون من أهل الكلام الجهمية ، وأكثر المعتزلة والأشعرية إلى أن الخلق هو نفس المخلوق ، وليس لله عند هؤلاء صنع ولا فعل ولا خلق ولا إبداع إلا المخلوقات أنفسها ، وهو قول طائفة من الفلاسفة المتأخرين ، إذ قالوا بأن الرب مبدع كابن سينا ونحوه .

والحجة المشهورة لهؤلاء المتكلمين أنه لو كان خلق المخلوقات بخلق لكان ذلك الخلق إما قديماً وإما حادثاً ، فإن كان قديماً لزم قدم كل مخلوق ، وهذا مكابرة ، وإن كان حادثاً ، فإن قام بالرب لزم قيام الحوادث به ، وإن لم يقم به كان الخلق قائماً بغير الخالق ، وهذا ممتنع ،

وسواء قام به أو لم يقم به يفتقر ذلك الخلق إلى خلق آخر ويلزم التسلسل ، هذا عمدتهم .

وجواب السلف والجمهور عنها بمنع مقدماتها ، كل طائفة تمنع مقدمة ، ويلزمهم ذلك إلزاماً لا محيد لهم عنه .

أما الأولى فقولهم : لو كان قديماً لزم قدم المخلوق ، يمنعهم ذلك من يقول : بأن الخلق فعل قديم يقوم بالخالق والمخلوق محدث كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية والحنفية والحنبلية والشافعية والمالكية والصوفية وأهل الحديث ، وقالوا : أنتم وافقتمونا على أن إرادته قديمة أزلية مع تأخر المراد ، كذلك الخلق هو قديم أزلي وإن كان المخلوق متأخراً ، أو مهما قلتموه في الإرادة ألزمنا كم نظيره في الخلق وهذا جواب إلزامي جدلي لا حيلة لهم فيه .

وأما المقدمة الثانية ، وهي قولهم : لو كان حادثاً قائماً بالرب ، لزم قيام الحوادث وهو ممتنع ، فقد منعهم ذلك السلف وأئمة أهل الحديث ، وأساطين الفلاسفة وكثير من متقدميهم ومتأخريهم ، وكثير من أهل الكلام كالهشامية والكرامية ، وقالوا : لانسلم انتفاء اللازم ، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على ذلك في الأصل الثاني .

وأما الثالث ، [1] فقولهم : إن لم تقم به فهو محال ، فهذا لم يمنعهم إياه إلا طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، فمنهم من قال: بل الخلق يقوم بالمخلوق ، ومنهم من يقول: بل الخلق ليس في محل ، كما يقول المعتزلة البصريون فعل بإرادة لا في محل . وهذا ممتنع لا أعرفه عن أحد من السلف وأهل الحديث والفقهاء والصوفية والفلاسفة .

وأما المقدمة الرابعة ، وهي قولهم : الخلق الحادث يفتقر إلى خلق آخر ، فقد منعهم من ذلك عامة من يقول بخلق حادث من أهل الحديث والكلام والفلسفة والفقه والتصوف وغيرهم : كأبي معاذ التومني ، وزهير الابري ، والهشامية ، والكرامية ، وداود بن علي

---

(١) أي المقدمة الثالثة .

الأصفهاني ، وأصحابه ، وأهل الحديث ، والسلف الذين ذكرهم البخاري وغيره ، وقالوا : إذا خلق السماوات والأرض بخلق ، لم يلزم أن يحتاج ذلك الخلق إلى خلق آخر ، ولكن ذلك الخلق يحصل بقدرته ومشيئته وإن كان ذلك الخلق حادثاً . والدليل على فساد إلزامهم أن الحادث إما أن يكفي في حصول القدرة والمشيئة ، وإما أن لا يكفي ، فإن لم يكف ذلك ، بطل قولهم: إن المخلوقات تحدث بمجرد القدرة والإرادة بلا خلق ، وإذا بطل قولهم ، تبين أنه لابد للمخلوق من خالق خلقه ، وهو المطلوب . وإن كفى في حصول المخلوق القدرة والمشيئة ، جاز حصول الخلق الذي يخلق به المخلوقات والقدرة والمشيئة ، ولم يحتج إلى خلق آخر ، فتبين أنه على كل تقدير لا يلزم أن يقال : خلقت المخلوقات بلا خلق ، بل يجوز أن يقال : خلقت بخلق ، وهو المطلوب .

وتبين أن النفاة ليس لهم قط حجة مبنية على مقدمة إلا وقد نقضوا تلك المقدمة في موضع آخر ، فمقدمات حجتهم كلها منتقضة .

وأيضاً فمن المعقول أن المفعول المنفصل الذي يفعله الفاعل لا يكون إلا بفعل يقوم بذاته وأما نفس فعله القائم بذاته فلا يفتقر إلى فعل آخر ، بل يحصل بقدرته ومشيئته ، ولهذا كان القائلون بهذا يقولون : إن الخلق حادث ، ولا يقولون هو مخلوق ، وتنازعوا هل يقال : إنه محدث ؟ على قولين .

وكذلك يقولون : إنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وكلامه هو حديث ، وهو أحسن الحديث . وليس بمخلوق باتفاقهم ، ويسمى حديثاً وحادثاً . وهل يسمى محدثاً ؟ على قولين لهم . ومن كان من عادته أنه لا يطلق لفظ المحدث إلا على المخلوق المنفصل — كما كان هذا الاصطلاح هو المشهور عند المتناظرين الذين تناظروا في القرآن في محنة الامام أحمد رحمه الله ، وكانوا لا يعرفون للمحدث معنى إلا المخلوق المنفصل — فعلى هذا الاصطلاح لا يجوز عند أهل السنة أن يقال : القرآن محدث ، بل من قال : إنه محدث ، فقد قال : انه مخلوق .

ولهذا أنكر الإمام أحمد هذا الإطلاق على داود لما كتب إليه أنه تكلم بذلك ، فظن الذين يتكلمون بهذا الاصطلاح أنه أراد هذا فأنكره أئمة السنة ، وداود نفسه لم يكن هذا قصده ، بل هو وأئمة أصحابه متفقون على أن كلام الله غـــير مخلوق ، وإنما كان مقصوده أنه قائم بنفسه ، وهو قول غير واحد من أئمة السلف ، وهو قول البخاري وغيره . والنزاع في ذلك بين أهل السنة لفظي ، فإنهم متفقون على أنه ليس بمخلوق منفصل ، ومتفقون على أن كلام الله قائم بذاته ، وكان أئمة السنة : كأحمد وأمثاله ، والبخاري وأمثاله ، وداود وأمثاله ، وابن المبارك وأمثاله ، وابن خزيمة ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وابن أبي شيبة وغيرهم ، متفقين على أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولم يقل أحد منهم : إن القرآن قديم ، وإن أول من شهر عنه أنه قال ذلك هو ابن كلاب .

وكان الإمام أحمد يحذر من الكلابية ، وأمر بهجر الحارث المحاسبي ، لكونه كان منهم ، وقد قيل عن الحارث : إنه رجع في القرآن عن قول ابن كلاب ، وانه كان يقول : إن الله يتكلم بصوت . وممن ذكر ذلك عنه الكلاباذي في كتاب « التعرف لمذهب التصوف » .

والمقصود هنا أن قول القائل : لو كان خلقه للأشياء ليس هو الأشياء ، لافتقر الخلق إلى خلق آخر ، فيكون الخلق مخلوقاً ؛ ممنوع ، بل الخلق يحصل بقدرة الرب ومشيئته ، والمخلوق يحصل بالخلق .

وأما المقدمة الخامسة وهو أن ذلك يفضي إلى التسلسل ، فهذه المقدمة تقال على وجهين :

أحدهما أن الخلق يفتقر إلى خلق آخر ، وذلك الخلق إلى خلق آخر كما تقدم . والثاني أن يقال : هب أنه لا يفتقر إلى خلق ، لكن يفتقر إلى سبب يحصل به الخلق ، وإن لم يسم ذلك خلقاً ، وذلك السبب إنما تم عنـد وجود الخلق ، فتمامه حادث ، وكل حادث فلا بد له من سبب ، إذ لو كان ذلك الخلق لا يفتقر إلى سبب حادث للزم وجود الحادث بلا سبب

حادث . وإن قيل : إن السبب التام قديم ، لزم من ذلك تأخر المسبب عن سببه التام ، وهذا ممتنع .

وهنا للقائلين بأن الخلق غير المخلوق وان الخلق حادث ، ثلاثة أجوبة :

أحدها : قول من يقول : الخلق الحادث لا يفتقر إلى سبب حادث ، لا إلى خلق ولا إلى غيره ، قالوا : أنتم يامعشر المنازعين كلكم يقول : إنه قديحدث حادثبلا سبب حادث، فإنه من قال : المخلوق غيرالخلق ، فالمخلوقات كلهاحادثة عنده بلا سبب حادث ، ومن قال: الخلق قديم ، فلا ريب ان القديم لا اختصاصله بوقت معين ، فالمخلوق الحادث في وقته المعين لم يحصل له سبب حادث . قالوا : وإذا كان هذا لازماً على كل تقدير ، لم يخص بجوابه ، بل نقول : المخلوق حدث بالخلق ، والخلق حصل بقدرة الله ومشيئته القديمة من غير افتقار إلى سبب آخر . وهذا قول كثير منالطوائف من أهل الحديث ، والكلام كالكرامية وغيرهم.

الجواب الثاني : قول من يقول من المعتزلة : إن الخلق الحادث قائم بالمخلوق أو قائم لابمحل ، كما يقولون في الارادة : إنها حادثة لافي محـــل من غير سبب اقتضى حدوثها ، بل أحدثها بمجرد القدرة .

الجواب الثالث : جواب معمر وأصحابه الذين يسمون أهل المعاني ، فإنهم يقولون بالتسلسل في آن واحد ، فيقولون : إن الخلق له خلق وللخلق خلق ، وللخلق خلق آخر ، وهلم جرا لا إلى نهاية ، وذلك موجود كله في آن واحد ، وهذا مشهور عنهم .

والجواب الرابع : قول من يقول : الخلق الحادث يفتقر إلى سبب حادث ، وكذلك ذلك السبب ، وهلم جرا ، وهذا يستلزم دوام نوع ذلك ، وهذا غير ممتنع ، فإن مذهب السلف أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وكلماته لانهاية لها ، وكل كلام مسبوق بكلام قبله لا إلى نهاية محدودة ، وهو سبحانه يتكلم بقدرته ومشيئته .

وكذلك يقولون : الحي لايكون إلا فعالاً ، كما قاله البخاري ، وذكره عن نعيم ابن حماد ، وعثمان بن سعيد ، وابن خزيمة وغيرهم ، ولايكون إلا متحركاً ، كما قال عثمان بن سعيد الدارمي وغيره ، وكل منهما يذكر أن ذلك مذهب أهل السنة. وهكذا يقول ذلك من أساطين الفلاسفة من ذكر قوله بذلك في غير هذا الموضع من متقدميهم ومتأخريهم .

قالوا : وهذا تسلسل في الآثار ، والبرهان إنما دل على امتناع التسلسل في المؤثرين فإن هذا مما يعلم فساده بصريح المعقول ، وهو مما اتفق العقلاء على امتناعه ، كما بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

فأما كونه سبحانه وتعالى يتكلم كلمات لانهاية لها وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهذا هو الذي يدل عليه صحيح المنقول وصريح المعقول ، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، والفلاسفة توافقوا على دوام هذا النوع ، وقدماء أساطينهم يوافقون على قيام ذلك بذات الله كما يقوله أئمة المسلمين وسلفهم ، والذين قالوا : إن ذلك ممتنـــع هم أهل الكلام المحدث في الاسلام من الجهمية والمعتزلة، وهم الذين استدلوا على حدوث كل ماتقوم به الحوادث بامتناع حوادث لا أول لها .

ومن هنا يظهر الأصل الثاني [1] الذي تبنى عليه أفعال الرب تعالى اللازمة والمتعدية ، وهو أنه سبحانه هل تقوم به الأمور الاختيارية المتعلقة بقدرته ومشيئته أم لا ؟ فمذهب السلف وأئمة الحديث ، وكثير من طوائف الكلام والفلاسفة جواز ذلك ، وذهب نفـــاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والفلاسفة والكلابية من مثبتة الصفات إلى امتناع قيام ذلك به .

أما نفاة الصفات ، فإنهم ينفون هذا وغيره ، ويقولون : هـــذا كله أعراض ، والأعراض لاتقوم إلا بجسم ، والأجسام محدثة ، فلو قامت به الصفات لكان محدثاً .

---

(١) كان شيخ الاسلام في أول الفصل قد رد نزاع الناس في حديث النزول وبعض الآيات والأحاديث إلى أصلين ،فلما استوفى الحديث عن الأصل الأول بدأ الآن بالحديث عن الأصل الثاني.

أما الكلابية فإنهم يقولون : نحن نقول : تقوم به الصفات ، ولانقول : هي أعراض ، فإن العرض لايبقى زمانين ، وصفات الرب تبارك وتعالى عندنا باقية ، بخلاف الأعراض القائمة بالمخلوقات ، فإن الأعراض عندنا لاتبقى زمانين .

وأما جمهور العقلاء ، فنازعوهم في هذا وقالوا : بل السواد والبياض الذي كان موجوداً من ساعة هو هذا السواد بعينه ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، إذ المقصود هنا التنبيه على مقالات الطوائف في هذا الأصل .

قال الكلابية : وأما الحوادث فلو قامت به للزم أن لايخلو منها ، فإن القابل للشيء لايخلو عنه وعن ضده ، وإذا لم يخل منها لزم أن يكون حادثاً ، فإن هذا هو الدليل على حدوث الأجسام هذا عمدتهم في هذا الأصل ، والذين خالفوهم قد يمنعون المقدمتين كليهما ، وقد يمنعون واحدة منهما .

وكثير من أهل الكلام والحديث منعوا الأولى : كالهشامية والكرامية ، وأبي معاذ وزهير الابري . وكذلك الرازي ، والآمدي ، وغيرهما من الأشعرية منعوا المقدمة الأولى وبينوا فسادها ، وأنه لادليل لمن ادعاها على دعواه ، بل قد يكون الشيء قابلاً للشيء وهو خال منه ومن ضده ، كما هو الموجود ؛ فإن القائلين بهذا الأصل التزموا أن كل جسم له طعم ولون وريح ، وغير ذلك من أجناس الأعراض التي تقبلها الأجسام . فقال جمهور العقلاء : هذا مكابرة ظاهرة ، ودعوى بلا حجة ، وإنما التزمته الكلابية لأجل هذا الأصل .

وأما المقدمة الثانية : وهو منع دوام نوع الحادث ، فهذه يمنعها أئمة السنة والحديث القائلين بأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لانهاية لها ، والقائلين بأنه لم يزل فعالاً ، كما يقوله البخاري وغيره ، والذين يقولون : الحركة من لوازم الحياة ، فيمتنع وجود حياة بلا حركة أصلاً كما يقوله الدارمي وغيره .

وقد روى الثعلبي في « تفسيره » بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق رضي عنه : أنه سئل عن قوله تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً) [المؤمنون - ١١٦] لم خلق الله الخلق ؟ فقال : لأن الله كان محسناً بما لم يزل فيما لم يزل ، فأراد الله أن يفيض إحسانه إلى خلقه ، وكان غنياً عنهم ، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة ، ولكن خلقهم وأحسن إليهم ، وأرسل إليهم الرسل حتى يفصلوا بين الحق والباطل ، فمن أحسن كافأه بالجنة ، ومن عصى كافأه بالنار .

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : (وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) [النساء - ٩٦] (وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) [النساء - ١٦] قال : كان ولم يزل ولا يزال .

ويمنعها أيضاً جمهور الفلاسفة ، ولكن الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية يقولون بامتناعها ، وهي من الأصول الكبار التي يبتني عليها الكلام في كلام الله تعالى وفي خلقه .

وهذا القول هو أصل الكلام المحدث في الاسلام الذي ذمه السلف والأئمة ؛ فإن أصحاب هذا الكلام في الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم ظنوا أن معنى كون الله خالقاً لكل شيء - كما دل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم - أنه سبحانه وتعالى لم يزل معطلاً لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بشيء أصلاً ، بل هو وحده موجود بلا كلام يقوله ، ولا فعل يفعله ، ثم إنه أحدث ما أحدث من كلامه ومفعولاته المنفصلة عنه ، فأحدث العالم ، وظنوا أن ماجاءت به الرسل ، واتفق عليه أهل الملل - من أن كل ما سوى الله مخلوق ، والله خالق كل شيء - هذا معناه ، وأن ضد هذا قول من قال بقدم العالم أو بقدم مادته ، فصاروا في كتبهم الكلامية لا يذكرون إلا قولين :

أحدهما : قول المسلمين وغيرهم من أهل الملل : إن العالم محدث ، ومعناه عندهم ماتقدم.

والثاني : قول الدهرية الذين يقولون : العالم قديم ، وصاروا يحكون في كتب الكلام

والمقالات أن مذهب أهل الملل قاطبة من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم أن الله كان فيما لم يزل لايفعل شيئاً ، ولايتكلم بشيء ، ثم إنه أحدث العالم ، ومذهب الدهرية أن العالم قديم .

والمشهور عن القائلين بقدم العالم أنه لاصانع له ، فينكرون الصانع جل جلاله . وقد ذكر أهل المقالات أن أول من قال من الفلاسفة بقدم العالم أرسطو صاحب التعاليم الفلسفية والمنطقي والطبيعي والإلهي . وأرسطو وأصحابه القدماء يثبتون في كتبهم العلة الأولى ، ويقولون : إن الفلك يتحرك للتشبه بها ، فهي علة له بهذا الاعتبار ، إذ لولا وجود من تشبه به الفلك لم يتحرك ، وحركته من لوازم وجوده ، فلو بطلت حركته لفسد . ولم يقل أرسطو : إن العلة الأولى أبدعت الافلاك ، ولا قال : هو موجب بذاته ، كما يقوله من يقول من متأخري الفلاسفة كابن سينا وأمثاله ، ولا قال : إن الفلك قديم وهو ممكن بذاته ، بل كان عندهم ما عند سائر العقلاء أن الممكن هو الذي يمكن وجوده وعدمه ، ولايكون كذلك إلا ما كان محدثاً ، والفلك عندهم ليس بممكن ، بل هو قديم لم يزل وحقيقة قولهم : إنه واجب لم يزل ولايزال .

فلهذا لايوجد في عامة كتب الكلام المتقدم القول بقدم العالم ، إلا عمن ينكر الصانع ، فلما أظهر من أظهر من الفلاسفة كابن سينا وأمثاله أن العالم قديم عن علة موجبة بالذات قديمة ، صار هذا قولاً آخر للقائلين بقدم العالم ، أزالوا به ما كان يظهر من شناعة قولهم من إنكار صانع العالم ، وصاروا أيضاً يطلقون ألفاظ المسلمين من أنه مصنوع ومحدث ونحو ذلك ، ولكن مرادهم بذلك أنه معلول قديم أزلي لايرون بذلك أن الله أحدث شيئاً بعد أن لم يكن ، وإذا قالوا : إن الله خالق كل شيء ، فهذا معناه عندهم ؛ فصار المتأخرون من المتكلمين يذكرون هذا القول ، والقول المعروف عن أهل الكلام في معني حدوث

العالم الذي يحكونه عن أهل الملل كما تقدم ، كما يذكر ذلك الشهرستاني والرازي والآمدي وغيرهم .

وهذا الأصل الذي ابتدعه الجهمية ومن اتبعهم من أهل الكلام من امتناع دوام فعل الله ، وهو الذي بنوا عليه أصول دينهم ، وجعلوا ذلك أصل دين المسلمين، فقالوا : الأجسام لاتخلو من الحوادث ، وما لا لايخلو عن الحوادث فهو حادث ، أو مالا يسبق الحوادث فهو حادث ، لأن ما لا يخلو عنها ولا يسبقها يكون معها أو بعدها ، وما كان مع الحوادث أو بعدها فهو حادث. وكثير منهم لايذكر على ذلك دليلًا لكون ذلك ظاهراً ، إذ لم يفرقوا بين نوع الحوادث وبين الحادث المعين . لكن من تفطن منهم للفرق ، فإنه يذكر دليلًا على ذلك بأن يقول : الحوادث لاتدوم بل يمتنع وجود حوادث لا أول لها ، ومنهم من يمنع أيضاً وجود حوادث لا آخر لها ،كما يقول ذلك إماما هذا الكلام : الجهم بن صفوان وأبو الهذيل.

ولما كان حقيقة هذا القول أن الله سبحانه لم يكن قادراً على الفعل في الأزل ، بل صار قادراً على الفعل بعد أن لم يكن قادراً عليه ، كان هذا مما أنكره المسلمون على هؤلاء ، حتى إنه كان من البدع التي ذكروها من بدع الأشعري في الفتنة التي جرت بخراسان لما أظهروا لعنة أهل البدع ، والقصة مشهورة .

ثم إن أهل الكلام وأئمتهم كالنظام والعلاف وغيرهما من شيوخ المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من سائر الطوائف يقولون : إن دين الاسلام إنما يقوم على هذا الأصل ، وإنه لايعرف أن محمداً رسول الله ﷺ إلا بهذا الأصل ، فإن معرفة الرسول متوقفة على معرفة المرسِل ، فلا بد من إثبات العلم بالصانع أولاً ، ومعرفة ما يجوز عليه وما لا يجوز عليه . قالوا : وهذا لايمكن معرفته إلا بهذه الطريقة ، فإنه لاسبيل إلى معرفة الصانع فيما زعموا إلا بمعرفة مخلوقاته ، ولا سبيل إلى معرفة حدوث المخلوقات إلا بهذه الطريق فيما زعموا ، ويقول أكثرهم: أول ما يجب على الانسان معرفة الله ، ولا يمكن معرفته إلا بهذا الطريق.

ويقول كثير منهم: إن هذه طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام المذكورة في قوله : (لاأُحِبُّ الآفِلِينَ) [الأنعام - ٧٦] قالوا : فإن إبراهيم استدل بالأفول - وهو الحركة والانتقال - على أن المتحرك لايكون إلهاً . قالوا : ولهذا يجب تأويل ما ورد عن الرسول ﷺ مخالفاً لذلك من وصف الرب بالاتيان والمجيء والنزول وغير ذلك ، فإن كونه نبياً لم يعرف إلا بهذا الدليل العقلي فلو قدح في ذلك ، لزم القدح في دليل نبوته ، فلم يعرف أنه رسول الله وهذا ونحوه هو الدليل العقلي الذي يقولون : إنه عارض السمع والعقل ، ونقول: إذا تعارض السمع والعقل ، امتنع تصديقها وتكذيبها ، وتصديق السمع دون العقل ؛ لأن العقل هو أصل السمع ، فلو جرح أصل الشرع كان جرحاً له .

ولأجل هذه الطريق أنكرت الجهمية والمعتزلة الصفات والرؤية ، وقالوا : القرآن مخلوق ، ولأجلها قالت الجهمية بفناء الجنة والنار ، ولأجلها قال العلاف بفناء حركاتهم ، ولأجلها فرع كثير من أهل الكلام كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فقال لهم الناس : أما قولكم: إن هذه الطريق هي الأصل في معرفة دين الاسلام ونبوة الرسول ﷺ ، فهذا مما يُعلم فساده بالاضطرار من دين الاسلام ، فإنه من المعلوم لكل من علم حال الرسول ﷺ وأصحابه ، وما جاء به من الايمان والقرآن ، انه لم يدع الناس بهذه الطريق أبداً . ولا تكلم بها أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، فكيف تكون هي أصل الايمان ؟! والذي جاء بالايمان وأفضل الناس إيماناً لم يتكلموا بها البتة ، ولا سلكها منهم أحد .

والذين علموا أن هذه طريق مبتدعة حزبان :

حزب ظنوا أنها صحيحة في نفسها ، لكن أعرض السلف عنها لطول مقدماتها وغموضها، وما يخاف على سالكها من الشك والتطويل ، وهذا قول جماعة كالأشعري في رسالته إلى

الثغر ، والخطابي ، والحليمي ، والقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء .

والثاني : قول من يقول : بل هذه الطريقة باطلة في نفسها ، ولهذا ذمها السلف،وعدلوا عنها ، وهذا قول أئمة السلف كابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحـــاق بن راهويه ، وأبي يوسف ، ومالك بن أنس ، وابن الماجشون ، وعبد العزيز ، وغير هؤلاء من السلف .

وحفص الفرد لما ناظر الشافعي في مسألة القرآن – وقال : القرآن مخلوق وكفّره الشافعي – كان قد ناظره بهذه الطريقة .

وكذلك أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث كان من المناظرين للإمام أحمد بن حنبل في مسألة القرآن بهذه الطريقة .

وقد ذكر الامام أحمد في رده على الجهمية مما عابه عليهم أنهم يقولون : إن الله لا يتكلم ولا يتحرك .

وأما عبد الله بن المبارك ، فكان مبتلى بهؤلاء في بلاده ، ومذهبه في مخالفتهم كثير . وكذلك الماجشون في الرد عليهم. وكلام السلف في الرد على هؤلاء كثير ، وقال لهم الناس: إن هذا الأصل الذي ادعيتم إثبات الصانع به ، وأنه لا يعرف أنه خالق للمخلوقات إلا به ، هو بعكس ما قلتم ، بل هذا الأصل يناقض كون الرب خالقاً للعالم ، ولا يمكن مع القول به القول بحدوث العالم ولا الرد على الفلاسفة . فالمتكلمون الذين ابتدعوه وزعمـــوا أنهم به نصروا الاسلام ، وردوا به على أعدائه كالفلاسفة ؛ لا للاسلام نصروا ، ولا لعدوه كسروا ، بل كان ما ابتدعوه مما أفسدوا به حقيقة الاسلام على من اتبعهم ، فأفسدوا عقله ودينه ، واعتدوا به على من نازعهم من المسلمين ، وفتحوا لعدو الاسلام باباً إلى مقصوده ،

فإن حقيقة قولهم : — إن الرب لم يكن قادراً ، ولا كان الكلام والفعل ممكناً له ، ولم يزل كذلك دائماً مدة أو تقديره مدة لا نهاية لها ، ثم إنه تكلم وفعل من غير سبب اقتضى ذلك، وجعلوا مفعوله هو فعله ، وجعلوا فعله وإرادة فعله قديمة أزلية والمفعول متأخراً، وجعلوا القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وكل هذا خلاف المعقول الصريح وخلاف الكتـــاب والسنة ، وأنكروا صفاته ورؤيته ، وقالوا : كلامه مخلوق — وهو خلاف دين الاسلام .

والذين اتبعوهم وأثبتوا الصفات قالوا : يريد جميع المرادات بإرادة واحدة ، وكل كلام تكلم به أو يتكلم به إنمـــا هو شيء واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، وإذا رُؤي رُؤي لا بمواجهة ولا بمعاينة ، وإنه لم يسمع ولم ير الأشياء حتى وجدت ، ثم لما وجدت لم يقم به أمر موجود ، بل حاله قبل أن يسمع ويبصر كحاله بعد ذلك ، إلى أمثال هذه الأقوال التي تخالف المعقول الصريح والمنقول الصحيح .

ثم لما رأى الفلاسفة أن هذا مبلغ علم هؤلاء ، وأن هذا هو الإسلام الذي عليه هؤلاء ، وعلموا فساد هذا ، أظهروا قولهم بقدم العالم ، واحتجوا بأن تجدد الفعل بعد أن لم يكن ممتنع ، بل لابد لكل متجدد من سبب حادث ، وليس هناك سبب فيكون الفعل دائماً . ثم ادعوا دعوى كاذبة لم يحسن أولئك أن يبينوا فسادها وهو : أنه إذا كان دائماً ، لزم قدم الأفلاك والعناصر . ثم إنهم لما رأوا تقرير النبوة جعلوها فيضاً يفيض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره ، من غير أن يكون رب العالمين يعلم له رسولا معينا ، ولا يميز بين موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ولا يعلم الجزئيات ، ولا نزل من عنده ملك ، بل جبريل هو خيال يتخيل في نفس النبي أو هو العقل الفعال ، وأنكروا أن تكون السموات والأرض خلقت في ستة أيام ، وأن السماوات تنشق وتنفطر وغير ذلك مما أخبر به الرسول ﷺ ، وزعموا أن ما جاء به الرسول ﷺ إنما أراد به خطاب الجمهور مما يخيل إليهم بما ينتفعون

به ، من غير أن يكون الأمر في نفسه كذلك، ومن غير أن تكون الرسل بينت الحقائق، وعلمت الناس ما الأمر عليه ، ثم منهم من يفضل الفيلسوف على النبي ﷺ . وحقيقة قولهم: إن الأنبياء كذبوا لما ادعوه من نفع الناس ، وهل كانوا جهالاً ؟ على قولين لهم ، إلى غير ذلك من أنواع الالحاد والكفر الصريح والكذب البين على النبي ﷺ وعلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد بُيِّن في غير هذا الموضع أن هؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل ، وإن تظاهروا بالإسلام ، فإنهم يظهرون من مخالفة الإسلام أعظم مما كان يظهره المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ، وقد قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : المنافقون اليوم شر من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ . قيل : ولم ذلك ؟ قال : لأنهم كانوا يسرون نفاقهم ، وهم اليوم يعلنونه . ولم يكن على عهد حذيفة من وصل إلى هذا النفاق ولا إلى قريب منه ، فإن هؤلاء إنما ظهروا في الاسلام في أثناء الدولة العباسية وآخر الدولة الأموية لما عربت الكتب اليونانية ونحوها ، وقد بُسِط الكلام في الرد عليهم في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء المتكلمين الذين زعموا أنهم ردوا عليهم لم يكن الأمر كما قالوه ، بل هم فتحوا لهم دهليز الزندقة ، ولهذا يوجد كثير ممن دخل في هؤلاء الملاحدة إنما دخل من باب أولئك المتكلمين كابن عربي وابن سبعين وغيرهما . وإذا قام من يرد على هؤلاء الملاحدة ، فإنهم يستنصرون ويستعينون بأولئك المتكلمين المبتدعين ، ويعينهم أولئك على من ينصر الله ورسوله ، فهم جندهم على محاربة الله ورسوله كما قد وجد ذلك عيانا .

ودعواهم أن هذه طريقة إبراهيم الخليل في قوله : (لا أُحِبُّ الآفِلِين) [الأنعام – ٧٦] ، كذب ظاهر على إبراهيم ، فإن الأفول هو التغيب والاحتجاب باتفاق أهل اللغة والتفسير ، وهو من الأمور الظاهرة في اللغة ، وسواء أريد بالأفول ذهاب ضوء القمر

والكواكب بطلوع الشمس ، أو أريد به سقوطه من جانب المغرب ، فانه إذا طلعت الشمس يقال : إنها غابت الكواكب واحتجبت ، وإن كانت موجودة في السماء ، ولكن طمس ضوء الشمس نورها .

وهذا مما ينحل به الاشكال الوارد على الآية في طلوع الشمس بعد أفول القمر . وإبراهيم عليه السلام لم يقل : (لا أُحِبُّ الآفلين) ، لما رأى الكوكب يتحرك والقمر والشمس ، بل إنما قال ذلك حين غاب واحتجب ، فإن كان إبراهيم قصد بقوله الاحتجاج بالأفول على نفي كون الآفل رب العالمين كما ادعوه ، كانت قصة إبراهيم حجة عليهم ، فإنه لم يجعل بزوغه وحركته في السماء إلى حين المغيب دليلاً على نفي ذلك ، بل إنما جعل الدليل مغيبه ، فإن كان ما ادعوه من مقصوده من الاستدلال صحيحاً ، فإنه حجة على نقيض مطلوبهم ، وعلى بطلان كون الحركة دليل الحدوث .

لكن الحق أن إبراهيم لم يقصد هذا ، ولا كان قوله : (هذا ربي) [الأنعام - ٧٦] إنه رب العالمين ولا اعتقد أحد من بني آدم أن كوكباً من الكواكب خلق السموات والأرض ، وكذلك الشمس والقمر ، ولا كان المشركون قوم إبراهيم يعتقدون ذلك ، بل كانوا مشركين لله ويعبدون الكواكب ويدعونها ويبنون لها الهياكل ، ويعبدون فيها أصنامهم ، وهو دين الكلدانيين والكشدانيين والصابئين المشركين ؛ لا الصابئين الحنفاء ، وهم الذين صنف صاحب « السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم » كتابه على دينهم .

وهذا دين كان كثير من أهل الأرض عليه بالشام والجزيرة والعراق وغير ذلك ، وكانوا قبل ظهور دين المسيح عليه السلام ، وكان جامع دمشق وجامع حران وغيرهما موضع بعض هياكلهم : هذا هيكل المشتري ، وهذا هيكل الزهرة . وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي ، وبدمشق محاريب قديمة إلى الشمال . والفلاسفة اليونانيون كانوا من جنس هؤلاء المشركين

يعبدون الكواكب والأصنام ، ويصنعون السحر ، وكذلك أهل مصر وغيرهم ، وجمهور المشركين كانوا مقرين برب العالمين ، والمنكر له قليل مثل فرعون ونحوه .

وقوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع ، ولهذا قال لهم ابراهيم الخليل : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء - ٧٦ - ٧٨] ، فعادى كل ما يعبدونه إلا رب العالمين ، وقال تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) [الممتحنة - ٤] ، وقال الخليل عليه السلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات - ٩٥] ، وقال تعالى في سورة الأنعام : (فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ : أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [الأنعام - ٧٨ - ٨٤] .

ولما فسر هؤلاء الأفول بالحركة ، وفتحوا باب تحريف الكلم عن مواضعه ، دخلت الملاحدة من هذا الباب ، ففسر ابن سينا وأمثاله من الملاحدة الأفول بالامكان الذي ادعوه

حيث قالوا : إن الأفلاك قديمة أزلية وهي مع ذلك ممكنة، وكذلك ما فيها من الكواكب والنيرين . قالوا : فقول إبراهيم (لا أُحِبُّ الآفِلِينَ) [الأنعام – ٧٦] ، أي لا أحب الممكن المعلول وإن كان قديماً أزلياً . وأين في لفظ الافول ما يدل على هذا المعنى !ولكن هذا شأن المحرفين للكلم عن مواضعه .

وجاء بعدهم من جنس من زاد في التحريف فقال : المراد بالكواكب والشمس والقمر هو النفس والعقل الفعال والعقل الأول ، وقد ذكر ذلك أبو حامد الغزالي في بعض كتبه، وحكاه عن غيره في بعضها ، وقال هؤلاء : الكواكب والشمس والقمر لايخفى على عاقل أنها ليست رب العالمين ، بخلاف النفس والعقل .

ودلالة لفظ الكواكب والشمس والقمر على هذه المعاني لو كانت موجودة ، من عجائب تحريفات الملاحدة الباطنية ، كما يتأولون العلميات مع العمليات ، ويقولون : الصلوات الخمس معرفة أسرارنا ، وصيام رمضان كتمان أسرارنا، والحج هو الزيارة لشيوخنا المقدسين. وفتح لهم هذا الباب الجهمية والرافضة حيث صار بعضهم يقول : الامام المبين علي ابن أبي طالب ، والشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية ، والبقرة المأمور بذبحها عائشة ، واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين .

وقد شاركهم في نحو هذه التحريفات طائفة من الصوفية وبعض المفسرين كالذين يقولون: (والتِّينِ والزَّيْتُونِ وَطورِ سِينِين . وهَذا البَلدِ الأمين)[التين – ١ – ٣] ، أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وكذلك قوله : (كزرْعٍ أخْرَجَ شَطْأهُ) أبوبكر (فآزَرَهُ) عمر (فاسْتَغلَظَ) هو عثمان (فاستَوى على سُوقِهِ) [الفتح – ٢٩] هو علي . وقول بعض الصوفية : (اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى) [طه – ٢٤] ، هو القلب ، (إنَّ اللهَ يأمُرُكمْ أنْ تَذبحوا بَقَرَةً)[البقرة – ٦٧]هي النفس ،وأمثال هذه التحريفات ، لكن منها ما يكون معناه صحيحاً ، وإن لم يكن هو المراد باللفظ ،وهو

الأكثر في إشارات الصوفية ، وبعض ذلك لايجعل تفسيراً ، بل يجعل من باب الاعتبار والقياس ، وهذه طريقة صحيحة علمية كما في قوله تعالى : (لايمسه إلا المطهرون) ، وقول النبي ﷺ : « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب »[1]. فإذا كان ورقه لايمسه إلا طاهر البدن، فمعانيه لاتهتدي بها إلا القلوب الطاهرة ، وإذا كان الملك لايدخل بيتاً فيه كلب ، فالمعاني التي تحبها الملائكة لاتدخل قلباً فيه أخلاق الكلب المذمومة ، ولاتنزل الملائكة على هؤلاء، وهذا لبسطه موضع آخر .

والمقصود أن أولئك المبتدعة من أهل الكلام لما فتحوا باب القيـــاس الفاسد في العقليات ، والتأويل الفاسد في السمعيـات ؛ صار ذلك دهليزاً للزنادقة الملحدين إلى ما هو أعظم من ذلك من السفسطة في العقليات ، والقرمطة في السمعيات ، وصار كل من زاد في ذلك شيئاً دعاه إلى ما هو شر منه،حتى انتهى بالقرامطة إلى إبطال الشرائع المعلومة كلها، كما قال لهم رئيسهم بالشام : قد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولاحج ولا زكاة .

ولهذا قال من قال من السلف : البدعة بريد الكفر ، والمعاصي بريد النفاق .

ولما اعتقد أئمة الكلام المبتدع أن معنى كون الله خالقاً لكل شيء هو ما تقدم : أنه لم يزل غير فاعل لشيء ، ولا متكلم بشيء ، حتى أحدث العالم ، لزمهم أن يقولوا : إن القرآن أو غيره من كلام الله مخلوق منفصل بائن عنـــه ، فإنه لو كان له كلام قديم ، أو كلام غير مخلوق،لزم قدم العالم على الأصل الذي أصلوه ، لأن الكلام قد عرف العقلاء أنه إنما يكون بقدرة المتكلم ومشيئته .

وأما كلام يقوم بذات المتكلم بلا قدرة ولا مشيئة،فهذا لم يكن يتصوره أحد من العقلاء ، ولا يعرف أن أحداً قاله ، بل ولا يخطر ببال جماهير الناس،حتى أحدث القول به ابن كلاب،

---

(١) هو في البخاري « باب التصاوير » بروايات متعددة ، اقربها للمذكورة أعلاه، بزيادة : « ولا تصاوير » .

وإنما ألجأه إلى هذا أن أولئك المتكلمين لما أظهروا موجب أصلهم ، وهو القول بأن القرآن الكريم مخلوق ، أظهروا ذلك في أوائل المائة الثانية ، فلما سمع ذلك علماء الأمة ، أنكروا ذلك ، ثم صار كلما ظهر قولهم أنكره العلماء – و كلام السلف والأئمة في إنكار ذلك مشهور متواتر – إلى أن صار لهؤلاء المتكلمين الكلام المحـــدث في دولة المأمون عزّ ، وأدخلوه في ذلك ، وألقوا إليه الحجج التي لهم ، وقالوا : إما أن يكون العالم مخلوقاً أو قديماً ، وهـذا الثاني كفر ظاهر معلوم فساده بالعقل والشرع ، وإذا كان العالم مخلوقاً محدثاً بعـــد أن لم يكن ، لم يبق قديم إلا الله وحده . فلو كان العالم قديماً ، لزم أن يكون مع الله قديم آخر . و كذلك الكلام إن كان قائماً بذاته ، لزم دوام الحوادث وقيامها بالرب ،وهذا يبطل الدليل الذي اشتهر بينهم على حدوث العالم ، وإن كان منفصلاً عنه ، لزم وجود المخلوق في الأزل ؛ وهذا قول بقدم العالم .

فلما امتحن الناس بذلك واشتهرت هذه المحنة ، وثبت الله من ثبّته من أئمة السنة ، وكان الامام الذي ثبته الله وجعله إماماً للسنة – حتى صار أهل العلم بعد ظهور المحنة يمتحنون الناس به ، فمن وافقه كان سنياً ، وإلا كان بدعياً – هو أحمد بن حنبل ، فثبت على أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

وكان المأمون لما صار إلى الثغر بطرسوس كتب بالمحنة كتاباً إلى نائبه بالعراق إسحاق ابن إبراهيم ، فدعا العلماء والفقهاء والقضاة ، فامتنعوا عن الاجابة والموافقة ، فأعاد عليه الجواب ، فكتب كتاباً ثانياً يقول فيه عن القاضيين : بشر بن الوليد ، وعبد الرحمن بن إسحاق إن لم يجيبا فاضرب أعناقهما ، ويقول عن الباقين : إن لم يجيبوا فقيّدهم فأرسلهم إليّ ، فأجـــاب القاضيان ، وذكرا لأصحابهما أنها مكرهان ، وأجاب أكثر الناس قبل أن يقيدهم لما رأوا الوعيد ، ولم يجب ستة أنفس فقيدهم ، فلما قيدوا أجاب الباقون إلا اثنين : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح النيسابوري ، فأرسلوهما مقيدين إليه ، فمات محمد بن نوح في الطريق ، ومات

المأمون قبل أن يصل أحمد إليه ، وتولى أخوه أبو إسحاق وتولى القضاء أحمد بن أبي دؤاد ، وأقام أحمد في الحبس من سنة ثماني عشرة إلى سنة عشرين [1] .

ثم إنهم طلبوه وناظروه أياماً متعددة ، فدفع حججهم وبين فسادها ، وأنهم لم يأتوا على ما يقولونه بحجة لا من كتاب ولا من سنة ولا من أثر ، وأنه ليس لهم أن يبتدعوا قولاً ، ويلزموا الناس بموافقتهم عليه ، ويعاقبوا من خالفهم . وإنما ألزمهم الله ورسوله ، ويعاقب من عصى الله ورسوله ، فإن الايجاب والتحريم ، والثواب والعقاب ، والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله ، ليس لأحد في هذا حكم ، وإنما على الناس إيجاب ما أوجبه الله ورسوله ، وتحريم ما حرمه الله ورسوله ، وتصديق ما أخبر الله به ورسوله ، وجرت في ذلك أمور يطول شرحها .

ولما اشتهر هذا ، وتبين للناس باطن أمرهم ، وأنهم معطلة للصفات يقولون : إن الله لا يرى ، ولا له علم ، ولا قدرة ، وأنه ليس فوق العرش رب ، ولا على السموات إله ، وأن محمداً لم يعرج به إلى ربه ، إلى غير ذلك من أقوال الجهمية النفاة ، كثر رد الطوائف عليهم بالقرآن والحديث والآثار تارة ، وبالكلام الحق تارة ، وبالباطل تارة أخرى .

وكان ممن انتدب للرد عليهم أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وكان له فضل وعلم ودين ، ومن قال : إنه ابتدع ما ابتدعه ليظهر دين النصارى في المسلمين ـ كما يذكره طائفة في مثالبه ، ويذكرون أنه أوصى أخته بذلك ـ فهذا كذب عليه . وإنما افترى هذا عليه المعتزلة والجهمية الذين رد عليهم ، فإنهم يزعمون أن من أثبت الصفات ، فقد قال بقول النصارى . وقد ذكر مثل ذلك عنهم الامام أحمد في الرد على الجهمية ، وصار ينقل هذا من ليس من المعتزلة من السالمية ، ويذكره أهل الحديث ، والفقهاء الذين ينفرون عنه لبدعته في القرآن ، ويستعينون بمثل هذا الكلام الذي هو من افتراء الجهمية والمعتزلة عليه ، ولا يعلم هؤلاء أن الذين ذموه بمثل هذا هم شر منه ، وهو خير وأقرب إلى السنة منهم .

---

(١) يعني العشرين بعد المائتين كما سيصرح بذلك شيخ الاسلام بعد قليل .

وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع عن الاعتزال سلك طريقة أبي محمد بن كلاب ، فصار طائفة ينتسبون إلى السنة والحديث من السالمية وغيرهم كأبي علي الأهوازي يذكرون في مثالب أبي الحسن أشياء هي من افتراء المعتزلة وغيرهم عليه ، لأن الأشعري بيّنَ من تناقض أقوال المعتزلة وفسادها ما لم يبينه غيره حتى جعلهم في قمع السمسمة .

وابن كلاب لما رد على الجهمية لم يهتد لفساد أصل الكلام المحدث الذي ابتدعوه في دين الاسلام ، بل وافقهم عليه ، وهؤلاء الذين يذمون ابن كلاب والأشعري بالباطل هم من أهل الحديث ، والسالمية من الحنبلية والشافعية والمالكية وغيرهم كثير منهم موافق لابن كلاب والأشعري على هذا موافق للجهمية على أصل قولهم الذي ابتدعوه وهم إذا تكلموا في مسألة القرآن وأنه غير مخلوق أخذوا كلام ابن كلاب والأشعري فناظروا به المعتزلة والجهمية ، وأخذوا كلام الجهمية والمعتزلة ، فناظروا به هؤلاء ، وركبوا قولاً محدثاً من قول هؤلاء وهؤلاء لم يذهب إليه أحد من السلف ، ووافقوا ابن كلاب والأشعري وغيرهما على قولهم: إن القرآن قديم ، واحتجوا بما ذكره هؤلاء على فساد قول المعتزلة والجهمية وغيرهم . وهم مع هؤلاء وجمهور المسلمين يقولون : إن القرآن العربي كلام الله ، وقد تكلم الله به بحرف وصوت ، فقالوا : إن الحروف والأصوات قديمة الأعيان ، أو الحروف بلا أصوات ، وأن الباء والسين والميم مع تعاقبها في ذاتها فهي أزلية الأعيان لم تزل ولا تزال ، كما بسطت الكلام على أقوال الناس في القرآن في موضع آخر .

والمقصود هنا التنبيه على أصل مقالات الطوائف ، وابن كلاب أحدث ما أحدثه لما اضطره إلى ذلك من دخول أصل كلام الجهمية في قلبه ، وقد بيّن فساد قولهم بنفي علو الله، ونفي صفاته ، وصنف كتباً كثيرة في أصل التوحيد والصفات ، وبيّن أدلة كثيرة عقلية على فساد قول الجهمية ، وبيّن فيها أن علو الله على خلقه ، ومباينته لهم من المعلوم بالفطرة والأدلة العقلية القياسية ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة . وكذلك ذكرها الحارث

المحاسبي في كتاب « فهم القرآن » وغيره ؛ بيّن فيه من علو الله واستوائه على عرشه مابين به فساد قول النفاة ؛ وفرح الكثير من النظار الذين فهموا أصل قول المتكلمين وعلموا ثبوت الصفات لله ، وأنكروا القول بأن كلامه مخلوق ؛ فرحوا بهذه الطريقة التي سلكها ابن كلاب : كأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسن الأشعري ، والثقفي ، ومن تبعهم : كأبي عبد الله ابن مجاهد ، وأصحابه ، والقاضي أبي بكر ، وأبي إسحاق الاسفرائيني ، وأبي بكر بن فورك ، وغير هؤلاء . وصار هؤلاء يردون على المعتزلة ما رده عليهم ابن كلاب والقلانسي والأشعري وغيرهم من مثبتة الصفات ، فيبينون فساد قولهم : بأن القرآن مخلوق وغير ذلك ، وكان في هذا من كسر سورة المعتزلة والجهمية مافيه ظهور شعار السنة ، وهو القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الله يُرى في الآخرة ، وإثبات الصفات والقدر ، وغير ذلك من أصول السنة . لكن الأصل العقلي الذي بنى عليه ابن كلاب قوله في كلام الله وصفاته هو أصل الجهمية والمعتزلة بعينه ، وصاروا إذا تكلموا في خلق الله السموات والأرض وغير ذلك من المخلوقات إنما يتكلمون بالأصل الذي ابتدعه الجهمية ومن اتبعهم ، فيقولون قول أهل الملة ، كما نقله أولئك ، ويقررونه بحجة أولئك .

وكانت محنة الإمام أحمد سنة عشرين ومائتين ، وفيها شرعت القرامطة الباطنية يظهرون قولهم ، فإن كتب الفلاسفة قد عربت وعرف الناس أقوالهم ، فلما رأت الفلاسفة أن القول المنسوب إلى الرسول ﷺ وأهل بيته هو هذا القول الذي يقوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا أن هذا القول الذي يقولونه فاسد من جهة العقل ، طمعوا في تغيير الملة ، فمنهم من أظهر إنكار الصانع ، وأظهر الكفر الصريح ، وقاتلوا المسلمين ، وأخذوا الحجر الأسود ، كما فعلته قرامطة البحرين ، وكان قبلهم قد فعل بابك الخرمي مع المسلمين ما هو مشهور .

وقد ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني وغيره من كشف أسرار الباطنية وهتك أستارهم فإنه كان منهم من النفاة الباطنية الخرمية ، وصاروا يحتجون في كلامهم وكتبهم بحجج قد ذكرها أرسطو وأتباعه من الفلاسفة ، وهو أن الحركة يمتنع أن يكون لها ابتداء ، ويمتنع أن يكون للزمان ابتداء ، ويمتنع أن يصير الفاعل فاعلا بعد أن لم يكن فاعلًا ، فصار هؤلاء الفلاسفة ، وهؤلاء المتكلمون كلاهما يستدل على قوله بالحركة . فأرسطو وأتباعه يقولون : إن الحركة يمتنع أن يحدث نوعها بعد أن لم يكن ، ويمتنع أن يصير الفاعل فاعلًا بعد أن لم يكن ، ولأنه من المعلوم بصريح المعقول أن الذات إذا كانت لاتفعل شيئاً ثم فعلت بعد أن لم تفعل ، فلابد من حدوث حادث من الحوادث ، وإلا فإذا قدرت على حالها وكانت لاتفعل ، فهي الآن لاتفعل ، فإذا كانت الآن تفعل ؛ لزم دوام فعلها . ويقولون: قبل وبعد مستلزم للزمان ، فمن قال بحدوث الزمان لزمه القول بقدمه من حيث هو قائل بحدوثه ، ويقولون : الزمان مقدار الحركة فيلزم من قدمه قدمها ، ويلزم من قدم الحركة قدم المتحرك – وهو الجسم – فيلزم ثبوت جسم قديم ، ثم يجعلون ذلك الجسم القديم هو الفلك ، ولكن ليس لهم على هذا حجة كما بسط في موضع آخر .

وصار المتكلمون من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية يردون عليهم ويدّعون أن القادر المختار يرجح أحد المقدورين المتماثلين على الآخر المماثل له بلا سبب أصلًا، وعلى هذا الأصل بنوا كون الله خالقاً للمخلوقات .

ثم إن نفاة الصفات يقولون : رجح بمجرد القدرة ، وكذلك أصل القدرية ، والمعتزلة جمعت بين الأمرين . وأما المثبتة كالكلابية والكرامية ، فيدعون أنه رجح بمشيئة قديمة أزلية ، وكلا القولين مما ينكره جمهور العقلاء ، ولهذا صار كثير من المصنفين في هذا الباب كالرازي ومن قبله من أئمة الكلام والفلسفة كالشهرستاني ومن قبله من طوائف الكلام والفلسفة لايوجد عندهم إلا العلة الفلسفية ، أو القادرية المعتزلية أو الإرادية الكلابية . وكل

من الثلاثة منكر في العقل والشرع ؛ ولهذا كانت بحوث الرازي في مسألة القادر المختار في غاية الضعف من جهة المسلمين ، وهي لقول الدهرية أظهر دلالة .

واحتج أهل الكلام المبتدع بأنه يمتنع وجود حوادث لا أول لها ، ويقولون : لو وجدت حوادث لا أول لها ؛ لكنّا إذا قدرنا ما وجد قبل الطوفان وما وجد قبل الهجرة ، وقابلنا بينهما ، فإما أن يتساويا – وهو ممتنع – ، لأنه لايكون الزائد مثل الناقص ، وإما أن يتفاضلا ، فيكون فيما لايتناهى تفاضلًا وهو ممتنع ، ويذكرون حججاً أخرى قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع .

وقد تكلم الناس في هذه الحجة ونحوها وبينوا فسادها ، بأن التفاضل إنما يقع من الطرف المتناهي لامن الطرف الذي لايتناهى ، وبأن هذا منقوض بالحوادث المستقبلة ، فإن كون الحادث ماضياً أو مستقبلًا أمر إضافي ، ولهذا منع أئمة هذا القول كجهم والعلاف وجود حوادث لاتتناهى في المستقبل ، وقال جهم بفناء الجنة والنار ، وقال العلاف بفناء الحركات ، وهذا كله مبسوط في موضع آخر .

وصار طائفة أخرى قد عرفت كلام هؤلاء وكلام هؤلاء كالرازي والآمدي وغيرهما يصنفون الكتب الكلامية ، فينصرون فيها ما ذكره المتكلمون المبتدعون عن أهل الملة من حدوث العالم بطريقة المتكلمين المبتدعة هذه ، وهو امتناع حوادث لا أول لها ، وأن الزمان والحركة والجسم لها بداية ، ثم يصنفون الكتب الفلسفية كتصنيف الرازي « المباحث الشرقية » ونحوها ، ويذكر فيها ما احتج به المتكلمون على امتناع حوادث لا أول لها ، وأن الزمان والحركة والجسم لها بداية ، ثم ينقض ذلك كله ، ويجيب عنه ، ويقرر حجة من قال : إن ذلك لا بداية له . وليس هذا تعمداً منه لنصر باطل ، بل يقول بحسب ما توافقه الأدلة العقلية في نظره وبحثه ، فإذا وجد في المعقول بحسب نظره مايقدح

به في كلام الفلاسفة قدح به ، فإن من شأنه البحث المطلق بحسب ما يظهر له ، فهو يقدح في كلام هؤلاء بما يظهر له أنه قادح فيه من كلام هؤلاء ، وكذلك يصنع بالآخرين . ومن الناس من يسيء به الظن ، وهو أنه يتعمد الكلام الباطل ، وليس كذلك ، بل تكلم بحسب مبلغه من العلم والنظر والبحث في كل مقام بما يظهر له ، وهو متناقض في عامة ما يقوله ؛ يقرر هنا شيئاً ثم ينقضه في موضع آخر ؛ لأن المواد العقلية التي كان ينظر فيها من كلام أهل الكلام المبتدع المذموم عند السلف ، ومن كلام الفلاسفة الخارجين عن الملة ، يشتمل على كلام باطل كلام هؤلاء وكلام هؤلاء ، فيقرر كلام طائفة ، ثم ينقضه في موضع آخر بما ينقض به .

ولهذا اعترف في آخر عمره فقال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الاثبات: (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) [طه - ٥] ، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ [فـــاطر - ١٠] واقرأ في النفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى - ١١] ، (ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) [طه - ١١٠] ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

والآمدي تغلب عليه الحيرة والوقف في عامة الأصول الكبـــار ، حتى إنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العلل ، وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً ، وبنى إثبات الصانـــع على ذلك؛ فلا يقرر في كتبه لا إثبات الصانع ولا حدوث العالم ، ولا وحدانية الله ، ولا النبوات ، ولا شيء من الأصول التي يحتاج إلى معرفتها .

وأما الرازي - وإن كان يقرر بعض ذلك - فالغالب على ما يقرره أنه ينقضه في موضع آخر ، لكن هو أحرص على تقرير الأصول التي يحتاج إلى معرفتها من الآمدي ، ولو جمع ما تبرهن في العقل الصريح من كلام هؤلاء وهؤلاء لوجد جميعه موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ، ووجد صريح المعقول مطابقاً لصحيح المنقول ، لكن لم يعرف هؤلاء حقيقة ما جاء

به الرسول ، وحصل اضطراب في المعقول به ، فحصل نقص في معرفة السمع والعقل ، وإن كان هذا النقص هو منتهى قدرة صاحبه لا يقدر على إزالته ، فالعجز يكون عذراً للانسان في أن الله لا يعذبه إذا اجتهد الاجتهاد التام ، هذا على قول السلف والأئمة في أن من اتقى الله ما استطاع ، إذا عجز عن معرفة بعض الحق لم يعذب به .

وأما من قال من الجهمية ونحوهم : إنه قد يعذب العاجزين ، ومن قال من المعتزلة ونحوهم من القدرية : إن كل مجتهد، فإنه لابد أن يعرف الحق ، وان من لم يعرفه فلتفريطه، لا لعجزه ، فهما قولان ضعيفان ، وبسببها صارت الطوائف المختلفة من أهل القبلة يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضا .

فيقال لأرسطو وأتباعه ممن رأى دوام الفاعلية ولوازمها : العقل الصريح لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم لا فلك ولا غيره ، وإنما يدل على أن الرب لم يزل فاعلاً . وحينئذ فإذا قدر أنه لم يزل يخلق شيئاً بعد شيء كان كل ما سواه مخلوقاً محدثاً مسبوقاً بالعدم ، ولم يكن من العالم شيء قديم ، وهذا التقدير ليس معكم ما يبطله فلماذا تنفونه ؟ ونفس قدر الفعل هو المسمى بالزمان ، فإن الزمان إذا قيل : إنه مقدار الحركة ، كان جنس الزمان مقدار جنس الحركة ، لا يتعين في ذلك أن يكون مقدار حركة الشمس أو الفلك .

وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السماوات ،وهو الدخان الذي هو البخار ، كما قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت - ١١] ، وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ موجوداً ، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين ، وكما عليه أهل الكتاب ، كما ذكر هذا كله في موضع آخر . وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك ، فان هذا مما خلق في تلك الأيام ، بل تلك الأيام مقدرة بحركة اخرى . وكذلك إذا

شق الله هذه السماوات ، وأقام القيامة ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، قال تعالى : (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) [حم السجدة ـ ١١] . وقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة ، وأن أعلاهم منزلة من يرى الله تعالى كل يوم مرتين ، وليس في الجنة شمس ولا قمر ، ولا هناك حركة فلك ، بل ذلك الزمان مقدر بحركات ، كما جاء في الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش .

وإذا كان مدلول الدليل العقلي أنه لابد أنه قديم تقوم به الأفعال شيئاً بعد شيء ، فهذا إنما يناقض قول المبتدعة من أهل الملل الذين ابتدعوا الكلام المحدث الذي ذمه السلف والأئمة ، الذين قالوا : إن الرب لم يزل معطلاً عن الفعل والكلام ، فصار ما علمته العقلاء من أصناف الأمم الفلاسفة وغيرهم بصريح المعقول هو عاضد وناصر لما جاء به الرسول ﷺ على من ابتدع في ملته ما يخالف أقواله . وكان ما علم بالشرع مع صريح العقل أيضاً رداً لما يقوله الفلاسفة الدهرية من قدم شيء من العالم مع الله ، بل القول بقدم العالم قول اتفق جماهير العقلاء على بطلانه ، فليس أهل الملة وحدهم تبطله ، بل أهل الملل كلهم ، وجمهور من سواهم من المجوس وأصناف المشركين : مشركي العرب ، ومشركي الهند وغيرهم من الأمم ، وجماهير أساطين الفلاسفة كلهم معترفون بأن هذا العالم محدث كائن بعد أن لم يكن ، بل وعامتهم معترفون بأن الله خالق كل شيء ، والعرب المشركون كلهم كانوا يعترفون بأن الله خالق كل شيء ، وان هذا العالم كله مخلوق ، والله خالقه وربه ، وهذه الأمور مبسوطة في موضعها .

والمقصود هنا الكلام على ما يحتاج إليه من معرفة حديث النزول وأمثاله ، وهما الأصلان المتقدمان ، ومن تمام الأصل الثاني لفظ الحركة ، هل يوصف الله بها أم يجب نفيه عنه ؟ اختلف فيه المسلمون ، وغيرهم من أهل الملل ، وغير أهل الملل من أهل الحديث ، وأهل الكلام وأهل الفلسفة وغيرهم على ثلاثة أقوال . وهذه الثلاثة موجودة في أصحاب الأئمة الأربعة من

أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وقد ذكر القاضي أبو يعلى الأقوال الثلاثة عن أصحاب الإمام أحمد في « الروايتين والوجهين » وغير ذلك من الكتب .

وقبل ذلك ينبغي أن يعرف أن لفظ الحركة والانتقال والتغيير والتحول ونحو ذلك ألفاظ مجملة ، فإن المتكلمين إنما يطلقون لفظ الحركة على الحركة المكانية ، وهو انتقال الجسم من مكان إلى مكان بحيث يكون قد فرغ الحيز الأول وشغل الثاني : كحركة أجسامنا من حيز إلى حيز ، وحركة الهواء والماء والتراب والسحاب من حيز إلى حيز ، بحيث يفرغ الأول ويشغل الثاني ؛ فأكثر المتكلمين لا يعرفون للحركة معنى إلا هذا .

ومن هنا نفوا ما جاءت به النصوص من أنواع جنس الحركة ، فإنهم ظنوا أن جميعها إنما تدل على هذا ، وكذلك من أثبتها وفهم منها كلها هذا كالذين فهموا من نزوله إلى السماء الدنيا أنه يبقى فوقه بعض مخلوقاته ، فلا يكون هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، ولا يكون هو العلي الأعلى ، ويلزمهم أن لا يكون مستوياً على العرش بحال كما تقدم .

والفلاسفة يطلقون الحركة على كل ما فيه تحول من حال إلى حال ، ويقولون أيضاً : حقيقة الحركة هي الحدوث أو الحصول ، والخروج من القوة إلى الفعل يسيراً يسيراً بالتدريج . قالوا : وهذه العبارات دالة على معنى الحركة ، وقد يحدون بها الحركة ، وهم متنازعون في الرب تعالى هل تقوم به جنس الحركة ؟ على قولين .

وأصحاب أرسطو جعلوا الحركة مختصة بالأجسام ، ويصفون النفس بنوع من الحركة ، وليست عندهم جسماً فيتناقضون . وكانت الحركة عندهم ثلاثة أنواع ، فزاد ابن سينا فيها قسماً رابعاً فصارت أربعة ، ويجعلون الحركة جنساً تحته أنواع : حركة في الكيف ، وحركة في الكم ، وحركة في الوضع ، وحركة في الأين .

فالحركة في الكيف : هي تحول الشيء من صفة إلى صفة ، مثل اسوداده واحماره واخضراره ، ومثل مصيره حلواً وحامضاً ، ومثل تغير رائحته ؛ وكذلك في النفوس كعلم

الانسان بعد جهله ، وحبه بعد بغضه ، وإيمانه بعد كفره ، وفرحه بعد حزنه ، ورضاه بعد غضبه ،كل هذه الأحوال النفسانية هي حركة الكيف ، وهذا مما احتج به من جوزمنهم الحركة ، فإن إرادته لإحداث الشيء عندهم حركة .

والحركة في الكم مثل امتداد الشيء ، مثل كبر الحيوان بعد صغره ، وطوله بعد قصره ، ومثل امتداد الشجر والنبات وامتداد عروقه في الأرض وأغصانه في الهواء ، فهذا حركة في المقدار والكمية ، كما أن الأول حركة في الصفات والكيفية .

وأما الحركة في الوضع ، فمثل دوران الشيء في موضع واحد ، كدوران الفلك والمنجنون الذي يسمى الدولاب ، وكحركة الرحى ، وغير ذلك ، فإنه لاينتقل من حيز إلى حيز،بل حيزه واحد،لكن يختلف في أوضاعه،فيكون الجزء منه تارة محاذياً للجهة العليا فيصير محاذياً للجهة السفلى ، أو للجهة اليمنى ، فيصير محاذياً للجهة اليسرى .

وهذا النوع يقولون : إن ابن سينا زاده .

والرابع : الحركة في الأين وهي الحركة المكانية ، وهو انتقاله من حيز إلى حيز .

وأما عموم أهل اللغة فيطلقون لفظ الحركة على جنس الفعل . فكل من فعل فعلًا ، فقد تحرك عندهم ؛ ويسمون أحوال النفس حركة ، فيقولون : تحركت فيه المحبة ، وتحركت فيه الحمية ، وتحرك غضبه ، وتوصف هذه الأحوال بالحركة والسكون . فيقال: سكن غضبه ، قال تعالى : (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ) [الأعراف – ١٥٤] ، فوصف الغضب بالسكوت ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، ومعاوية بن قرة ، وعكرمة : (ولما سكن) بالنون ، وعلى القراءة المشهورة بالتاء ، قال المفسرون : سكت الغضب ، أي : سكن .

وكذلك قال أهل اللغة ؛ الزجّاج وغيره .

قال الجوهري : سكت الغضب مثل سكن ، فالسكون أخص ، فكل ساكت ساكن ، وليس كل ساكن ساكتاً ؛ وإذا وصف بالسكون دل على أنه كان متحركا ، وهذا وصف للأعراض النفسانية بالحركة والسكون .

والأشعري قد استدل على أن الحركة وأنواعها لا تختص بالأجسام بما وجد من استعمالهم ذلك في الأعراض ، قال : فإنهم يقولون : جاءت الحمى ، وجاء البرد ، وجاءت العافية ، وجاء الشتاء ، وجاء الحر ، ونحو ذلك مما يوصف بالمجيء والاتيان من الأعراض ، ومجيء هذه الأعراض هو حدوث وتغير وتحول من حال إلى حال .

فإن قيل: ماوصف بالحركة والسكون من هذه الأعراض، فإنما هو لتحرك المحل الحامل لذلك العرض – وإلا فالعرض لا يقوم بنفسه ، ولا يفارق محله ، فإن الحمى والحر والبرد يقوم بالهواء الذي يحمل الحر والبرد . وكذلك الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا حركة الدم ، فإذا سكن غليان الدم سكن الغضب ؛ قيل : ليس الأمر كذلك، بل هذا يستعمل فيما يحدث من الأعراض في المحل شيئاً فشيئاً ، وإن لم يكن هناك جسم ينتقل معه كما تقدم من الحركة في الكيفيات والصفات ، فإن الماء إذا سخن حدثت فيه الحرارة وسخن الوعاء الذي فيه الماء من غير انتقال جسم حار إليه ، وإذا وضع الماء في المكان البارد برد من غير انتقال جسم بارد إليه. وكذلك الحمى حرارة أو برودة تقوم بالبدن من غير أن ينتقل إلى كل جزء من البدن جسم حار أو بارد . والغضب – وإن كان بعض الناس يقول : إنه غليان دم القلب – فهو صفة تقوم بنفس الغضبان غير غليان دم القلب ، وإنما ذلك أثره ، فإن حرارة الغضب تسخن الدم حتى يغلي . فإن مبدأ الغضب من النفس ، هي التي تتصف به أولاً ، ثم يسري ذلك إلى الجسم، وكذلك الحزن والفرح وسائر الأحوال النفسانية . والحزن يوجب دخول الدم ، ولهذا يصفرّ لون الحزين ، وهو من الأحوال النفسانية ؛ لكن الحزين يستشعر العجز عن دفع المكروه الذي أصابه ويأس من ذلك ؛

فيفور دمه ، والغضبان يستشعر قدرته على الدفع أو المعاقبة ، فينبسط دمه .

والحركة والسكون والطمأنينة التي توصف بها النفس ليست مماثلة لما يوصف به الجسم ، قال تعالى : (أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد – ٢٨] ، والاطمئنان هو السكون ، قال الجوهري : اطمأن الرجل اطمئناناً وطمأنينة أي سكن ، قال تعالى : (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) [الفجر – ٢٧ ، ٢٨] ، وكذلك للقلوب سكينة تناسبها ، قال تعالى : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) [الفتح – ٤] .

وكذلك الريب حركة النفس للشك ، ومنه الحديث : « أن النبي ﷺ مر بظبي حاقف فقال لايريبه أحد [1] » ويقال : رابني منه ريب ، و « دع مايريبك إلى مالا يريبك » وقال :

---

(١) هو في موطأ مالك ومسند أحمد وسنن النسائي من حديث طويل أورده النسائي في باب مالا يجوز للمحرم أكله من الصيد ، ولفظه :

عن عمير بن سلمة الضمري أنه أخبره عن البهزي : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يريد مكة وهو محرم ، حتى اذا كانوا بالروحاء إذا حمار وحش عقير ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعوه فإنه يوشك أن يأتي صاحبه ، فجاء البهزي ، وهو صاحبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ! صلى الله عليك وسلم شأنكم بهذا الحمار ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فقسمه بين الرفاق ، ثم مضى حتى إذا كان بالأثاية بين الرويثة والعرج ، إذا ظبي حاقف في ظل وفيه سهم ، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزه » .

قال الإمام السندي في حاشيته على السنن :

الأثاية : بضم الهمزة وحكي كسرها ومثلثة : موضع بطريق الجحفة إلى مكة .

الرويثة والعرج : قرية بطريق الجحفة إلى مكة .

حاقف : أي : نائم قد انحنى في نومه .

لا يريبه أحد : لا يتعرض له أحد ولا يزعجه .

« الكذب ريبة ، والصدق طمأنينة » فجعل الطمأنينة ضد الريبة ، وكذلك اليقين ضد الريب . واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون ، ومنه ماء يقن ، وكذلك يقال : انزعج وأزعجه فانزعج ، أي أقلقه ، يقال ذلك لمن قلقت نفسه ، ولمن قلق بنفسه وبدنه حتى فارق مكانه ، وكذلك يقال : قلقت نفسه ، واضطربت نفسه ، ونحو ذلك من أنواع الحركة ، ويسمى ما يألفه جنس الانسان ويحبه سكنا ، لأنه يسكن إليه ، ويقال : فلان يسكن إلى فلان ويطمئن إليه ، ويقال : القلب يسكن إلى فلان ، ويطمئن إليه ، إذا كان مأموناً معروفاً بالصدق ، فإن الصدق يورث الطمأنينة والسكون ، وقد سميت الزوجة سكنا ، قال تعالى : (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) [الروم - ٢١] ، وقال : (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) [الأعراف - ١٨٩] ، فيسكن الرجل إلى المرأة بقلبه وبدنه جميعاً ، وقد يكون بدن الشخص ساكناً ونفسه متحركة حركة قوية وبالعكس ، يسكن قلبه ، وبدنه متحرك ، والمحب للشيء المشتاق إليه يوصف بأنه متحرك إليه ، ولهذا يقال : العشق حركة نفس فارغة . فالقلوب تتحرك إلى الله تعالى بالمحبة والإنابة والتوجه ، وغير ذلك من أعمال القلوب وإن كان البدن لا يتحرك إلى فوق ، فقد قال النبي ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد [1] » . ومع هذا فبدنه أسفل ما يكون . فينبغي أن يعرف أن الحركة جنس تحته أنواع مختلفة باختلاف الموصوفات بذلك ، وما يوصف به نفس الانسان من إرادة ومحبة وكراهة وميل ونحو ذلك كلها فيها تحول النفس من حال إلى حال وعمل للنفس ، وذلك حركة لها بحسبها ؛ ولهذا يعبر عن هذه المعاني بألفاظ الحركة ، فيقال : فلان يهفو إلى فلان كما قيل :

---

(١) مضى تخريج هذا الحديث .

يَهْفُو إلى البَانِ مِنْ قَلْبِي نَوَازِعُه وَما بِي البَانُ بَلْ مَنْ دَارُه البَانُ

وهذا اللفظ يستعمل في حركة الشيء الخفيف بسرعة ، كما يقال : هفا الطائر بجناحه ، أي خفق وطار ، وهفا الشيء في الهواء : إذا ذهب كالصوفة ونحوها ، ومر الظبي يهفو ، أي يطفو ، ومنه قيل للزلة : هفوة ، كما سميت زلة ، والزلة حركة خفيفة ، وكذلك الهفوة ، كذلك يسمى المحب المشتاق الذي صار حبه أقوى من العلاقة صبّا ، وحاله صبابة ، وهو رقة الشوق وحرارته ، والصبا : المحب المشتاق ، وذلك لانصباب قلبه إلى المحبوب كما ينصب الماء الجاري ، والماء ينصب من الجبل ، أي : ينحدر . فلما كان في انحداره يتحرك حركة لا يرده شيء سميت حركة الصبّ صبابة ، وهذا يستعمل في المحبة المحمودة والمذمومة .

ومنه الحديث : « أن أبا عبيدة رضي الله عنه لما أرسله النبي ﷺ في سرية بكى صبابة وشوقاً إلى النبي ﷺ » . والصبابة والصب يتفقان في الاشتقاق الأكبر ، والعرب تعاقب بين الحرف المعتل والحرف المضعف كما يقولون : تقضى البازي وتقضض ، وصبا يصبو : معناه مال ، وسمي الصبي صبياً لسرعة ميله . قال الجوهري : والصّبا أيضاً مشتق من الشوق ، يقال منه تصابى ، وصبا يصبو صبوة وصبواً ، أي مال إلى الجهل والفتوة ، وأصبته الجارية . وقد يستعمل هذا الميل المحمود على قراءة من قرأ : (إنّ الّذينَ آمَنُوا والّذينَ هادُوا والنّصارَى والصّابِينَ) [البقرة - ٦٢] بلاهمزة في قراءة نافع ، فإنه لا يهمز « الصابين » في جميع القرآن . وبعضهم قد حمده الله تعالى ، وكذلك يقال : حن إليه حنيناً ، ومنه حنا في الاشتقاق الأكبر يحنو عليه حنواً . قال الجوهري : حنوت عليه عطفت عليه ، وتحنى عليه ، أي : تعطف ، مثل تحنن ، قال الشاعر :

تَحَنَّى عَلَيْكَ النَّفْسُ مِنْ لاعِجِ الهَوى فَكَيْفَ تَحَنِّيها وَأَنْتَ مُهِينُهَا

وقال : الحنين : الشوق وتوقان النفس ، وقال : حن إليه يحن حنيناً ، فهو حان

والحنان : الرحمة ، يقال : حن عليه يحن حناناً ومنه قوله تعالى : (وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً) [مريم - ١٤] ، والحنّان بالتشديد: ذوالرحمة ، وتحنن عليه ترحم ، والعرب تقول : حنانيك يارب وحنانك بمعنى واحد ، أي :رحمتك . وهذا كلام الجوهري .

وفي الأثر في تفسير الحنان المنان « أن الحنان : هو الذي يقبل على من أعرض عنه ، والمنان : الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال » وهذا باب واسع .

والمقصود هنا أن هـذا من أنواع جنس الحركة العامة ، والحركة العامة هي التحول من حال إلى حال ؛ ومنه قولنا : لاحول ولا قوة إلا بالله . وفي « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال لأبي موسى رضي الله عنه : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قال : بلى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله [1] » .

وفي « صحيح مسلم » وغيره ، عن النبي ﷺ قال : إذا قال المؤذن : الله أكبر ؛ فقال الرجل : الله أكبر ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم

---

(١) هو في « البخاري » باب قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي « مسلم » باب استحباب الاكثار من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، من حديث طويل بروايات متعددة تختلف قليلاً ، ورواية البخاري :

عن أبي موسى الأشعري قال : « أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في عقبة ، أو قال : في ثنية ، قال : فلما علا عليها رجل نادى فرفع صوته : لا إله إلا الله والله أكبر ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته ، قال : فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، ثم قال : يا أبا موسى ، أو ياعبدالله : ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة ؟ قلت : بلى . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وهو في أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة .

واللفظ الذي أورده شيخ الاسلام ورد في أحاديث عديدة تختلف ألفاظها قليلاً أو تتفق عن أبي هريرة رواها الترمذي والحاكم ، وعن معاذ بن جبل رواها أحمد والطبراني ، وعن أبي ذر الغفاري رواها ابن ماجة وابن حبان ، وعن قيس بن عبادة رواها الحاكم وصححها .

قال : أشهد أن محمداً رسول الله ؛ فقال : أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم قال : حيَّ على الصلاة ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : حيَّ على الفلاح ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : الله أكبر الله أكبر ، فقال : الله أكبر الله أكبر »[1] .

فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلى حال ، والقوة هي القدرة على ذلك التحول ، فدلت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلى حال ، ولا قدرة على ذلك إلا بالله . ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول : لا حول من معصيته إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته .

والصواب الذي عليه الجمهور هو التفسير الأول وهو الذي يدل عليه اللفظ ، فإن الحول لا يختص بالحول عن المعصية ، وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة ، بل لفظ الحول يعم كل تحول ، ومنه لفظ الحيلة ، ووزنها فعلة بالكسر ، وهي النوع المختص من الحول ، كما يقال : الجلسة والقعدة واللبسة والأكلة والضجعة ونحو ذلك بالكسر هي النوع الخاص ، وهو بالفتح المرة الواحدة ، فالحيلة أصلها حولة ، لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء ، كما في لفظ ميزان وميقات وميعاد وزنه مفعال ، وقياسه موزان وموقات ؛ لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء ، قال تعالى : (إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً) [النساء - ٩٧] ، من الحيل ؛ فإنها نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنواع الحيل . - وكذلك لفظ القوة ، قال تعالى : (اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً) [الروم - ٥٤] ، ولفظ القوة قد يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره ، فهو قدرة أرجح من غيرها ، أو القدرة التامة ، ولفظ

---

(١) هو عن عمر بن الخطاب ، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه وتمامه « ثم قال: لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة » .

القوة قد يعم القوي الذي في الجمادات بخلاف لفظ القـدرة ، فلهذا كان المنفي بلفظ القوة أشمل وأكمل .

فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولى ، وهـذا باب واسع . والمقصود هنا أن النـــاس متنازعون في جنس الحركة العامة التي تتناول ما يقوم بذات الموصوف من الأمور الاختيارية كالغضب والرضا والفرح ، وكالدنو والقرب والاستواء والنزول ، بل والأفعال المتعدية كالخلق والاحسان ، وغير ذلك على ثلاثة أقوال :

أحـدها قول من ينفي ذلك مطلقاً وبكل معنى ، فلا يجوز أن يقوم بالرب شيء من الأمور الاختيارية ، فلا يرضى على أحد بعد أن لم يكن راضياً عنه ، ولا يغضب عليه بعد أن لم يكن غضبان ، ولا يفرح بالتوبة بعد التوبة ، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته إذا قيل : إن ذلك قائم بذاته . وهذا القول أول من عرف به هم الجهمية والمعتزلة ، وانتقل عنهم إلى الكلابية والأشعرية والسالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة : كأبي الحسن التميمي ، وابنه أبي الفضل ، وابن ابنـــه رزق الله ، والقاضي أبي يعلى ؛ وابن عقيل وأبي الحسن ابن الزغواني ، وأبي الفرج بن الجوزي ، وغير هؤلاء من أصحاب أحمد — وإن كان الواحد من هؤلاء قـد يتناقض كلامه — وكأبي المعالي الجويني وأمثاله من أصحاب الشـافعي ، وكأبي الوليد الباجي وطائفـة من أصحاب مالك ، وكأبي الحسن الكرخي وطائفة من أصحاب أبي حنيفة .

والقول الثاني: إثبات ذلك، وهو قول الهشامية والكرامية وغيرهم من طوائف أهل الكلام الذين صرحوا بلفظ الحركة . وأما الذين أثبتوها بالمعنى العام حتى يدخل في ذلك قيام الأمور والأفعال الاختيارية بذاته ، فهذا قول طوائف غير هؤلاء : كأبي الحسين البصري ، وهو اختيار أبي عبد الله بن الخطيب الرازي ، وغيره من النظار ، وذكر طائفة أن هـذا القول لازم لجميع الطوائف . وذكر عثمان بن سعيد الدارمي إثبات لفظ الحركة في كتاب نقضه

على بشر المريسي ، ونصره على أنه قول أهل السنة والحديث ، وذكره حرب بن اسماعيل الكرماني لما ذكر مذهب أهل السنة والأثر عن أهل السنة والحديث قاطبة ، وذكر ممن لقي منهم على ذلك : أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وعبدالله بن الزبير الحميدي ، وسعيد ابن منصور ، وهو قول أبي عبد الله بن حامد وغيره .

وكثير من أهل الحديث والسنة يقول : المعنى صحيح ، لكن لا يطلق هذا اللفظ لعدم مجيء الأثر به ، كما ذكر ذلك أبو عمر بن عبد البر وغيره في كلامهم على حديث النزول .

والقول المشهور عن السلف عند أهل السنة والحديث هو الاقرار بما ورد به الكتاب والسنة من أنه يأتي وينزل ، وغير ذلك من الأفعال اللازمة .

قال أبو عمر الطلمنكي : أجمعوا – يعني أهل السنة والجماعة – على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفاً صفا لحساب الأمم وعرضها كما يشاء وكيف يشاء، قال تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ) [البقرة : ٢١٠] ، وقال تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً) [الفجر ٢٢] .

قال : وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا على ما أتت به الآثار كيف شاء، لا يحدون في ذلك شيئاً ، ثم روى باسناده عن محمد بن وضاح ، قال : حدثنا زهير بن عبادة ، قال : كل من أدركت من المشايخ : مالك بن انس ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح يقولون : النزول حق . قال ابن وضاح : سألت يوسف بن عدي عن النزول فقال : نعم أقر به ، ولا أحد فيه حداً . قال : وسألت يحيى بن معين عن النزول فقال : أقر به ، ولا أحد فيه حداً .

والقول الثالث الإمساك عن النفي والإثبات ، وهو اختيار كثير من أهل الحديث والفقهاء والصوفية كابن بطة وغيره . وهؤلاء فيهم من يعرض بقلبه عن تقدير أحد الأمرين ، ومنهم من يميل بقلبه إلى أحدهما ، لكن لا يتكلم لا بنفي ولا باثبات . والذي يجب القطع

به ان الله ليس كمثله شيء في جميع ما يصف به نفسه ، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين في شيء من الأشياء فهو مخطىء قطعاً ، كمن قال : إنه ينزل فيتحرك وينتقل كما ينزل الإنسان من السطح إلى أسفل الدار ، كقول من يقول : إنه يخلو منه العرش ؛ فيكون نزوله تفريغاً لمكان وشغلا لآخر ، فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه كما تقدم . وهذا هو الذي تقوم على نفيه وتنزيه الرب عنه الادلة الشرعية والعقلية ؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر أنه الأعلى ، وقال (سبح اسم ربك الأعلى) فإن كان لفظ العلو لا يقتضي علو ذاته فوق العرش لم يلزم أن يكون على العرش وحينئذ فلفظ النزول ونحوه يتأول قطعاً إذ ليس هناك شيء يتصور فيه النزول ، وإن كان لفظ العلو يقتضي علو ذاته فوق العرش ، فهو سبحانه الأعلى من كل شيء ، كما أنه أكبر من كل شيء . فلو صار تحت شيء من العالم لكان بعض مخلوقاته أعلى منه ، ولم يكن هو الأعلى ، وهذا خلاف ما وصف به نفسه .

وأيضاً فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش فإن لم يكن استواؤه على العرش يتضمن أنه فوق العرش ، لم يكن الاستواء معلوماً ، وجاز حينئذ أن لا يكون فوق العرش شيء ؛ فيلزم تأويل النزول وغيره . وإن كان يتضمن أنه فوق العرش فيلزم استواؤه على العرش وقد أخبر أنه استوى عليه لما خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأخبر بذلك عند إنزال القرآن على محمد ﷺ بعد ذلك بألوف من السنين ، ودل كلامه على أنه عند نزول القرآن مستو على عرشه فإنه قال : (هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ، وَمَا يَعْرُجُ فِيها ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ ، واللهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ) [الحديد - ٤] .

وفي حديث الأوعال الذي رواه أهل السنن كأبي داود والترمذي وغيرهما ، لما مرت سحابة قال النبي ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : السحاب . قالوا : السحاب . قال : والمزن . قالوا : والمزن ، وذكر السموات وعددها وكم بين كل

سمائين ، ثم قال : والله فوق عرشه ، وهو يعلم ما أنتم عليه » .[1]

وكذلك في حديث جبير بن مطعم الذي رواه أبو داود وغيره عن جبير بن مطعم ، قال : « أتى رسول الله ﷺ أعرابي ، فقال : يارسول الله جُهدت الأنفس ، وجاع العيال ونهكت الأموال ، وهلكت الأنعام ؛ فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك . فقال رسول الله ﷺ : ويحك ! تدري ما تقول ؟ ! وسبح رسول الله ﷺ ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك انه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله ؟ إن الله على عرشه ، وعرشه على سمواته مثل القبة ، وأشار بيده » .

وهذا إخبار عن أنه سبحانه فوق العرش في تلك الحال كما دل عليه القرآن ، كما أخبر أنه استوى على العرش ، وأنه معنا أينما كنا . وكونه معنا أمر خاص ، فكذلك كونه مستويا على العرش . وكذلك سائر النصوص تبين وصفه بالعلو على عرشه في هذا الزمان ، فعلم أن الرب سبحانه لم يزل عالياً على عرشه ، فلو كان في نصف الزمان أو كله تحت العرش أو تحت بعض المخلوقات ، لكان هذا مناقضاً لذلك .

وأيضاً فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول ، فليس قبلك شيء وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ، وهذا نص في أن الله ليس فوقه شيء ، وكونه الظاهر صفة لازمة له مثل كونه الأول والآخر ، وكذلك الباطن ، فلا يزال ظاهراً ليس فوقه شيء ، ولا يزال باطنا ليس دونه شيء .

---

(١) هو في أبي داود ٤/٣٢١ كتاب السنة ، باب في الجهمية ، برواية مخالفة قليلاً في آخرها مع زيادة وهي « إن عرشه على سماواته لهكذا ، وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » واسناده ضعيف لايحتج به .

وأيضاً فحديث أبي ذر وأبي هريرة وقتادة المذكور في تفسيرهذه الأسماء الأربعة الذي فيه ذكر الادلاء قد ذكرناه في « مسألة الاحاطة » ، وهو مما يبين أن الله لا يزال عالياً على المخلوقات مع ظهوره وبطونه ، وفي حال نزوله إلى السماء الدنيا ،

وأيضاً فقد قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ ، والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَه وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُون) [العنكبوت – ٦٨] فمن هذه عظمته يمتنع أن يحصره شيء من مخلوقاته . وعن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية أحاديث صحيحة اتفق أهل العلم بالحديث على صحتها وتلقيهـــا بالقبول والتصديق . والله سبحانه وتعالى أعلم .

تم كتاب شرح حديث النزول والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

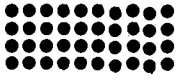

الايمان بالنزول

وقد قال شيخ الاسلام في مكان آخر وهو من الفتاوى الحموية الكبرى

ثم قال في (باب الايمان بالنزول) قال : ومن قول أهل السنة ان الله ينزل إلى سماء الدنيا ، ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً ، وذكر الحديث من طريق مالك وغيره . إلى ان قال : وأخبرني وهب عن ابن وضاح عن الزهري عن ابن عباد . قال : ومن أدركت من المشايخ مالك وسفيان ، وفضيل بن عياض وعيسى بن المبارك ووكيع : كانوا يقولون : إن النزول حق ، قال ابن وضاح : وسألت يوسف بن عدي عن النزول قال: نعم أومن به ، ولا أحد فيه حدا ، وسألت عنه ابن معين فقال : نعم أقر به ، ولا أحد فيه حداً.

قال محمد : وهذا الحديث يبين أن الله عز وجل على العرش في السماء دون الأرض ، وهو أيضاً بين في كتاب الله ، وفي غير حديث عن رسول الله ﷺ ، قال تعالى : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) وقال تعالى : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) وقال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال : (وهو القاهر فوق عباده) وقال تعالى : (ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي) وقال : (بل رفعه الله إليه) .

وذكر من طريق مالك : قول النبي ﷺ للجارية : « أين الله » ؟ قالت في السماء . قال « من أنا » ؟ قالت أنت رسول الله . قال : « فاعتقها » . قال: والأحاديث مثل هذا كثيرة جداً ، فسبحان من علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض ، لا إله إلا هو العلي العظيم .

وقال قبل ذلك في « الايمان بصفات الله تعالى وأسمائه » قال : واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله ، يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علماً ، والعجز عن ما لم يدع إليه إيماناً ، وإنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث انتهى في كتابه على لسان نبيه .

وقد قال ـ وهو أصدق القائلين ـ (كل شيء هالك إلا وجهه) وقال : (قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) وقال : (ويحذركم الله نفسه) ، وقال : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) وقال : (فإنك بأعيننا) ، وقال : (ولتصنع على عيني) ، وقال : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان) ، وقال : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) وقال : (إنني معكما أسمع وأرى) وقال : (وكلم الله موسى تكليما) .

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) الآية ، وقال : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) الآية ، وقال: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ،ومثل هذا في القرآن كثير.

فهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض ، كما أخبر عن نفسه ، وله وجه ، ونفس ، وغير ذلك مما وصف به نفسه، ويسمع ، ويرى ، ويتكلم ، هو الأول لا شيء قبله،والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده ، والظاهر العالي فوق كل شيء ، والباطن ، بطن علمه بخلقه فقال : (وهو بكل شيء عليم) قيوم حي لاتأخذه سنة ولا نوم .

وذكر : « أحاديث الصفات » ثم قال : فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ، ووصفه بها نبيه ، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ، ولا تقدير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) لم تره العيون فتحده كيف هو ؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الايمان) اه .

وكلام الأئمة في هذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هذه الفتيا عشره .

وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم .

مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في « الغنية عن الكلام وأهله » قال : « فأما ما سألت عنه من الصفات ، وما جاء منها في الكتاب والسنة ، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها،وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف ، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه .

والأصل في هذا : أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله . فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف .

فإذا قلنا:يد وسمع ، وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول: ان معنى اليد القوة أو النعمة ، ولا معنى السمع والبصر العلم ، ولا نقول : انها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار ، التي هي جوارح وأدوات للفعل ، ونقول : ان القول إنما وجب بإثبات الصفات ؛ لأن التوقيف ورد بها ؛ ووجب نفي التشبيه عنها ، لأن الله ليس كمثله شيء،وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات» هذا كله كلام الخطابي.

وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك.

وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي قد نقل نحواً منه من العلماء من لا يحصى عددهم ، مثل أبي بكر الاسماعيلي ، والامام يحيى بن عمار السجزي ، وشيخ الاسلام أبي إسماعيل الهروي صاحب « منازل السائرين » و « ذم الكلام » وهو أشهر من أن يوصف ، وشيخ الاسلام أبي عثمان الصابوني ، وأبي عمر بن عبد البر النمري إمام المغرب ، وغيرهم .

وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب « الحلية » في عقيدة له قال في أولها : «طريقتنا طريقة

المتبعين الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ؛ قال : فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يقولون بها ، ويثبتونها ، من غير تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ، وان الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه : لايحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه في سمائه ، دون أرضه وخلقه » .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه « محجة الواثقين ، ومدرجة الوامقين » تأليفه : « واجمعوا أن الله فوق سمواته ، عال على عرشه ، ، مستو عليه ، لامستول عليه كما تقول الجهمية انه بكل مكان ؛ خلافاً لما نزل في كتابه : (أأمنتم من في السماء) (إليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) له العرش المستوي عليه ، والكرسي الذي وسع السموات والأرض ، وهو قوله : (وسع كرسيه السماوات والأرض) .

و كرسيه جسم ، والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة ، وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية ؛ بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه ، كما قاله النبي ﷺ ، وانه – تعالى وتقدس – يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً صفاً ؛ كما قال تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وزاد النبي ﷺ : وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين ، ويعذب من يشاء . كما قال تعالى : (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

وقال الامام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني ـ شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده ـ قال : أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة ، وموعظة من الحكمة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر ، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين قال فيها : « وان الله استوى على عرشه بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول ، وانه عز وجل مستو على عرشه بائن من خلقه ، والخلق منه بائنون ، بلا حلول ولا ممازجة ، ولا اختلاط ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن من الخلق ، الواحد الغني عن الخلق .

وأن الله عز وجل سميع ، بصير ،عليم ، خبير ، يتكلم ، ويرضى ، ويسخط ،ويضحك ، ويعجب ، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء ، «فيقول : هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر » ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ، ولا تأويل . فمن أنكر النزول أو تأول ،فهو مبتدع ضال ، وسائر الصفوة من العارفين على هذا » اه .

وقال الشيخ الامام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في « كتاب السنة » ثنا أبو بكر الأثرم ، ثنا إبراهيم بن الحارث يعني العبادي ، حدثنا الليث بن يحيى قال : سمعت إبراهيم بن الأشعث – قال أبو بكر هو صاحب الفضيل – قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو ؟ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه .

وكل هذا النزول والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ؛ كما يشاء أن ينزل ، وكما يشاء أن يباهي ، وكما يشاء أن يضحك ، وكما يشاء أن يطلع . فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف ؟ . فإذا قال الجهمي : أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل : بل أومن برب يفعل ما يشاء .

ونقل هذا عن الفضيل جماعة ، منهم البخاري في « أفعال العباد » .

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
٤	استفتاء السائل في الرد على الشبهات
٦	اتفاق سلف الأمة وعلمائها على تصديق النزول
٧	سلف الأمة يصفون الله بما وصف به نفسه
٨	قول المعطلة والقرامطة في الصفات
٩	الرد على شبهة القرامطة
١٠	تفصيل قول السلف في حقيقة الصفات
١٢	غلط العلماء في الأسماء المتواطئة
١٣	الاشتراك اللفظي وخطأ النظار فيه
١٣	دعوى التركيب عند النظار
١٥	تناقض النظار في قواعدهم
١٧	معنى الوجود عند النظار
١٨	الرد على اعتقاد النظار في الوجود
٢٠	معرفة الغائب مبنية على معرفة الحاضر

رقم الصفحة	الموضـــوع
٢١	اختلاف العلماء في معنى « التأويل »
٢٤	نفي النزول طريق لنفي الصفات
٢٦	الرد على نفاة النزول
٢٨	الموجودات سبيل لاثبات الموجد
٢٩	دخول الملاحدة والباطنية على المسلمين
٣٠	الرد على الملاحدة .
٣٢	الرد على من قال : كيف ينزل ؟
٣٣	الجواب على من سأل هل يخلو منه العرش
٣٤	الجواب على من قال : ليس هذا جوابي بل هو حيدة عن الجواب
٣٧	الرد على من قال : بأن النزول لأمر الله أو لملائكته
٣٩	سؤال ابن طاهر لابن راهويه عن النزول
٤٠	كلام العلماء في خلو العرش عند النزول
٤٣	أقوال أهل الحديث في خلو العرش
٤٤	كتاب أحمد بن حنبل إلى مسدد بن مسرهد
٤٥	نقل كلام ابن منده في النزول
٤٨	قول الأشعري وأصحابه في النزول
٤٩	مناظرة إسحاق بن راهويه لأصحاب ابن طاهر
٥٠	قول أهل الحديث في الاستواء
٥١	نقل أبي عثمان النيسابوري عن أهل الحديث في إثبات النزول

رقم الصفحة	الموضـــوع
٥٥	الرد على من يقول بنزول أمر الله ورحمته
٦١	كلام ابن قتيبة وقد نقله المؤلف عن مختلف الحديث
٦٦	رد آخر على من يؤول النزول بنزول أمره ورحمته
٦٨	أقوال الناس في فوقيته تعالى على العرش
٧٠	من قال : إن الله جسم فهو مبتدع
٧١	أقوال الناس في معنى الجسم
٧٢	الأصل العقلي في معنى التركيب
٧٥	كفر من قال : إن الله مركب
٧٦	كراهة السلف رد البدعة بالبدعة
٧٧	كراهة السلف للفظ الجبر
٨٠	بطلان قول من قال : كل ما كان يشار إليه بالأيدي فلا يكون إلا مركباً
٨١	أقوال العلماء في لزوم الحركة والخلو من النزول
٨٣	سؤال القبر والأحاديث فيه
٩٣	تفسير قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس)
٩٨	الكلام عن عروج الروح عند النوم
٩٩	تنزيهه تعالى عن مشابهة البشر في الصعود
٩٩	غلط من ظن أن صفات الله مثل صفات البشر
١٠٠	تفسير قوله تعالى (أن بورك في النار)
١٠٣	أقوال الطوائف في قرب الله من عباده
١٠٦	الجواب على اختلاف ثلث الليل باختلاف البلدان وتحقيق النزول بالنسبة لذلك

رقم الصفحة	الموضـــوع
١١٣	انقسام الناس في تشبيه صفات الله بصفات البشر
١١٧	الاستشهاد بقدرة الله عز وجل في تفسير النزول
١١٨	أقوال أبي طالب المكي وغيره من العلماء في التوحيد وتحقيق القول فيها
١٢٣	قول الجنيد في التوحيد
١٢٤	تفسير قوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)
١٢٥	تفسير آيات المعية
١٣٢	تحقيق معنى الفوقية
١٣٣	القول في قربه تعالى
١٤٠	غلط بعض الطوائف في معنى الصفات كالكتابة والقراءة
١٤٤	تحقيق معنى (ثم استوى على العرش)
١٥٠	اختلاف الناس في سؤال القبر وإقعاد الميت
١٥٢	اختلاف العلماء هل الرب تعالى يقوم به فعل من الأفعال
١٥٩	القول في قدم وحدوث العالم
١٦١	أصول المعتزلة والجهمية في إثبات نبوته ﷺ
١٦٥	الرد على من قال : إن طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي طريقة المتكلمين
١٦٨	تحريفات الملاحدة وبعض الصوفية في تفسير القرآن الكريم
١٧٠	محنة الإمام أحمد في خلق القرآن
١٧٢	التنبيه على أصول مقالات الطوائف
١٧٤	كشف القاضي الباقلاني لأسرار الباطنية

رقم الصفحة	الموضـــوع
١٧٦	اعتراف الرازي بخطأ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية
١٧٧	الرد على أرسطو في دوام الفاعلية
١٧٨	اتفاق جماهير العقلاء على أن العالم محدث
١٧٨	تفسير الحركة ، وبيان هل يوصف الله بها أم يجب نفيها عنه
١٨٤	معنى كلمة (الحنّان)
١٨٥	معنى كلمة (الحول)
١٨٧	اختلاف الناس في جواز قيام الأمور الاختيارية بالرب
١٩٠	كراهة الاستشفاع بالله على أحد من خلقه
١٩٢	بحث منقول عن الفتاوى الحموية الكبرى للمؤلف يتعلق بالنزول

* * *